www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

محمد عبد المنعم خفاجي

الحياة الأدبية في مصر
العصر المملوكي والعثماني

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي وأخوه محمد
٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

تصـــــدير

يحتوى هذا الكتاب على دراسات واسعة عن تاريخ الآداب العربية منذ سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ، حتى بدء العصر الحديث عام ١٢٢٠ هـ ، وهى فترة طويلة تمتد نحو ستة قرون فى تاريخ الحياة العقلية والأدبية فى العالم العربى ..

ونحن إذ نكتب تاريخ الحركة الأدبية فى هذه الفترة الطويلة ، نشعر بالظلام الذى يحيط بها من كل جانب من جوانبها ، ونحاول أن نضىء الأنوار وسط الظلام ، لنهتدى بها فى فهم هذه العصور سياسيا وثقافيا وأدبيا .

ونسأل الله التوفيق والسداد بفضله وتوفيقه ، وما توفيق إلا بالله . .

المؤلف

www.dar-alkotob.com دار الكتب

تاريخ الآداب العربية

بعد سقوط بغداد

أولا — عصر المماليك

www.dar-alkotob.com دار الكتب

تمهيــــد

بين عهدين :

سبحانك اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء .

وهكذا شاءت إرادة الله ، ولا راد لمشيئته ــ أن تسقط بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى أيدى المغول (التتار) عام ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م ، وأن ينتهى عهد العباسيين وسلطانهم ، ويذهب إلى الأبد حكمهم وعرشهم ، وأن يرث دولتهم التى شادوها بالسياسة والقوة والدهاء الوارثون ، ويخلفهم فى حكم العالم الإسلامى من كتب الله لهم أن يحكموه .. وبقى العباسيون ودولتهم ذكرى مرددة ، وتاريخا مرويا ، وعبرا ماثلة ، وأحاديث مأثورة . يذكرها المسلمون باللوعة والعبرة وبالغبطة والحسرة ، وبالأسف العميق ، لذهاب دولة إسلامية كبرى ، كان لها من النفوذ الروحى والسياسى فى كل بقاع الإسلام ، ما ألف القلوب حولها ، وأبقى على الزمان مجدها وجلالها ، والله يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ويؤرخ سقوط بغداد عهدا جديدا فى تاريخ الأمة العربية ، فقد سقطت دولة الخلافة العباسية ، وفقدت الحضارة الإسلامية ركنا كبيرا من أركانها ، وانقسم الشرق العربى إلى قسمين : قسمه الشرقى وهو العراق الذى فقد استقلاله وغدا ولاية مغولية ، وقسمه الغربى ، ويتألف من مصر وسوريا (الشام) ، وقد احتفظ باستقلاله ، ودافع عنه دفاع المستميت المناضل ، وأن

www.dar-alkotob.com دار الكتب

كان الحكم فيه قد أصبح فى أيدى طوائف الأجناد من المماليك ، وهم من أصول شتى ، ولكنهم ليسوا عربا ، وإن كانوا قد تعربوا على التدريج ، واعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أكبر حماته والمدافعين عنه .

ووقف الجانبان أحدهما من الآخر موقف العداء والتحفز ، يحاول المغول فتح مصر وسوريا ، ويسعى المماليك لرد عدوان المغول ، وقد كان الفوز حليفهم، وتم لهم النصر بعد جهود كبيرة ، وأخذوا يحاولون فتح بغداد ، ولكنهم فشلوا ، وتقطعت بين العرب أسباب التبادل التجارى والثقافى ، وضعفت قوتهم، وخربت مدنهم . وبسيطرة هذه الدول الأجنبية على الأمة العربية ، من مغول وفرس وترك ومماليك ، فقد العرب عزهم وسلطانهم ، وزحزحوا عن مكان الصدارة وانتقلت من أيديهم زعامة العالم الإسلامى ، إلى شعوب أخرى .

كيف سقطت بغداد :

كانت الخلافة العباسية على عهد آخر خلفائها المستعصم بالله (٦٤٠–٦٥٦هـ) تحكم العراق ، وتتمتع باحترام كبير من المسلمين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان يشاركها فى حكم الشعوب الإسلامية : الدولة السلجوقية فى فارس ، والخوارزمية فى خوارزم ، والاسماعيلية فى اصبهان ، والروم السلاجقة فى أرمينية ، والاتابكية فى الموصل ، والأيوبية فى مصر والشام .

وكان خطر المغول الوثنيين الهمجيين قد استفحل آنذاك فى شرق العالم الاسلامى ، وكانوا قد انسابوا من موطنهم الأصلى فى منغوليا إلى غرب آسيا ، فهاجموا بقيادة جنكيزخان الأمبراطورية الخوارزمية وقضوا عليها . ثم أخذوا يتقدمون نحو أملاك الخلافة العباسية ويهددونها تهديداً خطيراً . وفى عام ٦٥٤هـ ، قاد هولاكو جيشا ضخما وزحف به على بغداد حتى وصل شرقيها فى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الحادى عشر من المحرم عام ٦٥٦ هـ ، وبعد أربعة أيام دخل بغداد الغربية بخيانة الوزير ابن العلقمى ، الذى كان يشجع هولاكو على غزو العراق والاستيلاء على بغداد خوفا من ضياع سلطانه(١) ، وفى يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير ١٢٥٨ م) خرج الخليفة وأولاده الثلاثة وعشرة آلاف من كبار رجال الدولة ، وأعلنوا الاستسلام أمام هولاكو وجيشه ، وسلمت بغداد ، وجمع السلاح من أهلها ثم انقض عليها جيش هولاكو فقتلوا أهلها ، وخربوا مساجدها وقصورها ، ونهبوا كل ماوقعت عليهم أيديهم من أموال وتجارات وتحف وكنوز ، وأبادوا تراثهـا العلمى ، فخربوا المكتبات والمدارس ، وأحرقوا الكتب أو رموا بها فى دجلة ، وقدر المؤرخون عدد القتلى بنحو مليونين . . وبعد خمسة أيام من استسلام الخليفة ذهب هولاكو وأمراء جيشه إلى قصر الخلافة فنهبوه وأذلوا سيده ، وقتلوا الكثيرين من سكانه ، واستولوا على تحفه وكنوزه ، وفى الرابع عشر من صفر ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير عام ١٢٥٨م) قتل هولاكو الخليفة المستعصم وولده الأكبر . ثم أصدر أمره بتعقب أمراء الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ولم ينج إلا أصغر أبناء الخليفة الذى أبقته زوجة هولاكو ، واسمه مبارك شاه ، وقد أرسل إلى سمرقند وتزوج من منغولية ، وأسرت إحدى بنات الخليفة وماتت فى سمرقند

وفى مصرع بغداد والخلافة العباسية يقول شمس الدين الكوفى :

قف فى ديار الظاعنين ونادها يا دار ما فعلت بك الأيام ؟
يادار أين الساكنون وأين ذياك البهاء وذلك الإعظام ؟

(١) قيل إنه كان يريد نقل الخلافة إلى العلويين ؛ وقيل إنه غضب المذابح التى نزلت بالشيعة عام ٦٥٥ هـ ، وقيل إن المستعصم قدم عليه الدفتر دار الصغير وغل يده بعد أن كانت فى قبضته جميع السلطات .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

يادار أين زمان ربعك مونقا وشعارك الإجلال والإكرام ؟
يادار مذ أفلت نجومك عمنا والله من بعد الضياء ظلام
فليعدهم قرب الردى ولفقدهم فقد الهدى وتزلزل الإسلام
فمتى قبلت من الأعادى ساكنا بعد الأحبة لاسقاك غمام

ويقول أيضا فى قصيدة أخرى :

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانهـا جيرانى

ولقد أبقى هولاكو ابن العلقمى وزيراً ، واجتمع العلماء فى بغداد فى المدرسة المستنصرية حيث طرح عليهم هولاكو هذا السؤال : أيهما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم العادل ، وكان هذا هو حكم القوة لا حكم الدين طبعا . . . وتم فتح العراق وخضوعه لسلطان المغول الوثنيين . وكان زوال الخلافة العباسية نهاية لتاريخ مجيد حافل ، وخاتمة للحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى ظلالها الآداب والفنون ، والعلوم والمعارف ، وانتهت مدنية كانت فى القرون الوسطى مصدر نور وهداية وخير للانسانية جمعاء ، وللعالم كافة ، وللأمم العربية وغير العربية قاطبة ، وصارت بغداد التى كانت قلب الاسلام النابض أطلالا دراسة ، وصمتت فيها الألسنة ، وخرست الأفواه ، وماتت الحركة العلمية والأدبية بتدمير مدارسها ومكتباتها ، وإحراق مخطوطاتها وكنوزها العلمية ، وقتل الآلاف من أدبائها وعلمائها ، وتشريد باقيهم فى أنحاء الوطن الاسلامى غربى العراق وبذلك تخلت بغداد عن مركز الصدارة الأدبية والعلمية ، كما تخلت عن زعامتها الدينية والروحية(١) .

(١) راجع : ابن الأثير ، والذهبى ، والخميس للديار بكرى ، وتاريخ=

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وظل المغول أمدا طويلا يتولون حكم العراق وفارس وشرق العالم الاسلامى وهم على وثنيتهم وجهالتهم ، لا يستقيم لهم أمر ولا يطرد لهم نظام . وسعت المسيحية ممثلة فى بابوات أوربا وفى ملوكها إلى هولاكو وخلفائه يعرضون عليهم اعتناق دين المسيح ويشرحون لهم تعاليمه ، ولكن غازان أعلن فى الرابع من شعبان ٦٩٤ هـ — ١٩ يونيو ١٢٩٥ م اعتناقه للاسلام ، وأسلم بإسلامه نحو مائة ألف من أتباعه(١) ، واعتنق خلفاؤه الاسلام ، وبإسلامهم أخذت العلوم الدينية والعربية تفيق من سباتها ، وظهر الأدب الصوفى فى إيران ، وأخذوا يشجعون العلوم والعلماء ، ويرفعون عن كاهل الشعب المظالم ، يكفرون بذلك عما قدموا من سيئات فى حق الاسلام وشعوبه .

انتصار مصر فى معركتها مع التتار :

١ — بسقوط الخلافة العباسية مد المغول سلطانهم السياسى إلى مشارف الشام وأصبحوا يحكمون شرق العالم الاسلامى والعراق كله ، ويهددون الشام ومصر تهديدا خطيرا . . وكانت مصر وسوريا إبان ذلك قد انتهى منهما حكم الأيوبيين ، وتسلمت أمورها دولة جديدة ، هى دولة المماليك ، ويرجع تاريخ أصل المماليك إلى الغارات التى كان يشنها المسلمون على آسيا الصغرى ، فقد كان أسراهم من الشركس وغيرهم يباعون فى الأسواق ، ويتخذون عبيدا ، فاشترى الأيوبيون منهم أكثر من اثنى عشر ألفا ، واتخذوا منهم حرسا لهم ، وما لبثوا أن زاد نفوذهم فى الدولة الأيوبية ، واستفحل خطرهم ، فقتلوا الملك المعظم

= الخلفاء للسيوطى ، وتاريخ ابن خلدون ، وابن خلكان ، والفوات لابن شاكر ، والمختصر لأبى الفدا ، والسلوك للمقريزى ، ومحنة الاسلام الكبرى لمصطفى طه بدر ، وسواها من المراجع .

(١) ص ١٦ مغول إيران بين المسيحية والإسلام — مصطفى طه بدر .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

توران شاه عام ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م ، وانقضت تسع سنوات بعد ذلك تنازع فيها الأيوبيون والمماليك العرش ، حتى خلص أخيرا لقطز عام ٦٥٧ هـ ١٢٥٩م، وكان من قبل نائب الملك المنصور . ويعد قطز المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، وفى أول حكمه كان التتار قد استولوا على الموصل ، ثم غزوا الشام، فاستولوا على حلب ، وتقدم هولاكو ففتح دمشق وسواحل الشام البحرية ، وتقدم إلى مصر ، وبعث بمنشور إلى قطز يقول فيه : « يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ولا تقاتلونى أبدا فتندموا » ، وسخط قطز من هولاكو ، وسار من القاهرة بجيش ضخم لملاقاة جيش هولاكو والتحم الجيشان فى معركة (عين جالوت) على أرض فلسطين ، وفى يوم الجمعة ٢٥ من رمضان ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م انتصر الجيش المصرى انتصارا باهرا ، وسحق الغزاة الذين كانوا يريدون أن يدنسوا أرض الوطن بأقدامهم ، وعاد قطز وأكاليل المجد فوق رأسه إلا أن بيبرس قائده اغتاله فى الطريق وتولى عرش مصر بعده عام ٦٥٨ هـ .

٢ — وبهذا النصر المؤزر انتهى إلى الأبد خطر المغول على العالم العربى، وسحقت قواتهم العسكرية ، وأبيدت الخرافة القائلة بأنهم لا يغلبون ، وتسلمت مصر زعامة العالم الاسلامى ؛ وأصبحت هى المدافعة عن مجد المسلمين وكيانهم .

انحياز الآداب العربية إلى مصر :

١ — فى وسط هذه الزعازع الهوج ، والأعاصير السود ، والمحن القائمة ، التى أصابت بغداد وخلافتها ، انبثق الفجر من جديد يؤذن فيه المؤذن بسلامة الوطن العربى الاسلامى ؛ ويهنئون مصر وقادتها بانتصارهم المؤزر ، وتلفت

www.dar-alkotob.com دار الكتب

العالم الإسلامى ليلق بمقاليد زعامته إلى الأبطال الميامين ، والأشاوش الصيد من أبناء مصر . . ووقف العلماء والأدباء والمفكرون ورجال الفنون وسط الاضطرابات الثائرة التى أصابت العراق وأهله وخلال موجة الإرهاب والحكم الغاشم الجاهل ، والغزو المدبر المبير ، وقفوا يتطلعون إلى بغداد التى كانت مثابة لهم ، فرأوا السيف مصلتا ، والدمار يعصف بكل عزيز ونفيس من تراث المسلمين وآثارهم التى كانت مفخرة للشعـــوب الإسلامية جميعها ، بل للانسانية كافة ، وشاهدوا كنوز علومهم وآدابهم يقذف بها قذفا فى نهر دجلة ، ويحرق ماتبقى منها أو يمزق بالأيدى ويداس عليه بالنعال ، وتلفتوا فوجدوا الحرمات مهدورة ، والأرواح مسفوكة ، والحرمات منهوكة ، والأفواه مكممة ، والألسنة خرساء . . حينئذ أخذوا يحاولون الفرار بكل وسيلة من العراق وسفاحيها الأشرار ، وتطلعوا بأبصارهم فلم يجدوا مأمنا يلوذون به ، وينعمون بالأمن والسلامة والحرية فيه غير مصر والشام ، فاتجهوا إليهما ، وهم فى حياطة حاكم مصر قطز ، وفى حراسة جندها البواسل . اتجهوا إليها ليقيموا دولة عربية للعلم والأدب ، وللدين ولغة العرب .

وتمادى خطر المغول على الشام فأخذ من بقى فيها فى الهجرة إلى القاهرة ، ثم كانت معركة عين جالوت الفاصلة ، فأمن الخائفون ، وهدأ المفزعون ، وسكن الحائرون ، وصارت القاهرة مقصد الناس ، وملجأ العلماء من كل مكان ، وزاد من شأنها أن سلطانها بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) أحيا فيها الخلافة عام ٦٥٩ هـ من جديد ، فدعا أحد أبناء الخلفاء العباسيين ، الذين فروا من هولاكو ، واسمه أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى ، وبايعه بالخلافة ؛ ولقبه بالمنتصر بالله ، وأصبحت القاهرة من جديد مقر الخلفاء العباسيين ، وصار لهم النفوذ الروحى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

على جميع بلاد الإسلام ، وإن كان السلطان السياسي بقى بيد بيبرس وخلفائه من المماليك .

نزل العلماء والأدباء مصر التى احتلت مكانة العراق ، وأقاموا فى القاهرة التى احتلت مكانة بغداد ، وبها يومئذ عدد ضخم من المدارس والمعاهد ومجالس العلم ، وبها ماشاء الله من المكتبات ونفائس آثار الإسلام . نزلوا فيها فوجدوها حرما آمنا ، وموطنا كريما ، ولا قوافيها أبناء عمومتهم ، ولقوا فى إقامتهم من عطف المماليك ماحبب إليهم البقاء ، فانبسطت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وطاب لهم المقام ، وأخذوا يكتبون ويؤلفون ، وينثرون وينظمون .

وقد هاجر إلى القاهرة فى غضون هذه الفترة عدد لا يحصى من علماء الشرق الإسلامى والعراق والشام ، وعدد آخر غير قليل من الأندلس وأدبائها ، فارين من وجه الأسبان المتعصبين ، الذين استولوا على المدن الاسلامية فى الأندلس من أيدى العرب . وأذلوا المسلمين هناك سوء العذاب ، وساموهم الوبال والنكال الشديد .

وكانت مصر آنذاك قد بسط المماليك فيها سلطانهم ، وأقاموا فيها دولتهم الناشئة الفتية ، وهم قوم أشداء ، مارسوا الحروب والفروسية . واعتادوا الخشونة وبعد الكثير منهم عن الترف . وأخذوا يصبغون ملكهم بصبغة دينية . إذ لا حسب يسندهم . ولا ماضى يعضد ملكهم ، ولا تاريخ يؤيد مازعموه من حق لهم فى حكم العالم الاسلامى فأقبلوا على بناء المدارس والمساجد وتقريب العلماء . والاغداق على الأدباء وإقامة الملاجئ والبيمارستانات . وحبس المال الوفير على نواحي الخير والبر ، ودفعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف . وكان لهم من ذلك ومن انتصاراتهم على التتار وعلى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الصليبيين فى أرض الشام مفاخر ومآثر لا تبلى . وزاد من عظمة أمرهم فى عيون المسلمين أنهم أصبحوا حماة الخلافة الاسلامية المكلومة . وملاذ الأمم العربية المهزومة ، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان .

ولولا عواصف الحروب . وزعازع الخلافات التى كانت تثور بين قواد المماليك الفينة بعد الفينة ونكبات الأمراض والأوبئة العامة والسنين الجدبة لتغير وجه التاريخ . ولكان للأدب وللغة العرب شأن آخر وأى شأن . فإن الآداب والفنون لا تزدهر إلا فى ظلال السلام والأمن والهدوء والرخاء والرفاهية ، فلا يمكن لشاعر أن يرد والسيوف مشرعة ، كما لا يمكن للبلبل أن يصدح والسهام مصوبة نحره .

هجرة وهجرة :

كانت هجرة العلماء والأدباء إلى القاهرة إثر سقوط بغداد شبيهة من بعض نواحيها بهجرة علماء اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين عام ٨٥٧ هـ ، إذ أحيا هؤلاء نهضة العلوم ، وبعثوا فى أوربا حركة جديدة ، وحياة علمية مستحدثة ، بدراستهم اليونانية ، وترجمتهم من جديد لآثارها وفلسفتها . وقد غيرت هجرتهم هذه الكثير من وجوه الحياة الأوربية ، ودفعت الناس إلى التخلص من أغلال القرون الوسطى وأوزارها ، وإلى التفكير فى إصلاح معيشتهم ، وطرائق حياتهم ، وألوان علومهم وفنونهم ومذاهب دينهم .

وهجرة علماء المسلمين إلى القاهرة دفعت كذلك بأيدى العلوم والآداب والفنون ، فأخذت النهضة الأدبية والعلمية يطرد سيرها ، ويسرع خطوها ، ويعظم شأنها ، ولكنها مع ذلك لم تغير كالهجرة السابقة شيئا من معالم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى العالم الاسلامى ، ولم تمتد آثارها الأدبية والفكرية إلى غير مصر والشام ، وحسبها أنها أحدثت نهضة دينية وعلمية وأدبية ، وفق ما كانت تسير فيه من خطة مرسومة أو شبه مرسومة ومقدمة ابن خلدون ــ نزيل مصر فى أيام السلطان برقوق ــ التى أودعها خلاصة تجاربه وثمرات تفكيره والكثير من الآراء الاجتماعية والسياسية ووسائل إنهاض الشعوب وإصلاح طرائق التعليم ، لم تنفذ إلى نفس غيره من علماء عصره ، ولم يظهر لدعوته هذه أثر فى الفكر الاسلامى العربى ، ولا فى الحياة المصرية ، لأن النزعة إلى الاصلاح لم تكن عامة ، والرأى العام لم يكن قد استكمل وسائل النهوض والنضوج ، ولأن الشعور بالحاجة إلى الاصلاح لم يوجد بعد .

ولا شك أن الحركة العلمية والأدبية كان من عواملها هذا التشجيع الرسمى الذى ذكرناه ، ثم الشعور الدينى القوى الذى بعث فى العلماء روح الاقدام والعزم والتضحية والعمل من أجل استعادة مجد الثقافة العربية الاسلامية وانتشر صيت مصر والقاهرة ، وأزهرها العتيد فى كل مكان ، حتى ليقف عالم سودانى من خريجى الأزهر فى سنار ليمدح أحد ملوك الفونج ، وهو السلطان بادى أبو دقن فيقول :

أيا راكبا يسرى على متن ضامر
إلى صاحب العلياء والجود والبر

ويطوى إليه شقة البعد والنوى
ويقتحم الأوعار فى المهمه القفر

وينهض من مصر وشاطىء نيلها
وأزهرها المعمور بالعلم والذكر

www.dar-alkotob.com دار الكتب

لك الخير إن وافيت (سنار) قف بها
وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيار فى صرح أفقها
تجد كل ماتهوى النفوس من البشر

لقد شجع مماليك مصر النهضة الدينية والعلمية على أن تسير بخطى واسعة فى سبيل استكمال حاجات المجتمع العربى الروحية والثقافية ، ودفعوا العلماء إلى التأليف بما بذلوا لهم من مال وجاه ، وأسندوا إليهم من مناصب ، فامتلأت خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات ، وجليل الآثار ؛ وزاد اهتمامهم بالعربية فجعلوها لغة رسمية ، وأحاطوا ديوان الإنشاء برعايتهم واهتمامهم ، ثم أنشأوا المدارس والمساجد وحلقات العلم التى أمها المتعلمون من كل مكان ، وأصبحت تزخر بالطلاب يقصدونها من جميع الممالك الإسلامية ، ينهلون من معينها العذب ، ويرتشفون من ينابيعها الثرة ، ورتبت لهم المرتبات والجوائز ، وحبست عليهم الأوقاف ، وأصبحت مدن القاهرة والاسكندرية وقوص والفيوم ، ثم دمشق وحلب وحماة وحمص ، تحتل مكانة بغداد وقرطبة وجرجان وأصفهان وبخارى وسواها .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الحياة الأدبية فى مصر والشام بعد سقوط بغداد

فى عصر المماليك

٦٥٧ – ٩٢٣ هـ : ١٢٥٩ – ١٥١٧ م

الحياة السياسية فى هذا العصر :

ينقسم العصر المملوكى فى مصر إلى عصرين أو دولتين :

١ — دولة المماليك البحرية ، وتنتهى عام ٧٨٤ هـ – ١٣٨٢ م ، وملوكها فى الأصل من الترك ، وهم مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، أكثر من شرائهم وجعلهم أمراء دولته وقوادها وحرسه الخاص ، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم البحرية ، وأول من نازع الأيوبيين منهم الملك هو عز الدين أيبك عام ٦٤٨ هـ ، ثم استقر الأمر فيهم لقطز كما أسلفنا ، ومن ملوكها بيبرس والأشرف خليل الذى قضى على إمارات الصليبيين بالشام عام ٦٩١ هـ ، والناصر قلاوون وقد عنى بنشر العلوم والمعارف وبناء المساجد والمبانى الفخمة .

٢ — دولة المماليك الشراكسة أو البرجية وتنتهى عام ٩٢٣ هـ – ١٥١٧م ومعظمهم من الشراكسة . . وعدد ملوكها ثلاثة وعشرون ، وأولهم وأشهرهم برقوق ، وتلاه فرج بن برقوق ، ومنهم المؤيد ، والأشرف برسباى ، وقايتباى ، والغورى ، وقد خطب باسم برقوق فى بعض بلاد العجم وفى الموصل وشمالى العراق ، وضربت السكة باسمه فى كل هذه البقاع ، وكانوا يسمون بالبرجية لأنهم سكنوا ابراج قلعة المقطم .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقد كان لدولتى المماليك أثر ضخم فى العالم الإسلامى بقضائهم على خطر التتار ، وقضائهم على إمارات الصليبيين فى سواحل الشام ، وبإحيائهم الخلافة الإسلامية ، وقد نشروا نفوذ مصر وسلطانها فى كل مكان ، وكانت تخضع لهم بلاد الحجاز واليمن وشرق إفريقية وليبيا وبعض جزر البحر الأبيض والشام وكثير من أراضى العراق وبلاد النوبة وشمال السودان .

وكانت مصر خاضعة اسما للخلفاء العباسيين ، وكان نفوذهم الدينى والروحى كبيرا ، أما السلطان الحقيقى فقد كان بأيدى المماليك .

الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى فى عصر المماليك طبقات ، منها الفلاحون والعمال والتجار والصناع والموظفين ، ثم طبقة الأغنياء والوجهاء ، ثم طبقة المماليك وكان لهم النفوذ والهيمنة على مصائر البلاد .

وكان حكم المماليك فى مجموعه حكم فوضى ودسائس وفتن داخلية ، وكانوا منقسمين شيعا وأحزابا ، ينتسبون إلى قوادهم وسلاطينهم ، منهم الأشرفيون والظاهريون والمؤيدون .

وكانت الحكومة على جانب كبير من القوة والسلطان والثراء ، وذلك قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ، وكانت مواردها من الضرائب والمكوس المفروضة على التجارة ، التى تمر بالبحر الأحمر والسويس ، فى طريقها بين الشرق وجنوة والبندقية فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولم يعن المماليك بزراعة ولا عمارة ، فوقفت حركة العمران ، واختل الأمن ، واضطربت الأمور ، وتناقص عدد السكان ، وضعفت موارد البلاد —

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الحياة الثقافية :

١ — قامت فى عصر المماليك حركة علمية كان من مظهرها كثرة العلماء فى كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية العربية ، وضخامة ما كتبه هؤلاء العلماء من مؤلفات ، وممن نبغ فى هذا العصر : الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط م ٨١٧ هـ والقلقشندى صاحب صبح الأعشى م ٨٢١ هـ ، والنويرى صاحب نهاية الأدب م ٧٣٢ هـ ، والحموى صاحب خزانة الأدب ؛ وصلاح الدين الصفدى م ٧٦٤ هـ ، وصفى الدين الحلى م ٧٥٠ هـ ؛ وابن نباتة م ٧٦٨ هـ ، والبوصيرى م ٦٩٥ هـ ، وابن الوردى م ٦٨٩ هـ ، وابن دقاق م ٨٠٩ هـ مؤرخ مصر ، والمقريزى م ٨٤٥ هـ ، ومحمد جمال الدين الوطواط م ٧١٨ هـ ، والدميرى صاحب حياة الحيوان م ٨٠٨ هـ .

ومن مشهورى العلماء : ابن مكرم صاحب لسان العرب ، وأبو حيان ، والرضى ، والسيوطى ، والسبكى والبلقينى والعينى والسيوطى ، وسواهم .

٢ — وكثرت المدارس كثرة ملحوظة فى هذا العصر ، ومن أشهرها : المدرسة المنصورية ، والمدرسة الناصرية التى بناها الناصر ، والمدرسة الظاهرية ، ومدرسة السلطان حسن ، والمدرسة المؤيدية ، وذلك عدا الأزهر وجامع عمرو ، وكان لهذه المدارس أثر كبير فى نهضة العلم وازدهار الثقافة وكثرة العلماء ، وكان فى كثير من المدارس خزائن حافلة بالكتب الثمينة فى مختلف العلوم والمعارف ، فكان فى المدرسة الفاضلية خزانة كتب تحتوى على مائة ألف مجلد ، وكذلك كان بالمدرسة المحمودية(١) .

(١) أنشئت المدرسة المحمودية عام ٧٩٧ هـ ؛ ويقول المقريزى فى خزانة كتبها : ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها ولا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبها كتب الإسلام من كل فن :

www.dar-alkotob.com دار الكتب

٣ — وكانت المؤلفات فى هذا العصر ، طابعها الجمع والرواية والتحقيق العلمى ، وكان يقصد بها سد الفراغ الذى حدث فى ميدان الثقافة الإسلامية والعربية بتأثير نكبة بغداد(١) وانتهاء حكم العرب فى أسبانيا ، وهى أشبه بالموسوعات والجاميع .

٤ — ومن مصادر الثقافة الأدبية فى هذا العصر : نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، وهو سفر كبير فى ثلاثين مجلدا ، وصبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى ، وقد كان مؤلفه يكتب مقامة فى صناعة الانشاء وأصولها وقوانينها لما لحق بديوان الانشاء ، ثم سئل أن يشرحها فكان شرحها هذا الكتاب ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى م ٧٤٩ هـ ويقع فى بضعة وعشرين مجلداً ، وقد ولد العمرى بدمشق عام ٧٠٠ هـ ، ولسان العرب لابن منظور م ٧١١ هـ وهو معجم لغوى كبير يقع فى عشرين جزءاً ، ومقدمة ابن خلدون م ٨٠٨ هـ ، وحياة الحيوان للدميرى ، والمستطرف للابشيهى م ٨٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة والاتقان والمزهر للسيوطى م ٩١١ هـ ، وحلبة الكميت للنواجى م ٨٥٩ هـ ، وخطط المقريزى ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى ، وسواها .

٥ — ومواطن الثقافة فى هذا العصر كانت هى : مصر ، والاسكندرية وقوص ، وقفط ، ودمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، وبيت المقدس ، وسواها

الحياة الأدبية فى عصر المماليك :

١ — من البدهى أن كلامنا هنا على الأدب فى عصر المماليك لا يقتصر

(١) يقول السيوطى : وقد ذهبت جل الكتب فى الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن فى اللغة لا تجىء حمل جمل واحد (١ : ٤٩ المزهر) .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

على مصر وحدها ، إنما يشمل موطنين كبيرين من مواطن العروبة هما . مصر والشام ، فقد كانت مصر والشام آنذاك يكونا وحدة أساسية واحدة ، وكانا يخضعان لظروف متشابهة أو وحدة : سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية .

٢ — ولا شك أن الثقافة الاسلامية والعربية التى ازدهرت فى عصر المماليك ، قد كان لها أثر كبير فى رق الذوق الأدبى ، وفى استمرار الحركة الأدبية ، بيد أن المماليك لم تكن عروبتهم أصيلة ، ولم يكونوا يفهمون قيمة الأدب ، ولا يدركون خطره ، ولا يهتمون به ، اهتمامهم بالعلم ، فقد كانوا رغبة فى الظهور بالمظهر الدينى الصحيح يشجعون الحركة العلمية لأنها تتجه إلى خدمة الاسلام وعلومه ، وهم يحبون أن يظهروا بمظهر حماة الدين والمدافعين عنه . . أما الأدب فلم يكونوا يدركون أن له صلة بالجانب الاسلامى ، ولا أنه هو المعين على فهم القرآن وعلوم الاسلام ، فلم يولوه كبير عنايتهم ، ولاجل اهتمامهم ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع بعضهم من التنافس على تشجيع الأدباء تنافسهم على تشجيع العلماء . . وعلى أية حال فإننا نجد الحركة الأدبية تسير فى الغالب بعيدة عن قصور السلاطين ، وتظهر فى مظهرين كبيرين هما : الكتابة الفنية ، والشعر .

ويمتاز أدب العصر المملوكى بعدة ميزات ظاهرة ، منها :

١ — شيوع العاطفة الدينية ، وقد أشعل نارها الحروب المقدسة ضد الصليبيين والتتار ، لذلك وجدنا فى هذا العصر أدبا نضاليا قوميا متقدما يدعو إلى الكفاح والجهاد فى سبيل الله ، والانتصار لدينه ، والدفاع عن الاسلام ضد خصومه وأعدائه . .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ولقد كان للمماليك فضل تطهير البلاد الاسلامية تطهيرا تاما من الصليبيين نال هذا الشرف الكبير الملك الأشرف بن قلاوون ، عام ٦٩١ هـ ، إذ فتح هذا السلطان مدينة عكا وخربها ، ولم يدع فى بقية الساحل أحدا من الفرنج ، وفى هذا يقول محيي الدين بن عبد الظاهر :

يابنى الأصفر قد حل بكم ... نقمة الله التى لا تنفصل
نزل الأشرف فى ساحتكم ... أبشروا منه بصفع متصل

ويقول شهاب الدين محمود الحلبى كاتب ديوان الانشاء فى عكا :

مررت بعد تخريب سورها ... وزند أوار النار فى وسطها وارى
وعاينتها بعد التنصر قد غدت ... مجوسية الابراج تسجد للنار

وقد كان من أثر شيوع العاطفة الدينية : نشأة فن المدائح النبوية فى الادب المملوكى ، وقد نبغ هذا الفن فى عصر المماليك وأخذ منزلته فى صدر فنون الادب . ومن أشهر أعلامه البوصيرى م ٦٩٥ هـ

٢ — شيوع البديع فى أدب هذا العصر ، وكانت مدرسة للبديع تؤثر الاغراق فى المحسنات البديعية ، وكان زعيمها هو القاضى الفاضل ، ونشأت طبقة من تلاميذه عنوا بالبديع عناية فائقة ، ومنهم : ابن سناء الملك وابن الفارض وابن النبيه قبيل عصر المماليك ، ثم محيي الدين بن الظاهر وابن نباتة فى العصر المملوكى .

وكان إلى جانب هذه المدرسة مدرسة أخرى تعنى بالمعنى قبل عنايتها بالتحسين البديعى ، ومنها : السراج الوراق ، ونصير الدين الحمامى وسواهما . وأعلام هذه المدرسة لم يسرفوا فى البيع إسراف المدرسة الفاضلية .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

اللغة العربية وحالتها فى عصر المماليك

تمهيد :

زهاء ثلاثة قرون مرت على العالم الإسلامى ، من سقوط بغداد إلى الفتح العثمانى ، وهو مهدد تهديدا خطيرا فى لغته ودينه وفى حياته .

فالمغول والصليبيون ، الأولون فى شرق العالم الإسلامى إلى حدود سوريا ، والآخرون فى سواحل الشام ، ثم الأسبانيون فى الأندلس ، كل هؤلاء كانوا عوامل تهديد وإفناء لكل مقومات الشعوب الإسلامية ؛ ثم الأتراك العثمانيون فى آسيا الصغرى يهددون تهديدا خطيرا العالم العربى فى حريته وكيانه ومقوماته؛ ثم البرتغاليون ، وقد أخذوا يجوبون البحار فكشفوا رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا إلى الهند ، واحتكروا تجارة الشرق وانتزعوها من أيدى العرب ، وحطموا قوتهم وتجارتهم فى البحار الشرقية ، وسعوا إلى نشر نفوذهم فى البحر الأحمر تمهيدا للنزول فى الحجاز وانتهاك حرمة مقدساته ، بالتحالف مع الحبشة ، ولكن الله سلم فنهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية ، فبعثوا بالأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبالجيوش لفتح اليمن ، ولكن زمام التجارة الدولية والسيادة البحرية أفلت من أيديهم ، وذهب الرخاء الذى كانت مصر تنعم به من موارد التجارة .

وكانت اللغات السائدة فى العالم الإسلامى آنذاك هى التركية والمغولية والفارسية ، وكانت هذه لغات تخاطب ، وهى لسان الحكومات الرسمى ، وسادت

www.dar-alkotob.com دار الكتب

اللغة البربرية فى شمالى افريقيا مع خليط غير مفهوم فى العربية .. وكان حكام المسلمين من عناصر غير عربية ، كالمغول والفرس والترك والمماليك ، ومع ذلك رعى الله الإسلام بإسلام المغول والترك ، ورعى اللغة العربية فبقيت لغة التأليف والأدب فى أغلب بلاد الاسلام ، بفضل القرآن الكريم ، وبفضل مصر وجهود علمائها ومدارسها ومعاهدها ، وخاصة الأزهر الشريف .

شأن العربية فى مصر والشام :

ومع كل ما ذكرناه سالفا ، ومع أن حكام مصر والشام كانوا غير عرب ، ومع انهيار اللغة العربية فى كثير من بقاع الاسلام ، فقد حفظ الله العربية وآدابها فى مصر والشام ، بل إن العربية ازدهرت فيهما ازدهارا كبيرا ، فى عصر المماليك سادة العالم العربى والاسلامى آنذاك ، ويرجع أسباب ازدهارها إلى مايلى :

١ — عناية المماليك باللغة العربية ورعايتهم لها : لانهم نشأوا فى موطنها مصر والشام ، ولأن شعوبهم كانت تعتز بالعربية وتتعصب لها ، ولأنهم أرادوا أن يظهروا بمظهر دينى نبيل يحبب الشعب فيهم وليس أرفع فى هذا المضمار من خدمة الدين وعلومه .

٢ — الاكثار من إقامة المدارس والمساجد وخزائن الكتب فى هذا العصر .

٣ — تشجيع حركة التأليف وكثرة المؤلفين ، فقد حث المماليك العلماء على أن يؤلفوا ، ويصدروا مؤلفاتهم بأسمائهم .

٤ — تعصب العرب وعلمائهم العربية بعد أن فقدت كل مقوماتها فى شرق العالم الاسلامى .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

العوامل التى أثرت فى ازدهار العربيه فى هذا العصر

١ — المدارس

كثرت دور العلم فى مصر والشام فى عهد المماليك من مدارس وخوانق، وكانت لسلاطين هذه الدولة عناية كبرى بهذه الدور ، وأعانهم على ذلك الثراء الذى بلغته مصر فى أيامهم ، وزاد فى حماستهم لإنشائها الخراب الذى أصاب به التتار بلاد الإسلام والعروبة ، ومن أشهر هذه المدارس ما يلى :

١ — المدرسة الظاهرية القديمة ، أنشأها الظاهر بيبرس البندقدارى عام ٦٦٢ هـ ، ونظم بها دروسا لفقه المذهب الشافعى والحنفى ، وللحديث وعلوم القراءات ، وألحق بها خزانة كتب كبيرة ، ومن أشهر أساتذتها الحافظ شرف الدين الدمياطى ، وكانت خزانة كتبها تشتمل على عشرات الألوف من المخطوطات :

٢ — المدرسة الظاهرية الجديدة أنشأها الظاهر برقوق ، وفرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ ، فأقبل الشعراء ، على السلطان الملك الظاهر يهنئونه بها ، وكان من ذلك قول بعضهم :

الظاهر الملك السلطان همته ... كادت لرفعتها تسمو على زحل
وبعض خدامه طوعا لخدمته ... يدعو الجبال فتأتيه على عجل

وفى كلمة عجل تورية لطيفة ، فهى بمعنى السرعة ، أو بمعنى آخر مقصود هو العجلات ، إشارة إلى ما كان يتميز به بناء هذه المدرسة ، إذ كانت تحمل

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أعمدتها الضخمة على عجلات ؛ وقد عين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وللحديث والقراءات ، فلم يكن منهم من هو فائق في فنه على الآخرين في فنونهم(١) » وكان من أشهر أساتذتها الشيخ سراج الدين البلقيني .

٣ — مدرسة السلطان حسن ، ولا تزال باقية إلى اليوم ، وقد بناها السلطان حسن بن قلاوون عام ٧٦٢ هـ ، ولا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في ضخامة شكلها(٢) ، وكانت حلقات المذاهب الأربعة بها كبيرة جليلة الأهمية .

٤ — المدرسة المؤيدية أنشأها الملك المؤيد عام ٧١٠ هـ ، وهي باقية إلى اليوم فيما يسمى « جامع المؤيد » بالقرب من « بوابة المتولي » التي كانت تسمى قبلا باب زويلة .

٥ — هذا ماعدا مدارس أخرى عديدة مثل : المدرسة المنصورية التي بناها المنصور قلاوون ، وكان يدرس الطب بها عدا العلوم الإسلامية ؛ ومثل المدرسة الناصرية ، والمدرسة الصاحبية البهائية وكان بها خزانة كتب جليلة ، ومثل المدرسة المحمودية ، وقد أنشئت بها خزانة كتب يقول فيها المقريزي : « ولا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها ، وبها كتب الإسلام من كل علم وفن » ، ومدرسة الأمير جمال الدين التي أنشئت عام ٧١٠ هـ ، وكان بها خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة ، والكتب النفيسة .

(١) ٢ : ١٤٦ حسن المحاضرة للسيوطي .
(٢) ٢ : ١٤٦ حسن المحاضرة نقلا عن خطط المقريزي .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

٦ — هذا عدا ما أنشىء من مدارس فى الأقاليم مثل : الاسكندرية وقفط وقوص وقنا وأسنا .

وعدا المدارس التى أنشئت فى دمشق وحلب وحماة وحمص وبيت المقدس ، وسواها .

* * *

وقد أنشأ المماليك بجانب هذه المدارس الكثيرة ، بيمارستانات عدة لعلاج المرضى ودراسة الطب ، وكان يدرس فى خانقاه شيخو الطب والعلوم الشرعية ، وقد أنشأه الظاهر سيف الدين شيخو .

. . .

وكانت الثقافة الدينية والعربية ودراسة الطب شائعة فى هذا العصر ، وكان « الأدب » يدرس ويولى عناية كبيرة ، وللأدب قيمة كبرى فى تلك العصور لأنه يعين على فهم الدين ويساعد على تكوين ذوق لغوى مستقيم ، ولا نكاد نعرف عالما من علماء مصر والشام فى هذا العصر إلا وله إلمام بالأدب وذوق كبير فيه ، فابن دقيق العيد كان يحفظ فى الأدب « زهر الآداب »(١) ، وكثير من علماء هذا العصر كانوا ينظمون الشعر الجيد وينشئون الرسائل البليغة .

أما علوم الهندسة والرياضة والكيمياء ، فكانت تدرس فى حلقات خاصة فى المنازل لا فى المساجد ، وأما الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية فقد كانت مكروهة ، ويمثل ذلك فتوى ابن الصلاح (ـ ٦٤٣ ﻫ) بتحريمها ، يقول جولدزيهر : وليست فتوى ابن الصلاح هذه إلا تعبيرا عن الرأى السائد فى

(١) ٢١٠ الطالع السعيد للادفوى .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

البيئات السنية . فى مناطق واسعة من العالم الاسلامى فى ذلك العصر(١) ، ويروى الأدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » أنه لم يصل على قريب له لأنه كان يقرأ الفلسفة وكتبها(٢) .

الأزهر الشريف وأثره فى اللغة والأدب :

كان للأزهر الشريف — جامعة الاسلام الكبرى — أثره الكبير فى هذا العصر فى اللغة والأدب وعلومهما ، فضلا عن أثره الدينى والروحى فقد كانت تدرس فى حلقاته علوم اللغة والبلاغة والأدب ، وقد أعاد السلطان الظاهر بيبرس الدراسة به عام ٦٦٥ هـ ، بعد أن كانت معطلة فيه أيام الأيوبيين نحواً من مائة عام ، وازدهرت فيه البيئة الجامعية العلمية فى عصر المماليك ازدهاراً كثيراً ، فقصده الطلاب من كل مكان فى العالم الاسلامى ، وانقطعوا فى حلقاته لطلب العلم والتمكن فى علوم الدين والأدب واللغة ، وكانوا يجدون الرعاية والعون والتشجيع من المماليك ، وأنشىء لكل إقليم إسلامى رواق خاص بأبنائه حول الأزهر الشريف ، وكان من الطلاب أفواج كثيرة من الحجاز واليمن والشام وبلاد الترك والمغرب والهند والسودان وشرق إفريقيا وغيرها من شعوب الإسلام ، الذين أقبلوا على حلقات الدراسة بعزم قوى وهمة شماء ، وتخرجوا منه وهم متمكنون فى الدين ، راسخون فى علوم العربية وآدابها ، ورحلوا إلى بلادهم ينشرون هذه الثقافة الاسلاميه العربية بين أممهم ، وينوهون بذكر مصر وأزهرها وحلقات العلم فيها ، وكانت مصر فى هذا الزمن تعد مصدر الثقافة والنور والعرفان ، ومركز علوم الاسلام ومعارفه .

---

(١) ١٥٨ - ١٦٢ التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية .
(٢) ٧٥ الطالع السعيد .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وكان من علماء الأزهر الشريف فى هذا العصر طائفة من الأعلام المشهورين ، الذين بنوا للثقافة الاسلامية والعربية مجداً لا يبلى .

من تاريخ الأزهر :

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بعد فتحه مصر بنحو عام ، وقد شرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م ، ويذكر بعض المؤرخين أنه شرع فى بنائه فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان فى العام نفسه . وقد كمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ — ٢٢ يونيو سنة ٩٧٢ م . وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية — ومنبراً للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء التى ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور فخمة تسمى بالقصور الزهراء ، أو لأنه كان يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا . . وقد احتفل بافتتاحه فى أول جمعة من رمضان سنة ٣٦١هـ .

وأصبح هذا الجامع مسجد الدولة الرسمى ، وقد حرص وزير المعز يعقوب ابن كلس على أن يقيم حلقة علمية فى الأزهر ، حيث كان يقرأ على الناس فيه فى مجلس خاص يوم الجمعة مصنفاته فى الفقه الفاطمى ، كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل ، وحرص الخليفة كذلك على تكليف كبار العلماء بإقامة حلقات علمية فى أروقة الأزهر لتدريس الفقه

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الفاطمى ، وكان يمنحهم مرتبات شهرية . ولهذا صار الأزهر جامعة علمية مستقرة ، وذلك عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م حينما استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم ٣٧ فقيهاً .

وفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م رتب المتصدرون لقراءة العلم بالأزهر . وبذلك صار الأزهر معهداً جامعياً للعلم والتعليم والدراسة . ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته العلمية الجامعية الصحيحة .

وقد استمرت الحركة العلمية والدينية فى الأزهر قوية مزدهرة فى عهد الفاطميين الذين وقفوا عليه الوقوف وأحاطوه بالرعاية ، وكان فى مقدمة الأساتذة المدرسين فى الأزهر بنو النعمان قضاة مصر .

ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر عام ٥٦٧ هـ . على يدى مؤسسها الأول السلطان صلاح الدين الأيوبى ، محا من مصر المذهب الفاطمى وأحل محله المذهب السنى ، وغالى الأيوبيون فى القضاء على كل أثر للشيعة وأفتوا بإبطال إقامة الجمعة فى الأزهر . . فلبثت معطلة فيه هى وحلقات الدراسة نحو مائة عام، ققضى الأزهر هذه المدة فى ركود طويل .

وفى عام ٦٦٥ هـ أعيد افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة فى عهد بيبرس الذى شجع العلم فيه هو والأمراء والقواد ، ووقفوا عليه الأوقاف الطائلة . . واستمر الأزهر يؤدى واجبه الدينى والعلمى فى عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية وعهد النهضة المصرية الحديثة .

وأول شيخ تولى مشيخة الأزهر كما يحدثنا التاريخ هو الشيخ الخرشى المالكى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

المتوفى عام ١١٠١ هـ . وتولى بعده الكثير من مشايخ الأزهر حتى بلغوا اليوم ٤٥ شيخاً آخرهم شيخ الأزهر الحالى الشيخ جاد الحق .

ثم جاء عهد محمد على وأسرته فانتقصت أوقاف الأزهر وحقوقه ، ولكنه ظل يؤدى واجبه العلمى والدينى بنشاط كبير . ومن الأزهر كان طلبة البعوث الذين بعث بهم محمد على إلى أوربا وعادوا إلى مصر ينشرون العلم والعرفة والنهضة فى كل مكان ، وكانت كل المدارس التى أنشأها محمد على تأخذ طلبتها من طلبة الأزهر الشريف ، ولما أنشئت دار العلوم عام ١٨٧١ م ومدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ م استمدتا طلبتهما من الأزهر . وكان مدرسوا الدين واللغة العربية فى جميع مدارس الدولة ومعاهدها من خريجى الأزهر الشريف . وكذلك كان طلبة مدرسة المعلمين الأولية وأساتذتها .

وقد قام الأزهر بنشاط كبير ، وأسهم بنصيب ضخم من الجهاد الوطنى فى جميع المواقف القومية الوطنية فهو الذى قاوم الاحتلال الفرنسى لمصر وهو الذى غذى ثورة عام ١٩١٩ ، وله فى كل موقف وطنى جهاد مذكور مشكور .

ومنذ آخر القرن التاسع عشر إلى عصرنا وضعت قوانين منظمة لشئون الأزهر ، ومن أشهر هذه القوانين قانون عام ١٩٣٠ م بإصلاح الأزهر الشريف وآخر هذه القوانين قانون عام ١٩٣٦ الذى يسير الأزهر عليه اليوم فى نظامه الجامعى والعلمى ، وفى تقسيمه إلى معاهد وكليات .

فضل الأزهر على العلوم والآداب :

حمل الأزهر لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قرونا متصلة وحفظ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

التراث الإسلامى فى الدين واللغة ، والعلوم ، ونشره على الآفاق طيلة ألف سنة أو يزيد ، وقد تخرج فيه أفواج من العلماء خلال عصور التاريخ ممن انتشروا فى بقاع الأرض وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التى تزودوا بها فى الأزهر ، فأضاءوا الأرض علما ونورا ورشاداً ، كما تخرج منه الأدباء والكتاب والشعراء والخطباء فى كل عصر وكل جيل .

والأزهر هو الذى حفظ العلوم الإسلامية واللغة العربيـة من الضياع والاندثار ، وهو الذى حفظ للأدب العربى ، فى شتى بلاد العروبة ، رونقه وبهاءه . وما يزال حتى اليوم كعبة العلوم والآداب ، ومعقد آمال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر الأزهر فى التوجيه الدينى :

والأزهر منذ أنشىء حتى اليوم هو الذى يتولى قيادة الحركة الدينية فى العالم الإسلامى ، وآراء شيوخه هى الحجة القوية التى يقابلها المسلمون فى شتى بقاع الأرض بالطاعة والامتثال والقبول ، وقد خرج الأزهر الكثير من رجال الدين منذ أنشىء إلى اليوم ، وخريجوه هم الذين تولوا قيادة الحركة الدينية فى كل مكان من بلاد العالم الإسلامى .

مكانة الأزهر فى العالم الإسلامى

ولقد ورث الأزهر الحديث ميراثا روحيا وثقافيا ضخما جليلا عن الأزهر القديم ، ورث عنه الرسالة الدينية التى قام منذ أن أنشىء لحمل أماناتها ، والتى أخذها بكلتا يديه ليؤديها إلى العالم شعلة مضيئة هادية ، ومثلا إنسانيا رفيعا ؛

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومذهبا فكريا قادرا على قيادة الحياة والبشرية جميعا إلى السلام والإخاء والأمن والرفاهية .

وورث عنه الرسالة الثقافية ، التى جاهد من أجلها أجيالا طوالا ، والتى قامت عليها أروقته ومحاريبه وقبابه ومآذنه الشم ، ودأبت على الكفاح فى سبيلها حلقاته الطاهرة ، التى تجمع فيها شباب المسلمين ـ من شتى الأقطار والشعوب ـ على كلمة الحق والتقوى والمعرفة ، استجابة لأمر الله ، وتحقيقا لفكرة الإسلام ، وسعيا وراء الحقيقة التى هى أكبر محرر للأمم ، والجماعات والأفراد ، من أغلال الجهل والجمود والتأخر .

وعاشت حلقات الأزهر الجليلة طويلا خلال الأجيال الماضية ، وهى تحمل عن العالم الإسلامى رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية ، وتؤديها ناصعة بيضاء كخيوط الفجر ، مشرقة هادية كضوء الشمس ، ومن هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الإسلامى فى القديم ، وكانت عن جدارة بمثابة مصنع يصنع الرجال والأبطال ، ممن قادوا الشعوب الإسلامية إلى النهضة والحضارة والعزة ، مما جعل للأزهر مكانة كبرى بين المسلمين .

مواقف خالدة للأزهر :

قاد الأزهر فى القديم ثورتين كبيرتين تعدان من أسبق الثورات الدستورية العالمية : قاد إحداهما عام ١٢٠٠هـ ـ يناير ١٧٨٦ م الشيخ الدردير ، وقاد الأخرى عام ١٢٠٩ هـ ١٧٩٥ م شيخ الأزهر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وكسب الشعب المصرى من الثورة الأولى مبدأ دستوريا جليلا هو وجوب احترام الحاكم لإرادة المحكومين ، وكسب من الثانية مبدأ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

آخر هو أن الأمة مصدر السلطات ، وكانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان ، ووثيقة فريدة فى سبيل التحرير ، سبق بها شعب مصر غيره من الشعوب ، كما اعترف بذلك المؤرخون من العرب والغربيين .

وقد حمل علماء الأزهر عبء الجهاد لتحرير مصر من الاحتلال الفرنسى منذ أن دخل نابليون أرض الوطن فاتحا .

ولا ننسى كذلك أن الأزهر قام بثورة ثالثة فى صفر عام ١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م لإنهاء النفوذ التركى من مصر ، ولكن دجالا سياسيا بارعا يتدفق فى أعصابه الدم التركى استطاع بدهائه أن يحول المعركة إلى مغانم شخصية له ولأسرته التى حكمت مصر إثر ذلك نحو قرن ونصف من الزمان .

وكان قائد الثورة المصرية الرابعة كذلك أزهريا صميما ، هو الزعيم الوطنى القائد « أحمد عرابى » الذى قاد الثورة العرابية للقضاء ، على نفوذ المستعمرين من الأتراك ، والمستغلين من الإنجليز .

كما كان زعيم الثورة الشعبية الخامسة أزهريا صميما هو المرحوم سعد زغلول. الذى كان يعمل للقضاء على الاستعمار الانجليزى وتحرير شعب مصر من أغلاله .

الأزهر والتجديد :

ولقد تطورت البيئة الثقافية فى الأزهر فى العصر الحديث : بتأثير الحضارة الفكرية الغربية ، وبفضل لفيف من علمائه الأعلام الخالدين .

ومن الحق أن الأزهر منذ بدأ القرن التاسع عشر كان يتطلع إلى ثقافة

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الغرب وحضارته فى شىء من الفتور والكراهية ، إيمانا بقومية المسلمين السياسية والفكرية والثقافية ، ولكنه لم يجحد فكرة السعى إلى النهضة ، أو الإيمان بالتطور ، فسافر بعض أبنائه فى بعثات حكومية إلى باريس ولندن وسواهما من عواصم الغرب ، وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوى .

وتطلع بعض علمائه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفكرية والثقافية ، وللرد على مايثيره بعض الغربيين حول الإسلام من شبهات ، وكان فى مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده ، الذى كان رائدا أزهريا للفكر المصرى فى العصر الحديث .

ولقد نهض شيوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبء إصلاح البيئة الثقافية داخل الأزهر ، وبعث روح التجديد والحياة فى حلقات الأزهر العلمية ، لتكون على صلة بينابيع الفكر الحديثة المتدفقة .

وفى الحق أن الأزهر المحافظ المتمسك بتقاليده وشعائره ونظمه وحياته الثقافية كان أرجح كفة من عوامل التجديد ، وتيارات التجديد .

ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، أو بالتحديد فى مايو سنة ١٩٢٨ تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو تلميذ من تلامذة الإمام محمد عبده ، ولكنه مالبث أن استقال منها فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، وخلفه الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى ، ثم عاد الشيخ المراغى إلى المشيخة فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٥ ، وظل فيها إلى أن توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥

وعلى يدى الشيخ الظواهرى تحول الأزهر إلى جامعة علمية لها كليات ثلاث : هى الشريعة واللغة وأصول الدين ، وفيها أقسام الدراسات العليا ذات نظام

www.dar-alkotob.com دار الكتب

علمى جامعى ، ولكن أثر ذلك لم يظهر إلا فى عهد الشيخ المراغى وعلى يديه وبتشجيعه ورعايته ، فكان يشرف هو ومعاونوه من شيوخ الكليات الأزهرية على نظم هذه الدراسات ، ويشترك فى امتحاناتها ومناقشات رسائلها ، ويرعى خريجى هذه الأقسام ويضعهم فى منازلهم العلمية فى كليات الأزهر . وبذلك صار الأزهر يخضع فى حياته الثقافية الجديدة للنظم الجامعية الصحيحة . هذا عدا ما صنع الشيخ من تقدير الكفايات العلمية ، ورعاية البحث الثقافى الحر فى داخل الأزهر ، فصنع بذلك نهضة ثقافية جديرة بالتأمل والتقدير .

هذا هو الأزهر أعرق الجامعات العلمية فى العالم ، وأطولها عمراً وأجلها أثراً فى تاريخ الفكر العربى الإسلامى ، بل فى تاريخ العالم كله ، ولقد كان الأزهر طوال عصور التاريخ حارس التراث العربى وحامل مشعل الثقافة الدينية ، والملاذ الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل . وللأزهر مكانة كبرى فى مصر والعالم الإسلامى جميعه : وآراؤه وفتاوى علمائه تقابل من كل مسلم فى العالم الإسلامى بمزيد من التقدير والاجلال والطاعة ، ولم تقم فى مصر جامعة علمية بالمعنى الصحيح قبل الأزهر ، الذى له تاريخ طويل وذكريات مجيدة وآثار علمية ودينية عديدة .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

٧ — التأليف والمؤلفون

كان أعظم مظاهر من مظاهر نهوض اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر كثرة ما ألف فيه من مؤلفات فى مختلف الفنون والعلوم ، ولعل من أسباب ذلك ازدهار الحركة العلمية وكثرة المدارس وازدحام القاهرة والأسكندرية وقوص وغيرها بالطلاب ، ورغبة بعض سلاطين المماليك فى اقتناء الكتب النادرة ، وإنشاء الخزانات الخاصة الجامعة لأنواع شتى من المؤلفات ، حتى إن بعض الكتب كان يؤلف خاصة باسم السلطان ليوضع فى خزانته .

وهذه الكتب بعضها يحمل طابعا فكريا جديداً كمقدمة ابن خلدون ، والبعض يحمل لونا متميزاً من ألوان البحث العلمى كخطط المقريزى وتاريخ ابن خلكان ، والبعض تشبع فيه السمة الغالبة على مؤلفات هذا العصر ، من الجمع والرواية والموازنة والاختيار ، وأمثال هذا اللون كثير .

وأشهر مؤلفى هذا العصر :

١ — فى علوم الدين : اشتهر فى هذا الباب كثير من المؤلفين ، من أشهرهم ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) ، وبلغت مؤلفاته نحو ثلاثمائة مجلد ، أكثرها فى التفسير والفقه والأصول ، ومنها : فتاوى ابن تيمية — وكذلك من المؤلفين أحمد بن محمد القسطلانى الظاهرى (٨٥١ — ٩٢٣ هـ) ، ومن أشهر كتبه « إرشاد السارى إلى شرح البخارى » وهو مشهور بشرح القسطلانى ، فى عشرة مجلدات .

٢ — العلوم العقلية — ، واشتهر فيها ابن النفيس م ٦٩٧ هـ صاحب كتاب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

« المختار من الأغذية وكان ابن النفيس شيخ الأطباء بمصر ، ومنهم ابن الشاطر م ٧٧٧ هـ وله مؤلفات فى الجغـــرافيا والرياضيات ، وابن الهائم م ٨١٥ هـ صاحب كتاب مرشد الطالب فى الحساب ، والدميرى م ٨٠٨ هـ صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

٣ — تقويم البلدان والرحلات واشتهر من المؤلفين فيها أبو الفداء ٧٣٢ هـ مؤلف كتاب تقويم البلدان ، والدمشقى م ٧٢٧ هـ مؤلف كتاب « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » وطبع فى أوربا ، وكذلك ابن ماجد النجدى ، وهو ملاح عربى ألف عام ٨٩٤ كتابا فى مبادىء الملاحة بعضه منظوم وبعضه منثور ، ويقال إن ابن ماجد هو الذى أرشدنا فاسكودى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول أفريقيا إلى شواطئ الهند ، ومن أصحاب الرحلات : ابن بطوطة المتوفى بمراكش عام ٧٧٩ . وكتابه رحلة ابن بطوطة يدون فيه رحلاته فى العالم الإسلامى ، واسم الكتاب تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وللقزوينى م ٦٨٢ كتاب عجائب المخلوقات وهو نفيس ومهم للباحثين فى جغرافية العالم الإسلامى القديم .

٤ — فى التاريخ : وأشهر المؤلفين فيه شمس الدين بن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ) صاحب كتاب وفيات الأعيان ، وهو معجم تاريخى يدل على ابتكار وتحقيق وضبط وروية ، ويعد مرجعا فى اللغة والأدب والتاريخ ، وابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) صاحب كتاب « العبر » ، وتقى الدين المقريزى وقد ولد فى القاهرة عام ٧٦٦ هـ ، واشتهر بسعة اطلاعه فى التاريخ ، وألف فيه مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وقد جمل

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فيه وصف الخطط والمبانى والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة فى تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالى عليها من حوادث ، وله فى أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وهذا الكتاب هو عمدة الباحثين فى الأحوال السياسية والاجتماعية فى مصر لذلك العصر ، وتوفى المقريزى عام ٨٤٥ هـ

ومن أشهر كتب التاريخ أيضا الوافى فى الوفيات للصفدى م ٧٦٤ هـ ويقع فى خمسين مجلدا ، والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى م ٩٠٢ هـ ، والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر م ٨٥٢ هـ

ومنها كذلك : المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء صاحب حماة م ٧٣٢ هـ ، والبداية والنهاية لابن كثير (٧٤٢ هـ) ، وسواها .

٥ — كتب قصصية : وقد ظهرت كتب كثيرة فى هذا العصر فى القصة ، من أشهرها : ألف ليلة وليلة ، وقصة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، وقصة الظاهر بيبرس وهى تتضمن حروبه مع الصليبيين ، وقصة أبى زيد الهلالى ، وسواها .

وقد ظهر فى القرن السابع الهجرى فن خيال الظل ، وهو بداية صالحة للتدرج إلى القصص التمثيلية ، وإن كان لم يدخل عليه تغيير يسير به إلى النهضة والتقدم وظلت اللغة العربية وآدابها خالية من الأدب التمثيلى حتى العصر الحديث . ، وممن ألف فى خيال الظل ابن دانيال المصرى م ٧١٠ هـ وله كتاب « طيف الخيال » الذى تحدث فيه عن لعبة خيال الظل وهو يشبه الرواية الهزلية ، ويتضمن كثيرا من صور المجون وقد ظهر المسرح الشعبى فى صورة متطورة له .

ألف ليلة وليلة :

ألفه قاص مصرى ، ولهجته تغلب عليها العامية المصرية وأكثر مواضعه مصرية ، ويخطىء فى تحديد الأماكن حين يذكر العراق وسواها ، وفى حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة يرد اسم « الشاطبية » ، وهى للشاطبى المتوفى سنة ٥٩٠ ﻫ وفى حكاية مزين بغداد يرد ذكر سنة ٧٦٣ ﻫ ، وفى بعض النسخ ترد سنة ٦٥٣ ﻫ ، ويرد ذكر مفردات « ابن البيطار »فيه(١) مما يدل على أن الحكاية كتبت بعد منتصف القرن السابع ، ويرد فيه ذكر قبر الشيخ عبد القادر الجيلى(٢) مما يدل على أن القصة كتبت بعد سنة ٥٦١ ﻫ ويرد فيه أيضا ذكر سنة « إحدى وثنتين وخمسمائة(٣) » والتاريخ الذى استقر فيه الكتاب على صورته الحالية هو ما بين عامى ٩٢٣ و ٩٣٣ ﻫ . ووردت فى الكتاب ألفاظ عثمانية وقد استولى العثمانيون على مصر عام ٩٢٣ ﻫ ، وذلك مثل الأفندى(٤) وغيلون التبغ(٥) والمدفع(٦) .

وفى الكتاب كثير من الأخطاء التاريخية وسواها ، ففى الجزء الثانى ص ٣٨٠(٧) : حكاية جرت بين الرشيد وابن الفارابى وما هى إلا قصة ابن المغازلى مع المعتضد بالله كما رواها المسعودى ، وفى ص ٣٣٨ و ض ١٣٤ : (زبيدة بنت القاسم زوجة الرشيد السادس من بنى العباس) . وهى بنت

(١) ١ : ٢٧٢ (٢) ٢ : ١٣٥ و ١٣٨ (٣) ٢ : ٤٠٨
(٤) ٣ : ١٤٢ (٥) ٤ : ٤٥٥ (٦) ١ : ٨٩ .
(٧) طبعت فى مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٥ وصححها المرحوم الشيخ محمد عبد الرحمن الشهير بقطة العدوى م ١٢٨١ ﻫ عن نسخة بولاق .

جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، والرشيد هو الخامس لا السادس . ومهما كان فإن هذا الكتاب قد ظهر في هذا العصر في صورة نهائية كاملة باسم كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية ، وفتن كثيرا من القراء ، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأوربيين ، وربما كان هو الذي أوحى إلى بعض كتاب الأقاصيص في الغرب المشهورين بالإغراق في الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة ، وليس بعجيب أن يغرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى في أقاصيصه على سنن شائق جذاب ، وأكثر ماتظهر فيه المهارة في حبك القصة . وخلق المواقف المعقدة التي تضيع وجوه الحيلة في حلها ، ثم العمل على الخروج من هذه المآزق في لطف وحسن تصرف فني ، هذا إلى إبداع في الوصف وإبعاد في الخيال . وهو وإن وضع في أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك . وموعظة تصل إلى قرارة نفسك ، ودراسة عامة لأحوال الحياة ، والفرق بين حكايات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكاتب لألف ليلة كان كثير المبالغة والإغراق ، وأنه اهتم بالأحوال الظاهرة وقصر وصفه على المحسوس المشاهد ، ولم يعمد إلى تحليل النفوس ، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع ، ولم يعن عناية مقصودة بدراسة الأخلاق ، بخلاف الكاتب الأوربي فإن الدراسة النفسية أساس قصته وعمادها في أغلب الأحوال ، وهو يسير في قصته على سنن واضح من الطبيعة من غير إسراف . ومصدر هذا الكتاب لا يزال محاطا بالشكوك ، والأقرب إلى الحق أنه من أصل فارسي قديم ، وأن منشأه كتاب هزار أفسانه (ألف حكاية) وبه كثير من حكايات هذا الكتاب ، وقد أضيف إلى الأصل الفارسي نوادر كانت توضع على مر الأيام ، فالكتاب إذا لم يوضع في عصر واحد ،

ولم يصنفه مؤلف واحد وأول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالند (١٧٠٤ ـ ١٧١٧) .

٦ — في علوم اللغة : نبغ كثير من المؤلفين فى علوم اللغة ، منهم ابن مالك الطائى (٦٠٠ ـ ٧٢ هـ) صاحب الألفية ، وجمال الدين بن مكرم المصرى المعروف بابن منظور صاحب لسان العرب ، وجمال الدين بن هشام المصرى صاحب كتاب « مغنى اللبيب من كتب الأعاريب » وتوفى عام ٧٦١ هـ ، والفيروز أبادى عام ٨١٧ هـ صاحب القاموس المحيط ، والسيوطى ، وأشهر كتبه المزهر فى فلسفة اللغة وله كتاب الأشباه والنظائر فى النحو .

٧ — علوم البلاغة :

بينما كانت علوم البلاغة فى المشرق الإسلامى تدرس بطريقة جدلية تعتمد على المنطق والعلوم العقلية ، ويتخذ العلماء فيه من طريقة السكاكى م ٦٢٦ هـ منهجا ومذهبا لهم فى التأليف البلاغى ، يسيرون عليه وينحون نحوه ، كما فعل السعد م ٧٩٢ هـ والسيد م ٨١٦ هـ ، وسواهما . . كان العلماء فى مصر والشام يؤلفون فى البلاغة على منهج البلغاء والنقاد وأهل الذوق الأدبى المطبوع ، ومن ثم وجدنا شهاب الدين الحلبى فى « حسن التوسل فى صناعة الترسل » يقول فى طريقة المشرقين : « وعلوم البلاغة وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة ، والفكرة المستقيمة والبديهة المجيبة والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعانى وصناعة الكلام ، فهذا هو السر فى مجىء الكتب فى هذه العلوم مستغلقة العبارة عسرة الفهم ، تجرى فى تفسيرها وترتيبها على طريقة المنطق ، وتسير على نهج الفلاسفة ،

وهى أبعد مايكون عن الذوق العربى والفهم الفطرى ، ويقول البهاء السبكى المصرى فى كتابه « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » : أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء — فضلا عن الأغمار — الأعمار ، ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الستار » ، والبهاء عاش فى القرن الثامن وتوفى عام ٧٧٣ هـ . ويفتخر السيوطى بأنه درس البلاغة على المذهب المصرى فيقول عن نفسه : وقد رزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة(١) . ونقل السيوطى عن شيخه محمد الكافيجى أنه قال عن السيد وقطب الدين الرازى إنهما لم يذوقا علم العربية بل كانا حكيمين(٢) ، ومن أعلام المؤلفين فى البلاغة فى مصر والشام فى هذا العصر : الخطيب الدمشقى صاحب كتاب الإيضاح فى علوم البلاغة . وشهاب الدين الحلبى ، وبهاء الدين السبكى ، وعبد الرحيم العباسى والسيوطى والحموى ، وسواهم .

وقد عفوا بالكتابة فى البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية(٣) . أما ابن أبى الأصبع المتوفى عام ٦٥٤ صاحب كتابى : بديع القرآن ، وتحرير التحبير ، وابن الأثير م ٦٣٧ م صاحب كتاب « المثل

(١) ١ : ١٤١ حسن المحاضرة :
(٢) ١ · ١٦٧ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده .
(٣) ٥٠٧ مقدمة ابن خلدون .

السائر » ، فهما من الذين كتبوا فى البلاغة فى العصر الأيوبى ، وكذلك ابن شيث المصرى ، ولابن شيث هذا ، عبد الرحمن بن على ، كتاب عنوانه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » . .

٨ — علم الأدب وقد ظهرت مؤلفات كثيرة فى الأدب شعره ونثره ، ومنها : نصرة الثائر على المثل السائر للصفدى م ٧٦٤ هـ وهو نقد لكتاب المثل السائر الذى ألفه ابن الأثير ، وصبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، وخزانة الأدب للحموى وثمرات الأوراق لابن حجة ، وسواها . بالإضافة إلى دواوين الشعراء ورسائل الأدباء ، وما ألف فى تراجم الأعلام ، وأغلبهم من أولى الأدب . ويبدو أن مقامات الحريرى كانت مادة المتأدبين فى هذا العصر ، يحفظونها ويتمثلون أساليبها ، لذلك نجد الفخرى م ٧٠١ هـ ينتقد فى كتابه « الآداب السلطانية » عادة عصره فى تحريض المتعلمين على حفظ المقامات ، ويرى إنها إن نفعت من جانب اللغة أضرت من جانب الأخلاق لما تحويه من حوادث الكدية والحيل فى الاستجداء ، مما يصغر الهمم .

٩ — موسوعات جامعة : هـ كثيرة وسنتناول أهمها هنا بالدراسة والتحليل . . وخاصة أن الكثير من هذه الموسوعات إما مصادر للأدب ، أو كتب تخدم الأدب فى هذا العصر .

ومن أمثال هذه الموسوعات الجامعة : حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، والمستطرف للأبشيهى ، وحلبة الكميت للنواجى القاهرى م ٨٥٩ هـ وخزانة الأدب لابن حجة الحموى ، ٨٣٧ هـ ، وكثيرا من الكتب الأخرى التى نعرض بعضا منها الآن :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا :

١ — وهو موسوعة أدبية كبيرة مؤلفه هو العالم المصرى الذائع الصيت الفقيه الكاتب ، المؤرخ الحافظ ، الأديب الناقد . أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ثم القاهرى ، الشافعى ، المولود بقرية قلقشندة ـ بمديرية القليوبية سنة ٧٥٦ والمتوفى سنة ٨٣٠ هـ وقد نشأ القلقشندى نشأة عربية بمقدار مايسمح به زمانه فى عصر المماليك . وهو من أصل عربى صميم من بنى بدر بن فزارة ، وقد نزلوا مصر مع العرب الذين وردوها حين الفتح وبعده ، فاستقروا بإقليم القليوبية ويقول القلقشندى عن نسبه فى كتابه هذا : وبنو بدر هم قبيلتنا التى نعتزى : وفيها ننتسب ، وأهل بلدتنا (قلقشندة) بعضهم من بنى بدر وبعضهم من بنى مازن من فزارة . . عاش فى عصر المماليك الذى نتحدث عن معالم الأدب فيه ، واتجه القلقشندى إلى طلب العلم ناشئا بالأسكندرية دون القاهرة وبها الأزهر أكبر معهد فى مصر » بل فى الشرق ، بل فى الدنيا آنذاك ، فلعلها ضرورات العيش ، وظروف الحياة ولقد وجد فى الأسكندرية أساتذة أجلاء كثيرين أخذ عنهم ، وأعانه على بلوغ الغاية ما كان يمتاز به من قوة الحفظ ، وثقوب الذهن ، والمثابرة على العمـــل ، حتى أجيز وهو فى الواحدة والعشرين بالفتيا والتدريس . ثم اختير فى ديوان الإنشاء فى سنة ٧٩١ هـ أى فى عهد الدولة البرقوقية ، وله من المؤلفات فى الفقه : كتاب الغيوث الهوامع ، وفى التاريخ : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، ونهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب وقد طبع فى بغداد ، وفى الإنشاء : صبح الأعشى : ورسالة فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وأخرى فى المفاخرة بين العلوم .

٢ ـ وصبح الأعشى هذا مبنى على الإنشاء ، وأدواته وشروطه ، وما يحتاج إليه الكاتب من علوم أدبية وتاريخية ، واجتماعية ؛ وقد طبعته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر جزءا ، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه رتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وجعل المقدمة فى مبادىء يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء وفيها خمسة أبواب :

الأول فى فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذم حمقام .

والثانى فى بيان مدلولها . والثالث فى صفات الكتاب ، والرابع فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء ، والخامس فى قوانين ذلك الديوان ، وفيه مقالات :

المقالة الأولى فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية ، والمقالة الثانية فى المسالك والممالك ، والثالثة والرابعة فى وصف الكتابة فى أطوارها التى مرت بها وما ظهر فيها من سجع وغيره وما التزم فى بدئها وختامها من أمور احتلفت باختلاف المكتوب إليه ، وموضوع الكتاب .

والمقاله الخامسة فى الولايات وأنواعها ، وفيها كلام عن البيعة والعهد ، وبيان أنواع المناصب من أصحاب السيوف والكلام وغيرهم ، وقد تناول فى المقالات الباقية أمورا تشبه ماسبق من كل مايحتاج الكاتب إلى معرفته من الأقطاعات ، وما يكتب فى صورتها ، والأيمان وحكمها الشرعى ، وعقد الصلح ونسخه والهدنة وصورة مايكتب فى كل ذلك ، والكلام على البريد ، واتخاذ المرتب له ، وذكر مراكزه بمصر والشام ؛ وذكر حمام الرسائل ومطاراته وأبراجه .

٣ — ويقول القلقشندى فى سبب تأليفه لكتابه : إنه لما لحق بديوان الإنشاء ، أنشأ مقامة بناها على أنه لابد للانسان من حرفة يتكسب بها ، وأن أليق صناعة بأهل العلم الكتابة ، وأن أفضل الكتابة كتابة الإنشاء ، وأنه جمع فى تلك المقامة من أصول هذه الصناعة وقوانينها مالم تتسع له بطون المؤلفات الطوال فى هذا الباب ، ثم سئل أن يشرحها فكان شرحها كتابه « صبح الأعشى » ، ويقع فى سبعة أجزاء ضخام حسب لما قاله السخاوى واتبعه فيه المعاصرون ، وكان فى دار الكتب منها أربعة واستنسخت الثلاثة الأخر بآلة التصوير من مكتبة أوكسفورد بانكلترا ، ويشتمل الكتاب على ما يأتى :

(١) آداب الكتاب وما يجب أن يتحلوا به من الصفات .

(٢) ما تتطلبه صناعة الكتابة من آلات ووسائل .

(٣) ديوان الإنشاء وأصل وضعه فى الإسلام وقوانينه ومراتب أصحابه .

(٤) مناصب الدولة المصرية وألقاب أصحابها ومراسم ملوكها .

(٥) وصف شامل للأدب فى عصر المماليك وهو عصر المؤلف .

(٦) نماذج كثيرة من كتابة عظماء الكتاب فى أزمنة متفاوتة وعلى الجملة فهو خزانة علم وأدب وتاريخ ، ولا يستغنى عنه أديب ولا مؤرخ وقد اختصر المؤلف كتابه هذا فى كتاب سماه « صبح الضوء المسفر فى جنى الدوح المثمر » .

٤ — وقد خلص القلقشندى ما أمكنه بنشأته العربية الصريحة من الصناعات التى لم يسلم منها ابن السبكى وسواه ، ولا يأتى له من ذلك

إلا بعض الاستعارات المقبولة كما فى وصفه لعلوم البلاغة بقاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة ، والسجع المقبول فى قوله : غالب فى الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواد تمكينه ، والطباق المطبوع فى مثل قوله : ويجاب عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى فى ارتقائه من حضيض القول إلى ايفاعه.. وكل أولئك لا يمنع أن أسلوبه أقرب إلى الأسلوب المرسل المحرر من الصنعة والتكلف ؛ وهذه فضيلة ومنقبة تبين عن رسوخ قدمه فى الإنشاء وتقديمه للمعانى على الألفاظ .

٥ — وللقلقشندى فصل ذكره فى كتابه عن علوم البلاغة وفائدتها ، قال :

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة ، واقتفاء سنن البلاغة وكانت هذه العلوم هى قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة اضطر الكاتب إلى معرفتها والإحاطة بمقاصدها ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب جاريا فى ذلك على قوانين اللغة ، فى التركيب مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها من اللكنة وتأدية المطلوب بها ، وتكميل الأقاويل الشعرية نثرا كانت أو نظما . فى بلوغها غايتها ، وتأدية ماهو مطلوب بها . وأنها كيف تتعين بحسب الأغراض . . لتفيد مايحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشىء يذكر بعضده فتذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض .

ومن رسالته فى المفاخر بين العلوم ما كتبه على لسان علم الشعر :

أراكم قد نسيتم فضلى الذى به فضلتم ، وصرمتم حبلى الذى من أجله وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، إلى تردون ، وعنى تصدرون ، وإلى تنسبون ، وبى تشتهرون ، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم رفع وضعا ، وجلب نفعا ، ووصل قطعا ، وجبر صدعا ، والهجو الذى حط قدرا وأخمل ذكراً . وجعل بين الرفيع والوضيع فى حطيطة القدر نسبا وصهرا ، إلى غير ذلك من أنواعى الشعرية التى شاع ذكرها ، وأضواعى العطرية التى فاح نشرها ، بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى،ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب . وعديلى فى لسان العرب ، لم يزل أهله يتطفلون على فى بيت يحلونه ، ويقفون من بديع محاسنى عند حد لا يتعدونه .

نهاية الأرب :

١ — اسمه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وهو سفر كبير فى ثلاثين مجلداً لشهاب الدين أحمد النويرى المصرى المتوفى سنة ٧٣٢ من الهجرة ، ألفه فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد قال فى مقدمته : رغبت فى صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها وانتظمت فى سلك أربابها ، فامتطيت جواد المطالعة وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل مركبها وصفا بى مشربها ، آثرت أن أجرد منها كتابا أستأنس به وأرجع إليه ، وأعول فيما يعرض لى من المهمات عليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة أقسام :

الفن الأول : فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية ، وفيها خلق السماء ، ووصف الملائكة والكواكب والسحاب ، والصواعق

والنيازك ، والرعد والهواء والنار ، والليالى والأيام ، والشهور والأعوام والفصول ، والمواسم والأعياد ، وقد اشتمل أيضا على مافى الأرض من الجبال والبحار والجزائر ، والأنهار والغدران والعيون . كما شرح طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والمبانى القديمة ، والمعاقل والقصور والمنازل .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل على وصف طبائعه وأعضائه وتشبيهها ، والغزل والنسيب ، والمحبة والهوى ، والأنساب ، وعلى المشهور من أمثال العرب وأخبار الكهنة ، والزجر والفأل والطيرة ، والفراسة والذكاء ، والأحاجى والالغاز ، ثم المدح والهجو والمجون ، والفكاهات والملح والخمر والندماء والقيان ووصف آلات الطرب ، ويشمل كذلك على بيان أحوال الملك وما يشترط فيه ، وما يجب على الرعية له وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاة المناصب الدينية والكتاب والبلغاء .

وخصص الفن الثالث للحيوان : ففيه وصف السباع وما يتصل بها من جنسها ، كالأسد والنمر والفهد ، والكلب والذئب والضبع ، والثعلب والدب والهر والخنزير : ووصف الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها : كالفيل والكركدن والزرافة ، والمهاة والإبل والحمر الوحشية والوعل والظبى والأرنب والنعام . . وجاء هذا الفن وصف الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم ، ووصف الطير ، كالنسر والرخم والحدأة ، والغراب والدراج والحبارى ، والطاووس والزرزور والسمانى ، والعقعق والعصافير .

والفن الرابع : خاص بالنبات ، وقد بين أصل النبات وما تختص به أرض

دون أرض ، ويتصل به ذكر الأقوات ، والخضراوات والبقولات ، وأوضح في الأشجار ما لثمره قشر لا يؤكل ، وما لثمره نوى لا يؤكل ، وما ليس لثمره قشر ولا نوى . ثم الفواكه المختلفة والرياض والأزهار : وما وصفت به نظماً ونثراً .

وجاء في الفن الخامس : التاريخ والقصص والأخبار : ففيه بيان لمبدأ خلق آدم وحواء وأخبارهما . وأتبع هذا بقصص الأنبياء والمرسلين . ثم بأخبار الملوك والطوائف ، وخبر سيل العرم ، ووقائع العرب في الجاهلية . وأخبار الملة الإسلامية ، وذكر شيء من سيرة نبينا محمد صلوات الله علية ، وأخبار الخلفاء من بعده رضي الله عنهم ، وأخبار الدولة الأموية ، والعباسية، والعلوية ، ودول ملوك الإسلام وأخبارهم . وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم .

هذا طرف مما اشتمل عليه هذا الكتاب المسمى « نهاية الأرب في فنون الأدب » وقد قال فيه مؤلفه : « وما أوردت فيه إلا ماغلب على ظنى أن النفوس تميل إليه . وأن الخواطر تشتمل عليه . ولو علمت أن فيه خطأً لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى . ولقد تبعت فيه آثار الفضلاء قبلى ، وسلكت منهجهم ، فوصلت بحبالهم حبلى » . إلى أن قال : « والذى أدى إليه اجتهادى من تأليفه فقد أصدرته . والذى وقفت عنده غايتى فقد أوردته . وبالله سبحانه أستعين ، عليه أتوكل . وإليه أتضرع فى التيسير وأتوصل » .

خطط المقريزى :

اسمه الكامل « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب تاريخى شامل فى تاريخ مصر وآثارها ، ويعد من مصادر التاريخ المصرى المهمة ،

وهو جامع جم الفائدة ، جمل فيه وصف الخطط والمبانى والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة فى تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالى عليها من حوادث ، وله فى أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وبالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا ترى فى سواه ، وهو مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر .. ولكثرة فوائده ترجم إلى عدة لغات ، وقد نسج على منواله على مبارك باشا فى كتابه المعروف بالخطط التوفيقية ، وهو مطبوع فى جزءين :

مقدمة ابن خلدون :

يعد ابن خلدون من أعلام الفكر الإسلامى ، وإمام المؤرخين العرب منذ القرن الثامن الهجرى حتى اليوم وكان تراثه خير أستاذ تتلمذ عليه أعلام البيان العربى فى عصر النهضة الأدبية الحديثة فى مصر وسائر بلاد الشرق العربى .

ومقدمة ابن خلدون تراث جليل خالد يمتاز بالجدة والابتكار ، وهى تعد منهاجا جديدا فى فهم التاريخ وتحليله ونقده ، وفى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها .. وموضوع المقدمة ، كما يصفه ابن خلدون نفسه هو « العمران البشرى والاجتماع الإنسانى » . وقد تحدث ابن خلدون فيها عن : العمران البشرى على الجملة وأصنافه ، والعمران البدوى ، وذكر القبائل والأمم البربرية ، وتحدث عن الدول والخلافة والملك ، وذكر المراتب السلطانية وعن العمران الحضرى ، والبلدان والأمصار ، وعن الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه ، وعن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وبحوث ابن خلدون فى المقدمة هى تمهيد لدراسة التاريخ وفهمه ، وهى بحوث جديدة كل الجدة ، وإن كانت آراء الفارابى فى المدينة الفاضلة . وإخوان الصفاء فى رسائلهم ، تعد تمهيدا موجزا صغيرا لبحوث ابن خلدون : كبحوث الفارابى عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وكتقسيم إخوان الصفا للعلوم والصنائع وبحثهم عن تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق . ولكن بحوث الفارابى وإخوان الصفا لها منهجها الفلسفى ، حيث يتناول ابن خلدون هذه البحوث والموضوعات من الجانب الاجتماعى .

وتشمل بحوث ابن خلدون فى المقدمة جوانب من علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ والاقتصاد السياسى .

وقد عنى المستشرقون عناية خاصة بالجانب الاجتماعى من تفكير ابن خلدون وتراثه ، وعد « فون كريمر » المستشرق النمسوى « ابن خلدون » مؤرخا للحضارة الإسلامية ، وعده دى بوير فيلسوفا ، ولكن الاتجاه العام كان إلى دراسة فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، التى تسمى اليوم بحوثه فيها بعلم الاجتماع ، الذى سبق فيه أوجست كونت ، وفيكو ، ومكيافللى ، من أعلام الاجتماع فى أوربا ، ولقد سبق ابن خلدون ميكيافللى ومونتسكيو وفيكو إلى الدرس النقدى للتاريخ ، كما سبق ماركس وسواه إلى نظريات علم الاقتصاد السياسى .. والمقدمة تسبق كتاب مكيافللى الذائع « الأمير » بأكثر من قرن من الزمان ، وهى أوسع دراسة ، وأرحب أفقا ، وأغزر مادة ، على الرغم من أن المقدمة قد ألفت عام ١٣٧٧ م ، وكتاب الأمير ألف عام ١٥١٣ م .

ألف ابن خلدون مقدمته هذه فى مدينة تلمسان عام ٧٧٩ هـ – ١٣٧٧ م ، حيث أمضى خمسة شهور فى تدوينها ، ثم نقحها وهذبها بعد ذلك عدة مرات ، ويقول عنها ابن خلدون فى آخر الجزء السابع من تاريخه : « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها » .

ثم أخذ يكتب تاريخه ، فأتم أول نسخة منه فى أوائل ٧٨٤هـ – ١٣٨٢م ، وتشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة إلى عصر المؤلف .

وفى أواخر عام ٧٨٤ هـ وصل ابن خلدون القاهرة ، وأقام فيها ، وانثال عليه طلبة العلم بها يلتمسون منه الإفادة ، وتصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وكان سلطان مصر إذ ذاك هو الظاهر برقوق الذى ولى حكم مصر فى أواخر رمضان عام ٧٨٤ هـ . وتولى بعد ذلك ابن خلدون التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ؛ وهى من مدارس المالكية المشهورة فى مصر ، وبعد قليل عين قاضياً لقضاة المالكية فى مصر فى أواخر جمادى الأولى عام ٧٨٦ هـ .

وفى أثناء إقامة ابن خلدون بالقاهرة أخذ يهذب وينقح فى المقدمة والتاريخ ، وزاد فى حوادث التاريخ حتى بلغ بها نهاية القرن الثامن الهجرى بعد أن كان قد بلغ بها فى تونس حتى عام ٧٨٣ هـ . . ومن الفصول الجديدة التى كتبها فى مصر « خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار » ، وسوى ذلك من بحوث .

وقد شغلت المقدمة وحدها أذهان العلماء والمفكرين طوال عصور التاريخ، ونالت من الاهتمام والعناية أضعاف ما ناله تاريخه الكبير .

ولا عجب ، فقد كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقاً لزمنه ، وقد وضع بمقدمته أصول علم التاريخ ، فكانت هى الأثر الوحيد من نوعه فى التراث العربى الإسلامى .

وابن خلدون بتاريخه ، ومقدمته خاصة ، قد احتل الذروة فى التفكير الإسلامى وقد وضعت مقدمته بين أعلام العلماء الخالدين فى تاريخ الإنسانية الفكرى ؛ فنال من عناية العلماء والمفكرين مالم ينله مؤرخ إسلامى ؛ ولا تزال نظرياته وآراؤه موضع اهتمام الباحثين والمؤرخين والفلاسفة إلى اليوم.

ولابن خلدون فى المقدمة رأى فى العرب عجيب ، فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب ، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية ، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وهم أبعد الناس عن الصنائع ، ومبانيهم يسرع إليها الفساد ، وحملة العلم فى الإسلام عجم ، وهذا الرأى الغريب حير الباحثين فى تراث ابن خلدون الفكرى ، فعللوه بأسباب مختلفة متناقضة ، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول : أن ابن خلدون يريد بالعرب البدو فى أى مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحياناً ، لا عرب الجزيرة العربية خاصة ؛ وهذا الرأى يحتاج إلى إثبات السر فى ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر لافظة عرب .

والثانى : أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم ، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب فى جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون ، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين فى نفوسهم ، وكأنه يريد التعميم فى أحوالهم ، فإن العرب حين تمسكهم بإسلامهم وشريعتهم ، كانوا كما نعرف عدلا وسياسة وإصلاحا ونبل حكم . وفى هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مغلوبون لأهل الأمصار ، ويذكر أحـــوال الموالى والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته فى نفوذه وألقابه . وآراء ابن خلدون فى الفصل الخامس من المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة فى الاقتصاد السياسى والاجتماعى ، وقد اقتبس منها كارل ماركس فى كتابه « رأس المـال » . ومن آراء ابن خلدون فى المقدمة نعرف :

١ — أن النقد التاريخى هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه : فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه ؛ وما لا يجوز فيه رفضناه .

٢ — أصول التوحيد هى عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه . وهنا يذكر ابن خلدون أن العقل قاصر الإدراك لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهى فوقها محيطة بها . لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، ويأخذ فى ذم الفلسفة وتخطئتها ، ولا شك أن ابن خلدون كان بحاسبة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الإسلامى فى عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها . والمنهف فى

البطش بكل من عرف عنه أنه محب لها .. ولا نخال أبن خلدون سوى فيلسوف ملهم ، فأفكاره فى المقدمة أفكار فلسفية عميقة ، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارفى قدرها ؛ ويبدو أنه كان يقصد التمويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم بالإلحاد والكفر ، ويعرض نفسه لمحن لا داعى لها ، بل إن المقدمة نفسها لون من ألوان الفلسفة فى عصرنا الراهن ، ولا شك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والإنسانية جمعاء .

ويبدأ ابن خلدون مقدمته فيقول : « يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ، الغنى بلطفه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، وفقه الله » .

ثم يقول : أما بعد ، فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، وتتساوى فى فهمه العلماء والجهال » ، وبهذا الأسلوب المسجوع الموقع يستمر ابن خلدون فى التنويه بعلم التاريخ ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره فى أوائل عهد النهضة الأدبية فى مصر والعالم العربى .

ثم يذكر ابن خلدون أنه قسم كتابه إلى :

١ — المقدمة فى فضل علم التاريخ ، وتحقيق مذاهبه ، والإلمام بأغلاط المؤرخين .

٢ — الكتاب الأول فى العمران وذكر مايعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان ، والكسب ، والمعاش ، والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب .

٣ — الكتاب الثانى فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه من الالمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والأفرنجة .

٤ — الكتاب الثالث فى أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان بدول المغرب خاصة من الملك والدول .

و « المقدمة » من أهم ما وصل إلينا من التراث العربى الثقافى الأصيل ، وهى تحفة فريدة مبتكرة لا مثيل لها فى الآثار الإسلامية القديمة . وابن خلدون بمقدمته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ الإسلامى الفكرى والعقلى .

ومن فصول المقدمة فصل فى أن الإنسان مدنى بالطبع ، قال عبد الرحمن ابن خلدون فى بيان ذلك : إن الاجتماع الإنسانى ضرورى ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : « الانسان مدنى بالطبع » . وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ؛ وهو مضطر إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، ولو فرضنا له أقل ما يمكن فرضه — وهو قوت يوم من الحنطة مثلا — فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات ، لا تتم إلا بصناعات متعددة، وهب أنه يأكله حبا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج فى تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدرس ، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة ،

وصناعات كثيرة ، أكثر من الأول . ويستحيل أن تفى بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد ، فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ، ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه . ولما كان العدوان طبيعياً فى الحيوان ، جعل الله لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته مايصل إليه من عادية غيره ، وجعل للانسان ـ عوضاً من ذلك كله ـ الفكر واليد ؛ فاليد مهيأة للصناعات بخدمة الفكر ، والصناعات تحصل له الآلات التى تنوب عن الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع ؛ مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ؛ والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة ، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تفى قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها ، فلابد فى ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه ، وما لم يكن هذا التعاون ، لا يحصل له قوت ولا غذاء ؛ ولا تتم حياته .

وكان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقاً لزمنه . لم ينظر أحد من المؤرخين قبله إليه هذه النظرة يقول فى مقدمته . « إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة ؛ ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ! يصلان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ؛ ولا قيس الغائب منها بالشاهد ؛ والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الطريق ، وكثيراً ماوقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد

النقل غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط » .

ويقول في موضع آخر : « إن صاحب هذا الفن يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار ، في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو وزن ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول ، على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه الخ . . .

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :

وهو جزآن كبيران ، ألفه جلال الدين السيوطي (٨٤٩ – ٩١١ هـ) ، صاحب المزهر وبغية الوعاة والاتقان في علوم القرآن والأشباه والنظائر وسواها من المؤلفات الكثيرة التي يكون كل مؤلف منها دائرة معارف واسعة ، وجلال الدين السيوطي من أعلام أخريات هذا العصر ، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية ، وبكثرة ما أبرزه من المؤلفات . ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ ، وينتهي نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسي ، ويمتزج أصله بالدم التركي من قبل أمه . مات والده وسنه خمس سنين وسبعة أشهر ،

وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التحريم ، وأتم حفظه قبل أن يبلغ الثامنة ، ثم أخذ فى تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة ، وانكب على دراسة العلوم بأنواعها ، حتى نبغ فيها ، وأصبح مدرساً تهرع إليه الطلاب ، ثم عزل من التدريس قبل موته ومات عن أكثر من خمسمائة كتاب ، فقد أربت مؤلفات السيوطى على الخمسمائة، وأكثر هذه رسائل صغيرة الحجم محدودة الموضوعات . . وخير مؤلفاته « الاتقان فى علوم القرآن » و « المزهر فى اللغة » و « الأشباه والنظائر فى النحو » و « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » فى التاريخ . . وقد كتب ترجمة لنفسه فى هذا الكتاب تدل على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة ، جاء فيها : ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيوخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً . ودون هذه السبعة فى المعرفة اصول الفقه والجدل والتصريف ؛ ودونها الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ؛ ودونها الطب .

ويعد كتابه حسن المحاضرة من أهم مصادر التاريخ المصرى .

مسالك الأبصار :

مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى (٧٠٠ – ٧٤٩ هـ) ، وهو الشاعر الكاتب المؤلف الأديب القاضى أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محيى الدين يحيى بن فضل الله العمرى سليل عمر بن الخطاب . وشهاب الدين من خيرة

العلماء والأدباء وكان يعيش فى العصر المملوكى . وهو مؤلف كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى بضعة وعشرين مجلداً ولا يعلم قبله كتاب وسع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفلك والأدب ماوسعه ؛ وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف فى فن إنشاء الدواوين ، وكتاب « فواصل السمر فى فضائل آل عمر » .

ولد العمرى بمدينة دمشق ، وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته ، فخرج واحد زمانه علماً وأدبا وترسلا وتصنيفاً وشعراً ؛ ولم يكن فى عصره وعصر القاضى الفاضل من يدانيه فى شيء من ذلك على كثرة النابغين فيهما ؛ وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذى نال فية مرتبة الافتاء ؛ وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر فى مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ؛ وخلفهما فى ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما فى مناصب رياسة دواوين الانشاء وكتابة السر وغيرهما آل برقوق .

ومن فصول رسائله هذا الفصل فى التبشير بفتح :

« أعز الله تعـالى نصرة المقام العالى المولوى السلطان الملكى المظفرى الشمسى ؛ وأشركه فى كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ؛ وتحل الحبا لاستطلاعها ، وتتهافت التواريخ والسير على استرقاعها ، وتتنافس الأقلام والسيوف على الالمام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه ، وطلوع نجمه . . سطر المملوك هذه البشرى

والسيف والقلم يستمدان ، هذا من دم وهذا من نفس ، ويمضيان ، هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاوبان . هذا بالصليل وهذا بالصرير ، ويتناوبان هذا يستميل وهذا يستثير . وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح ، الذى ماسمت إليه همم الملوك الأوائل ، ولا وسمت به سيرهم التى بدت أجيادها من حلاه عواطل » .

وقد أظهر العمرى فى هذه القطعة براعة فى تعدد السجعات ، وشيئاً من القدرة على الموازنة بين أعمال السيف وأعمال القلم ، ولكنها بعد كل ذلك لم تكن إلا معرضا لألفاظ متراصة ، وسجعات متواترة تبعث على الملل .

لسان العرب :

وهو معجم لغوى ضخم فى عشرين مجلداً ، ألفه الامام جمال الدين بن مكرم الأفريقى . وقد ولد سنة ٦٣٠ هـ ، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها ، وخدم بديوان الانشاء بمصر ، وألف مئات من المجلدات أشهرها : لسان العرب ، وهو معجم واسع ، وموسوعة جامعة فى اللغة والتفسير والحديث ، وكان ابن مكرم مشغوفا باختصار الكتب ، فاختصر مفردات ابن البيطار ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للسمعانى . وكان إلى نواحيه العلمية شاعراً مقلا ، فمن ذلك قوله :

بالله إن جزت بوادى الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك
ابعث إلى المملوك من بعضه فإننى والله مالى سواك

وقد توفى ابن منظور عام ٧١١ هـ . وكتابه يجمع بين تهذيب الأزهرى

ومحكم ابن سيدة ، والصحاح ، وجمهرة ابن دريد ، والنهاية لابن الأثير ، وهو يحتوى على ثمانين ألف مادة ، وقد رتبه صاحبه على أواخر الكلمات كالصحاح . . وهو كبير الحجم ، طبع بمصر فى عشرين مجلداً . .

وقد شرح ماورد به من الشواهد من آيات القرآن ، وحديث النبى ، وأشعار المتقدمين ، وبعض مأثور النثر عن الذين يحتج بقولهم . ولتوسعه فى ذلك الشرح وإكثاره من الاستشهاد وتعريجه على مسائل فى النحو والصرف ، صار الكتاب روضة أدب . إلى جانب ضبطه للغة العرب ؛ وقد قيل فيه :

منهل عذب نمير سائغ　　يورد الناهل أهنا مشرب

خصائص التأليف فى هذا العصر

يمتاز التأليف فى هذا العصر بما يلى :

١ — فقدان روح الابتكار العلمى فى أغلب الأمر والاستعاضة عن ذلك بكثرة الرواية والجمع والنقل والاقتباس .

٢ — ظهور الموسوعات العامة الضخمة فى جميع العلوم .

٣ — ذيوع طريقة المتون والشروح والحواشى ، فيؤلف متن فى أحد العلوم ، ثم يشرح هذا المتن . وقد يكون فى هذا الشرح غموض أو نقص ، فيستدرك عليه استدراكات عديدة أو يشرح شرحا مناسبا ، ويسمى التعليق على الشرح حاشية ، وقد تكون ألوان من القصور فيستدرك عليها بحاشية على الحاشية .

٤ — ابتكار علم الاجتماع وفلسفة التاريخ بظهور مقدمة ابن خلدون(١) ، وظهور النقد التاريخى والكتابة فى العلوم السياسية والإدارية والحربية .

٥ — غلبة الأسلوب الأدبى على لغة التأليف .

---

(١) يقول ابن خلدون فى آخر مقدمته : عزمنا أن نقبض العنان عن القول فى هذا الكتاب الأول الذى هو طبيعة العمران وما يعرض فيه ، وقد استوفينا من مسائله ماحسبناه كفاية ، ولعل من يأتى بعدنا يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله الخ :

الإمام السيوطى

رائد الثقافة الإسلامية فى عصره

٨٤٩ — ٩١١هـ : ١٤٤٥ — ١٥٠٥م

— ١ —

كان الإمام جلال الدين السيوطى نادرة عصره ؛ بقية السلف ، وعمدة الخلف ، كما يقول عنه معاصره « ابن إياس » فى كتابه « بدائع الزهور(١) » بل كان جلال الدين والدنيا ، ومعدن التدريس والفتيا، جمل الله به ملة الإسلام كما يقول الشهاب المنصورى الشاعر المعاصر له(٢) .

ولقد عاش السيوطى فى أواخر عصر المماليك ، الذين امتد نفوذهم فى كل مكان ، وقامت لمصر فى أيامهم دولة عظمى ، وأمبراطورية كبرى ، كان لها الرأى الفاصل فى كل القضايا العالمية آنذاك ، وامتدت هيبتهم من الهند إلى شواطى المحيط الأطلسى ، وشمل حكمهم مابين برقة وضفاف الفرات وما بين قبرص إلى مجاهل إفريقيا ، كما شمل اليمن والحجاز وسواحل المحيط الهندى ؛ بل امتد إلى حدود الحبشة وجهات سواكن وجزائرها .

وحدث عن مجد المماليك ومصر بعد هزيمة الجيش المصرى للتتار فى

(١) ٨٣/٤ بدائع الزهور لابن إياس .
(٢) ١٢٢ عقود الجمان للسيوطى .

عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ثم بعد إجلائهم الكامل للصليبيين من سواحل الشام عام ٦٩١ هـ/١٢٩٢ م ، بل حدث عن آثر نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة عام ٦٥٩ هـ — ١٢٦١ م ولا حرج ، حتى ليقول السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » : اعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وصارت محل سكنى العلماء ، ومحط رحال الفضلاء (٢/٦٥ حسن المحاضرة)

وكانت دولة آل عثمان بعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م تتطلع وهى فى آسيا الصغرى إلى هذا المجد الكبير ، وإلى مكانة مصر العالمية الكبرى بعين الحذر ، وتتربص بامبراطوريتها ريب الأحداث .

وصارت حضارة مصر آنذاك مضرب الأمثال ، فمفاتيح التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى يدى الشعب المصرى ، والأموال تتدفق عليه بلا حساب ، والرخاء والازدهار تبلغ القاهرة كل أحلامها منهما . وكان سلطان المماليك يلقب بسلطان البرين والبحرين ، أى البر المصرى والبر الشامى، والبحر الأبيض والبحر الأحمر(١) ، وكان لقب قلاوون « ملك البرين والبحرين وصاحب القبلتين(٢) وخادم الحرمين الشريفين(٣) » ، وأحيانا كان يلقب بسلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القبلتين ، ملك الديار المصرية والجهات الحجازية والبلاد الشامية ، والأعمال

---

(١) ٧٤ العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية — محمد شفيق غربال — ١٩٦١ القاهرة .

(٢) أى كلمة المكرمة وبيت المقدس الشريف .

(٣) كما جاء فى نقش أثرى على البيمارستان القلاوونى فى القاهرة ، تاريخه ٦٨٤ ..

الفرانية والديار البكرية . . بل لقد خطب للسلطان برقوق باسمه فى توريز من بلاد العجم وفى الموصل وماردين وسنجار ، وضربت النقود باسمه فى جميع هذه البقاع(١) .

ووصف هولاكو القائد المغولى القاهرة فى إحدى رسائله بأنها « كروان سراى » أى محطة تجارية عالمية ، أو سوق تجارى عالمى . ويقول المقريزى فى الخطط : وسمعت الكافة ـ أى الناس جميعا ـ ممن أدركتهم يفاخرون بمصر سائر البلاد(٢) . ويقول ابن خلدون عن القاهرة : هى حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك(٣) . ويقول كذلك عن مصر(٤) . ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع .

وكان عصر السيوطى عصر ازدهار الثقافة الإسلامية والعربية ، وحدث عن جامعة مصر الكبرى الأزهر الشريف قبلة المسلمين من كل مكان ، ولا حرج ، ويقول المقريزى فيه : يجد الزائر له من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس مالا يجد فى غيره(٥) . . ومع أن المماليك كانوا ينتمون إلى أصول غير عربية ، إلا أنهم بإقامتهم فى أرض العروبة اعتبروا أنفسهم عربا ، بل حماة للعرب ، حتى كان من ألقاب سلاطينهم « سيد ملوك

(١) ٦٥ صور من عصر المماليك ـ سعداوى نظير حسان .
(٢) ٢/٩٢ الخطط للمقريزى .
(٣) ٣/١٣٣ نفح الطيب للمقرى .
(٤) ٤٥٣ مقدمة ابن خلدون .
(٥) ٢/٢٧٦ خطط المقريزى .

العرب(١) » ؛ وعدوا أنفسهم مصريين ، بما اكتسبوا من الروح المصرية ، لحياتهم الطويلة على ضفاف النيل قبل وبعد قيام دولتهم ، ومع أن لغتهم الأولى كانت هى التركية المملوءة بألفاظ فارسية وعربية ، كانوا يتعلمون العربية ويتقنونها ، حتى صار كبارهم وأمراؤهم ، بل جمهورتهم ، يتكلمون العربية الفصحى ويتخاطبون بها . وكان السلطان الأشرف خليل يعقد المجالس الأدبية ويطارح الأدباء والشعراء ، مع معرفته بصناعة الانشاء(٢) ؛ واشتهر كذلك السلطان جقمق وخشقدم بفصاحة اللسان بالعربية الفصحى البليغة ؛ وكذلك جانى بك (ـ ٨٦٨ هـ) وخاير بك (ـ ٨٨٧ هـ) ، وحبيب العلائى الاينالى (ـ ٨٩٣ هـ)(٣) ، وكذلك السلطان قانصوه الغورى حيث كان يجيد العربية ، شديد الولع بعلومها وآدابها ، وله فيها مشاركة كبيرة ، كما كان يتذوق الشعر(٤) إلى ماشهر عنه من غرامه بقراءة السير والتواريخ ، وله مجالس عرفت باسمه عنوانها « مجالس الغورى(٥) » ، وهى مناظرات كانت تجرى فى مجلسه .

وفى القاهرة كانت المدارس العلمية والخوانق (البيوت) الصوفية تنهض برسالة دينية وثقافية وعلمية كبرى ، وتعمل من أجل نشر الثقافة الاسلامية

(١) ١٢٩/٣ بدائع الزهور لابن إياس .
(٢) ص ٧٩٠ جـ ١ قسم ٣ السلوك .
(٣) ١٢٨/١ بدائع الزهور .
(٤) ٩٠/٢ ابن إياس .
(٥) ٥٩/٣ بدائع الزهور لابن إياس ، والكتاب « مجالس الغورى » مطبوع فى القاهرة .

وحمايتها ، ومن بينها : المدرسة الصالحية ، والكاملية ، والظاهرية ، والمنصورية ، والناصرية ، والمؤيدية ، والخانقاه البيبرسية ، والمدرسة الشيخونية التى درس فيها السيوطى على شيخه البلقينى ، ومنحه فيها إجازة علمية عام ٨٦٤هـ/١٤٦٠ ، ثم كان أستاذا فيها ذاتها كذلك عام ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م . وكان الأزهر يشد أزر هذه المدارس ، ويغذيها بالأساتذة الأعلام فهو وجه مصر الروحى والفكرى والحضارى ، وهو أبرز معاهد العلم والدراسات الإسلامية والعربية فى « دولة البرين والبحرين » ؛ وإليه يفد طلاب العلم وشيوخه من مشارق الأرض ومغاربها ، للتعمق فى دراسة علوم الدين والعربية ، وفيه كانت تعقد مجالس الوعظ والذكر وحلقات التدريس ، وقد أكسب مصر سمة إسلامية عالمية ، حتى صارت حاملة مشاعل الثقافة الإسلامية بعد بغداد التى صارت أطلالا دارسة ؛ فالأزهر هو الذى رفع المشاعل وأوقد المصابيح ، وأضاء الدنيا ، وتصدر حلقاته العلمية الأئمة والأعلام من العلماء ، أولى المناهج العلمية ، وقد عرفت طريقتهم باسم الطريقة المصرية »(١) .

وعاصر السيوطى من سلاطين المماليك الجراكسة ثلاثة عشر ، هم :

١ — الظاهر جقمق ٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م .
٢ — المنصور عثمان ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .
٣ — الأشرف إينال ٨٥٧ – ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ – ١٤٦١ م .
٤ — المؤيد أحمد ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م .

---

(١) ٤٤٢ المقدمة لابن خلدون .

٥ — الظاهر خشقدم ٨٦٥ – ٨٧٢ هـ / ١٤٦١ – ١٤٦٧ م .

٦ — الظاهر ألباى ٨٧٢ – هـ / ١٤٦٧ م .

٧ — الظاهر تمربغا ٨٧٢ – ٨٧٣ هـ / ١٤٦٧ – ١٤٦٨ م .

٨ — الأشرف قايتباى ٨٧٣ – ٩٠١ هـ : ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م .

٩ — الناصر محمد بن قايتباى ٩٠١ – ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ – ١٤٩٩ م .

١٠ — الظاهر قانصوه ٩٠٤ – ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ – ١٥٠٠ م .

١١ — الأشرف جانبلاط ٩٠٥ – ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ – ١٥٠١ م .

١٢ — العادل طومان باى ٩٠٦ – ١٥٠١ م .

١٣ — الأشرف قانصوه الغورى ٩٠٦ – ٩٢٣ هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦ م

كما عاصر السيوطى كذلك أئمة كبارا من العلماء ، وبحسبك ابن حجر (– ٨٥٣ هـ/١٤٤٩ م) ، ولقد طلب والد السيوطى منه أن يدعو لابنه بالبركة والتوفيق ، وكان السيوطى يرى فى هذا العالم المصرى العظيم مصدر إشعاع روحى له ؛ وكذلك الامام العينى (– ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، والقسطلانى (– ٩٢٣ هـ : ١٥١٧ م) ، والسخاوى (– ٩٠٢/١٤٩٧ م) ، والمقريزى وابن إياس وغيرهم من أعلام عصره .

ولقد صار السيوطى واحدا من بينهم ، وعلما من كبار علمائهم ، واحتل مركز الصدارة فى القاهرة فى عصره ، وصار فى مقدمة الذين أثروا الثقافة الاسلامية العربية ، ورفعوا من شأنها ، وأحلوها مكانا عاليا ، ومنزلة سابقة ، تبوأتها من ذلك الحين حتى يومنا هذا ، فهو أحد الذين قادوا مواكب

الثقافة الإسلامية فى عصره ، بشخصيته الإسلامية العالمية ، وبموسوعيته العلمية التى ليس لها نظير فى تاريخ العقل العربى .

— ٢ —

ولد جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى القاهرة أول رجب عام ٨٤٩ هـ — الثالث من أكتوبر عام ١٤٤٥ م فى منزل والده بالروضة ، وهو من أسرة بغدادية الأصل ، استقر بها المقـام فى أسيوط منذ عهد الدولة الأيوبية ، واشتهر منها العلماء من الرجال ، وكان والده كمال الدين أبو بكر السيوطى بعد (عام ٨٠٠ — صفر ٨٥٥ هـ) من جلة العلماء ؛ وقد نزح من أسيوط إلى القاهرة قبل ميلاد ابنه بأربعة وعشرين عاما(١) ، وانقطع لطلب العلم فى الأزهر وغيره ، ثم للتعليم والإفادة وتدريس الفقه فى الجامع الشيخونى ، وللخطابة فى الجامع الطولونى ، وكان بيته بجزيرة الروضة مقصد الطلاب والعلماء ، وكان الخليفة المستكفى بالله (٢) يجله ويعظمه . ولعل عطف الخلفاء العباسيين عليه مما يؤيد أصله البغدادى .

وتوفى والد جلال الدين وهو طفل صغير فى السادسة من عمره ، فكفل الابن الصغير ، عبد الرحمن ، صديق لوالده وزميل له فى المدرسة الشيخونية ، هو كمال الدين بن الهمام الحنفى (ــ ٨٦١ هـ(٣)) ، الذى أخذ يتعهده ويرعى شئونه ، وكان ابن الهمام محققا جدليا ، ولى مشيخة المدرسة الشيخونية ،

(١) ١/١٠٧ حسن المحاضرة — المطبعة الشرفية .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) ١/٢٠١ حسن المحاضرة .

وله كتب مشهورة فى الفقه وفى الأصول ، منها كتابه فتح القدير ، وشرح الهداية .

وظهرت على الابن الصغير مخايل النبوغ والذكاء وقوة المحافظة ،حتى لقد حفظ القرآن الكريم وهو دون الثمانية من عمره ، وحفظ متون العلوم الإسلامية والعربية وهو دون الخامسة عشرة ؛ وأقبل عبد الرحمن على حضور دروس مشايخ عصره ، وتلقى العلم على أيدى علماء عصره منذ مستهل عام ٨٦٤ هـ وهو فى الخامسة عشرة ؛ وكان من بين هؤلاء الأساتذة :

١ — شيخ الإسلام البلقينى (٧٩١ — ٨٦٨ هـ) إمام العلماء فى المائة الثامنة ، وهو من أساتذته فى الفقه ، وهو الذى أجازه بالتدريس والإفتاء(١) . وكان التصدير الذى ألقاه لما باشر التدريس بجامع شيخون بحضرة أستاذه البلقينى هو الكلام على أول سورة الفتح ، كما كان الكلام على حديث ابن عباس « احفظ الله يحفظك » هو التصدير الذى ألقاه لما ولى درس الحديث بالشيخونية . ولما مات البلقينى لازم عبد الرحمن ولده عليا حتى توفى أيضا بعد وفاة والده العظيم بقليل .

٢ — شهاب الدين الشار مساحى ، الذى أخذ عنه الفرائض .

٣ — شيخ الإسلام شرف الدين المناوى (٧٩٨ — ٨٧١ هـ) الذى تتلمذ عليه فى الفقه ، ولما مات رثاه السيوطى بشعر له(٢) .

(١) ١٨٩/١ المرجع نفسه .
(٢) ١٨٩/١ حسن المحاضرة .

٤ — محيي الدين الكافيجي (٧٨٨ – ٨٧٩ هـ) ، وقد تلقى على يديه التفسير والأصول والمعاني والعربية ، ولزمه أربع عشرة سنة(١) .

٥ — تقي الدين الشبلي الحنفي ، وكان أستاذه في علوم العربية .

٦ — سيف الدين الحنفي ، وهو أستاذه في البلاغة .

٧ — ابن الهمام (– ٨٦١ هـ)(٢) .

٨ — تقي الدين الشمني (٨٠١ – ٨٧١ هـ)(٣) ، وهو أستاذه في التفسير والحديث وفي العربية ، وقد لازمه أربع سنين ؛ ولما مات الشمني رثاه السيوطي بقصيدة طويلة من شعره(٤) .

وغير هؤلاء ، وهم كثير ؛ وذكر السيوطي أن شيوخه الذين أخذ عنهم نحو المائة والخمسين(٥) . وقد ترجم لهم في معجم خاص — وواصل السيوطي مسيرته العلمية ، حتى تفقه في علوم عصره ، وألف أول كتبه وهو في الخامسة عشرة ، وهو تفسير للاستعاذة والبسملة ، وذلك عام ٨٦٤ هـ ، وهو دليل على طموح علمي كبير ، وهذا النهم العلمي الذي لا يقف عند غاية هو أحد معالم شخصية(٦) عالمنا الكبير ، حتى لقد أجيز بتدريس العربية وهو في الخامسة عشرة ،

---

(١) ١٤١/١ المرجع نفسه .
(٢) ١٠١/١ المرجع نفسه .
(٣) ٢٢٧/١ الكواكب السائرة .
(٤) ٢٠٢/١ حسن المحاضرة .
(٥) ١٤٢/١ المرجع نفسه .
(٦) ٦٢ طبقات المفسرين للسيوطي .

وروى عنه علماء عصره الحديث وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وذلك عام ٧٧١ هـ ، وأجيز بتدريس الفقه وبالفتيا وهو فى السابعة و العشرين من سنى حياته المباركة (١) .

وكان أول درس ألقاه فى الأزهر الشريف فى تفسير سورة الفاتحة .

لقد أحب السيوطى الكتاب منذ صغره ، وكان يرى فى الإمامين البلقينى وابن حجر مثله الأعلى ، فدعا الله وهو يشرب من ماء زمزم أن يجعله فى الفقه مثل البلقينى وفى الحديث مثل ابن حجر .. وكان والده قد ترك له مكتبة زاخرة بالمخطوطات ، فكان يطالع فيها ، فوق تردده على مكتبة المدرسة المحمودية(٢) الحافلة بمختلف المؤلفات فى شتى الفنون والعلوم ، وكانت من أنفس خزائن الكتب بالقاهرة ، وبها نحو أربعة آلاف مجلد ، وقد قام ابن حجر بفهرستها ، ثم تلاه السيوطى فكتب فهارس لها جمعها فى كتاب سماه « بذل المجهود فى خزانة محمود » . وأخذ السيوطى يبحث عن خزائن الكتب المختلفة ويطالع فيها ، ثم أخذ يطوف فى أنحاء مصر ، يلقى العلماء ويحادثهم ويأخذ عنهم ويأخذون عنه ؛ وبعد أن كان يتولى تدريس الفقه بالجامع الشيخونى خلفا لوالده ، صار يتولى منصب المشيخة فى المدرسة الشيخونية ، وهو المنصب الذى كان يشغله أبوه من قبل ، كما شغله أيضا أستاذه الكمال بن الهمام (ـ ٨٦١ هـ) ، وتصدى للافتاء وإملاء الحديث بالجامع

---

(١) ١/١٤٠ حسن المحاضرة .

(٢) نسبة إلى محمود بن على الاستادار ، وكانت من أحسن المدارس فى ذلك الحين ، أنشئت عام ٧٩٧ هـ

الطولونى ؛ ولدرس الحديث بالخانقاه الشيخونية وتولى مشيخة الصوفية بمدفن برقوق الناصرى ، ثم تولى مشيخة المدرسة البيبرسية ، وهى أكبر خوانق (بيوت الصوفية) بالقاهرة ، وبيوتها الصوفية ، وأكثرها أوقافا فى عصره(١)؛ ثم نحاه عنها السلطان محمد بن قايتباى(٢) ؛ وكان آنذاك فى الأربعين من عمره ، فاعتزل الناس ، وزهد فى الدنيا ، وعكف على التأليف طيلة عشرين عاما فى منزله بالروضة ، ورفض أن يستقبل أحدا من زائريه ومريديه ، حتى لقد أغلق نوافذ منزله بالروضة المطلة على النيل ، وكتب فى ذلك رسالة سماها « تأخير الظلامة إلى يوم القيامة » .

ولما تولى طومان باى الحكم خاف منه أن يضطهده ، فاختفى حتى توفى هذا السلطان ، ولحسن الحظ لم يمكث هذا السلطان فى الحكم إلا شهورا قلائل ، عاد السيوطى بعدها إلى منزله فى الروضة ، وكان قد تولى حكم مصر السلطان قانصوه الغورى ؛ وقد عرض هذا السلطان عليه العودة إلى المشيخة فى المدرسة البيبرسية ، فاعتذر وآثر العزلة عن الناس .

حج السيوطى عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، وجاور فى مكة المكرمة عاما كاملا(٣) ، وطاف فى أنحاء العالم الإسلامى دارسا ومدرسا وموجها ، فرحل إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور(٤) : وتصدر مجالس

---

(١) ٥٢/٨ شذرات الذهب لابن العماد .
(٢) ٢٦ طبقات المفسرين للسيوطى .
(٣) ٦٥/٤ الضوء اللامع للسخاوى .
(٤) ٤١/١ حسن المحاضرة ، ٦٦:٤ الضوء اللامع .

العلم والعلماء فى الأزهر وفى غير الأزهر من أمهات المدارس الاسلامية ، حتى غدا علم الأعلام ، ورائدا عظيما من رواد الثقافة الاسلامية .

وبعد عمر غير طويل وعن اثنين وستين عاما هجريا ، أو ستين عاما ميلاديا توفى الامام جلال الدين السيوطى فى التاسع عشر من جمادى الأولى عام ٩١١ هـ : السابع عشر من أكتوبر عام ١٥٠٥ م ، وقال فيه تلميذه عبد الباسط بن خليل الحنفى (ـ ٩٢٠ هـ) :

مات جلال الدين غيث الورى مجتهد العصر ، إمام الوجود

— ٣ —

كانت الثقافة الإسلامية قد أصيبت بنكبات كبيرة فى بغداد على أيدى التتار ، وفى الأندلس على أيدى الأسبان المتعصبين ؛ وسلمت مصر بهزيمتها للتتار فى عين جالوت ، فسلمت لها مجالس العلم ومدارسه وجامعته الكبرى الأزهر الشريف ، وسلمت خزائن الكتب فى القاهرة وبقيت حلقات الثقافة وأنديتها لم يمسسها سوء ، وظلت القاهرة ترسل أشعتها إلى كل مكان ، وتوالى أداء رسالتها فى خدمة الثقافة الإسلامية ، ووفد عليها العلماء والأدباء والشعراء من كل مكان فى العالم الإسلامى .

وقد شمر علماء مصر عن ساعد الجد ، لتعويض ما بدد من التراث الإسلامى فى بغداد والأندلس وصقلية وغيرها ، فألفوا الكتب وصنفوا الموسوعات ، وكتبوا فى كل العلوم والفنون ، وجمعوا ما وصلهم من روايات ومأثورات ،

من مختلف المصادر ؛ ورأوا أن هذه المهمة هى فريضة إسلامية كبيرة ألقيت على كاهل مصر وعلمائها فنهضوا لها ، وقاموا بها خير قيام ، فرأينا المؤلفات الضخمة من مثل ؛ صبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة ، وفتح البارى ، وبدائع الزهور ، والدر المنثور ، وغيرها من أمهات الكتب ، التى خلفها لنا أمثال ؛ القلقشندى ، والنويرى ، وابن تغرى بردى ، والمقريزى وابن حجر وابن إياس والسخاوى والقسطلانى والعينى والدماميني والشمنى وابن الكمال والسبكى وابن فضل الله العمرى والدميرى والأسنوى والمناوى والبلقينى والشعرانى وغيرهم . . وكذلك فعل السيوطى ، بل لقد فاقهم جميعا فى عظمة التحصيل ، وغزارة التأليف ، وروعة التحقيق ؛ وظلت القاهرة تتصدر عواصم العالم الإسلامى حضاريا وفكريا وثقافيا ، وظلت أنديتها العلمية والأدبية حافلة بالعلم والعلماء والطلاب ؛ كما كانت على امتداد عصور التاريخ .

لقد عكف السيوطى على الكتاب والكتابة والتأليف طيلة حياته ، فأثرى المكتبة العربية بنفائس المؤلفات ، وبذخائر المصنفات ، مما شهد لها المحققون ؛ وأقروا لصاحبها بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، وبوفرة المحصول ، وموسوعية المعرفة ، وبغزارة العلم والرواية ، وبالوقوف على مختلف البحث ، والإحاطة بكل ماتشتمل عليه خزائن الكتب فى القاهرة وغيرها ؛ وذهل الناس لما رأوا من باهر تحصيله ، ومن وقوفه على دقائق العلوم ، وحقائق المعرفة ، وخفايا المخطوطات .

ويقول السيوطى عن نفسه(١) : « لقد رزقت التبحر فى سبعة علوم ،

(١) ١٤١/١ حسن المحاضرة .

هى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب البلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه ، أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم ؛ وهو فى كتابه حسن المحاضرة يذكر أن مؤلفاته آنذاك بلغت ثلاثمائة ، ويذكر ابن إياس أنها فى جملتها تبلغ ستمائة(١) ؛ ويذكر بروكلمان أنها أكثر من أربعمائة (٢) ، وأحصى له المستشرق فلوكل ٥٦١ مؤلفا(٣) ؛ وقد تكون بعض كتبه وريقات قليلات ، ككتابه « المتوكلى » مثلا ؛ وقد تكون أجزاء كثيرة ، مثل : الدر المنثور ، والجامع الكبير ، وغيرهما . وقد جمع السيوطى فى كتابه « الحاوى للفتاوى » الذى يقع فى نحو ألف صفحة ثمانية وسبعين مؤلفا منفردا ، أغلبها من الفتاوى والبحوث المنفردة(٤) . وجمع فى كتابه « النقاية » أربعة عشر علما ، هى : التفسير ، والحديث ، وأصول الدين ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والتشريح ، والخط ، والصرف والنحو ، والفرائض ، وأصول الفقه ، والتصوف ، والطب ..وله شرح عليه .

وليس فى العالم من بلغ مابلغه السيوطى فى كثرة المؤلفات سوى رامون لول الأسبانى أحد كتاب العصور الوسطى الذى بلغت مؤلفاته نحو

---

(١) ٦٣/٣ ، ٣/٤, بدائع الزهور .
(٢) ١٤٥/٢ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان .
(٣) ١٥٧/١ المرجع نفسه .
(٤) ١٩٩/١ — ٤٦ الحاوى .

الخمسمائة(١) . . ويقول الداودى(٢) تلميذ السيوطى (– ٩٤٥ هـ) الشافعى المصرى العلامة المحدث فى انبهار بعظمة شيخه : كان السيوطى فى سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله(٣) . . وهكذا كان جلال الدين السيوطى أرفع علماء عصره همة ، وأعظمهم نشاطا ، وأكثرهم تأليفا ، وأغزرهم مادة ، بل لعله أغزر علما والعربية قاطبة تصنيفا ، حتى لقد ضرب به المثل على طول العصور فى غزارة التأليف ، ولقب بابن الكتب .

كان التأليف عند جلال الدين هواية وفنا نبحر فيه ، حتى لقد اتخذ منه سلاحا يدافع به عن نفسه ضد مخالفيه فى الرأى ، من منافسيه وخصومه والحاقدين عليه ، يقول : خالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة فألفت فى كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق(٤) .

واختصر السيوطى الكثير من نفائس كتب التراث ، حتى لنجد من كتبه :

---

(١) ٦٠ المؤرخون – د . محمد مصطفى زيادة .

(٢) ألف ذيلا على طبقات الشافعية للسبكى ، وكتب ترجمة شيخه السيوطى فى مجلد ضخم ، وله ذيل على كتاب شيخه « طبقات المفسرين » وذيل آخر على كتاب أستاذه كذلك « لب الأنساب » .

(٣) تدريب الراوى .

(٤) ٢/٢٨١ بدائع الزهور لابن إياس .

١ — مختصر الأحكام للماوردى .

٢ — مختصر الروضة فى الفقه .

٣ — مختصر التنبيه فى الفقه .

٤ — مختصر الاحياء للغزالى .

٥ — مختصر معجم البلدان لياقوت الحموى .

٦ — مختصر تهذيب الأسماء للنواوى .

٧ — مختصر تاريخ ابن عساكر ، سماه تحفة المذاكر فى المنتقى من تاريخ ابن عساكر .

٨ — وله كتاب سماه « ديوان الحيوان » وهو خلاصة لكتاب حياة الحيوان للدميرى (ت ٨٠٨ هـ) .

وألف مئات الكتب ، فى شتى الفنون والعلوم ، فمنها فى التفسير : الدر المنثور — لباب النقول فى أسباب النزول — تكملة تفسير الجلالين الذى كتب نصفه الأخير الجلال المحلى(١) (٧٩١ — ٨٦٤ هـ) ، وكتب هو نصفه الأول — الإتقان — وغير ذلك . وللسيوطى الباع الطويل فى التفسير بالمأثور .

وتبلغ مؤلفاته فى الحديث أكثر من ١٦٠ كتابا ، من أشهرها : الجامع الكبير — والجامع الصغير . ويقول السيوطى عن نفسه : ليس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها مَن هو أعلم بالحديث والعربية منى(٢) .

(١) راجع ترجمته فى ١/١٨٨ حسن المحاضرة .
(٢) تدريب الراوى — المقدمة .

وله فى الفقه عشرات المؤلفات ، ومنها : جمع الجوامع ، وكتاب الجامع فى الفرائض ، وكتاب « أدب الفتيا » .

وفى علوم العربية كان له القدح المعلى ، وله فضل السبق فى ابتكار علم أصول اللغة والنحو ؛ وكان يعد من كبار المصنفين فى العربية . ويقول عن علم أصول اللغة : هو علم اخترعته لم أسبق إليه ، لم يسبقنى إليه سابق ، ولا طرق سبيل طارق(١) ، ومن أجل كتبه فى هذا المجال : شرح ألفية ابن مالك ، الفتح القريب على « مغنى اللبيب » ، الاقتراح فى أصول النحو ، الأشباه والنظائر ، المزهر .

وفى علوم البلاغة : ألف الكثير من الكتب ، ومن بينها : عقود الجمان فى المعانى والبيان .

وفى الأدب له عشرات الكتب : من بينها : ديوان خطب ـ ديوان شعر ـ المقامات ـ درر الكلم وغرر الحكم ـ شرح بانت سعاد ـ فضل الشتاء . . الخ .

وفى أدب الرحلات نجد له : الرحلة المكية ـ الرحلة الدمياطية ـ الرحلة الفيومية .

وفى التاريخ نجده فى مقدمة مؤرخى عصره ، وله فى هذا المضمار كتب كثيرة ، منها : تاريخ الخلفاء ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ

(١) ٦/٦٧٦ كشف الظنون نقلا عن المزهر .

تاريخ السلطان الأشرف قايتباى ـ تاريخ أسيوط ـ تاريخ الصحابة . وغير ذلك مما يدل على منهجه التاريخى الذى بلغ فيه وبه غاية التحقيق ، وله كتاب فى تاريخ جامع عمرو ، وآخر فى تاريخ جامع ابن طولون .

وفى التراجم نجد له كتبا كثيرة ، منها :

١ — طبقات النحويين واللغويين : الكبرى وهى مفقودة ، والوسطى طبعت فى باريس ، والصغرى هى التى طبعت بعنوان « بغية الوعاة »

٢ — طبقات الكتاب .

٣ — طبقات شعراء العرب .

٤ — طبقات المفسرين .

٥ — طبقات الحفاظ .

٦ — طبقات الأصوليين .

٧ — طبقات الشافعية .

٨ — حلية الأولياء .

٩ — معجم شيوخى الكبير والصغير .

١٠ — تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة ، طبع فى حيدر آباد سنة ١٣١٧ هـ .

١١ — تزيين السالك فى مناقب مالك ، وهو فى الخزانة التيمورية .

١٢ — المنهاج السوى فى ترجمة النووى .

١٣ — ترجمة البلقينى (وهو أستاذ السيوطى) .

١٤ — الثغور الباسمة فى مناقب السيدة آمنة .

١٥ — الفوائد الكامنة فى مناقب السيدة آمنة .

١٦ — نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، فيه مائتا ترجمة لأعلام عصره ، وقد نشره فيليب حتى .

وله العديد من الكتب فى التصوف ، ومن بينها :

١ — قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض .

٢ — تنبيه الغبى إلى تبرئة ابن عربى .

— ٤ —

لقد انتشرت مؤلفات السيوطى فى العالم الإسلامى كافة ، وأقبل عليها الطلاب والدارسون والعلماء بشوق ولذة ، وأذن السيوطى فى حياته لتلميذه الداودى بروايتها ؛ وقرئت فى بلاد الشام والحجاز واليمن والروم والعجم والحبشة ـ والمغرب وبلاد التكرور ، وامتدت إلى البحر المحيط(١) . وبالمثل سارت فتاواه وعلومه فى سائر الأقطار مسير الشمس ، ورزق من القبول من علماء عصره مالم يرزقه أحد سواه .

وقد كان لمكانته العلمية والأدبية ، ولأسلوبه السهل الممتنع ، ولتحقيقاته الفريدة ، ولإحاطته الواسعة بشتى المصادر ، ومختلف المذاهب ، والآراء ،

---

(١) ٤/٦٦ الضوء اللامع للسخاوى .

ولشخصيته الحرة الشجاعة التى لا تتملق حاكما ، ولا تتزلف لكبير ؛ كان لذلك كله أثره فى عموم النفع بعلمه وكتبه ، إذ كان الشعب يرى فيه صورة الأمين على الشريعة ، والشجاع فى قول كلمة الحق ، والنزيه فى أحكامه وفتاواه

كان السيوطى مخلصا للعلم وحده ، صادقا فيه مع نفسه ، بعيدا عن الملق والتزلف والرياء وحب الدنيا والرياسة والجاه ، شديد المراقبة لله عز وجل(١) ، وإن غضب عليه الحكام والسلاطين ، وكم لاقى فى سبيل جرأته وشجاعته ورأيه الحر الكثير من العنف .

أرسل إليه السلطان الغورى غلاما وألف دينار ، فرد الدنانير وأخذ الغلام وأعتقه ، وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله أغنانا عن مثل ذلك .

وكان الأمراء يزورونه ويعرضون عليه هداياهم وهباتهم فيردها(٢) . وقد عرض عليه الغورى رياسة مشيخة مدرسته بأول الغورية فرفض وقبل البقاء فى عزلته(٣) .

ولم يكن يكترث لغضب الأمراء والسلاطين ، وكان الحريص على إقامة الحدود وتطبيق الأحكام الشرعية ، مهما كلفه ذلك من عنت .

رفض جلال الدين الذهاب مع العلماء لتهنئة السلطان بالشفاء من مرض

(١) مقدمة تدريب الراوى .
(٢) ٦٦٣ المزهر .
(٣) ٢١ ذيل الطبقات الكبرى للشعرانى .

ألم به ، ذاهبا إلى أن عدم ذهاب العلماء للملوك والحكام سنة ، وألف فى ذلك كتابه « رواية الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين(١) » . وذهب ذات مرة لمقابلة قايتباى فى مظلمة لإنسان ، وعلى رأسه الطيلسان ، مما خالف فيه التقاليد المرعية آنذاك ، ومما أخذ عليه عند السلطان فرد على ذلك بكتابه « الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » .

وحين عزل من مشيخة البيبرسية كتب كتابا عنوانه : « التنفيس فى ترك الفتيا والتدريس » .

وكان من أجل تلاميذ جلال الدين : الداودى (ـ ٩٤٥ هـ) ، والشامى المحدث الحافظ (ـ ٩٤٢ هـ) ، وابن طولون الدمشقى المحدث (٨٨٠ ـ ٩٥٣ هـ) ، وسواهم .

وكان السيوطى كثيرا مايذوه فى كتبه بنفسه وبمؤلفاته وبآرائه فيها ، حتى لنقرأ فى آخر حاشيته على المغنى : وقد أودعتها من الفوائد والفرائد والغرائب والزوائد ما لو ارمه غيرى لم يكن له إلى ذلك سبيل وفى آخر كتابه « بغية الوعاة » يقول عن الكتاب : الجامع من كل شريدة وويدة العجب العجاب(٢) ، وكذلك كان فى كل كتبه ، يقول فى أنواع البديع : قررت فيها بضعة عشر نوعا من الأنواع البديعية ، ثم وقع لى التأمل فيها بعد ذلك ، ففتح الله بزيادة على ذلك ، حتى جاوزت الأربعين ، ثم قدحت الفكر إلى أن

---

(١) ٢/١١٩ بدائع الزهور لابن إياس .
(٢) ١٦٠ بغية الوعاة للسيوطى .

وصلت بحمد الله مائة وعشرين نوعا(١) ؛ وقد استخرج السيوطى هذه الأنواع كلها من الآية الشريفة «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» إلى آخر هذه الآية الكريمة ، ومن الأنواع التى ابتكرها ماسماه بالتأسيس والتفريع(٢) ، وما سماه بالانسجام(٣) ، أو بالمنتخل(٤) ، أو بحسن الطلب(٥) إلى غير ذلك .

وقد دفعت المنافسة إلى إعلان الخصومة بينه وبين السخاوى الذى اتهمه بعدم الأمانة العلمية فيما يكتب فكتب السيوطى فى الرد عليه كتابه المشهور « الكاوى فى تاريخ السخاوى » كما عرض به فى كتب أخرى له . والسيوطى بخاصة من أكثر العلماء التزاما بالأمانة العلمية ، حتى لتراه يذكر فى مقدمات كتبه دائما « المصادر » التى رجع إليها وأخذ منها ، فى حرص تام على الأمانة العلمية ؛ فى كل مايكتبه ، يذكر فى كتابه المزهر(٦) بابا جعل عنوانه « عزو العلم إلى قائله » ويقول فيه : لا ترانى أذكر فى شىء من تصانيفى حرفا إلا معزوا لقائله ومن المصادر التى يذكرها السيوطى فى مقدمات كتبه تجده قد اطلع على كثير من المخطوطات التى لم يطلع عليها الكثير من علماء عصره ،

---

(١) فتح الجليل للعبد الذليل .
(٢) ١٢١ عقود الجمان للسيوطى .
(٣) ١٣٥ المرجع نفسه .
(٤) ١٣٨ المرجع نفسه .
(٥) ١٥٥ المرجع نفسه .
(٦) ٣١٩/٢ المزهر .

وبحق لقد كان مفخرة من مفاخر مصر الثقافية ، وسيظل تراثه خالدا على مر الأيام .

— ٥ —

والسيوطى كان يرى فى نفسه أنه المبعوث على رأس القرن التاسع الهجرى ليجدد للأمة الإسلامية دينها ، مصداقا للحديث الشريف : « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » ويقول السيوطى : ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس أكثر القرون مصريون : عمر بن عبد العزيز(١) فى المائة الأولى ، والشافعى فى الثانية ، وابن دقيق العيد فى السابعة ، والبلقينى فى الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر(٢) وهو يعنى بذلك نفسه .

وكان السيوطى كثير الاجتهاد فى عصره ، وكان يرى أن الاجتهاد فرض كفاية مفروض على العلماء أو خاصتهم ، وألف فى ضرورة الاجتهاد كتابا سماه « من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض » ، وقد تحدث فى هذا الكتاب عن الاجتهاد وضرورته فى كل عصر ، لأنه فرض من فروض الكفاية ، وواجب على أهل كل عصر أن يقوم به طائفة فى كل قطر منهم ، ويحتوى هذا الكتاب على أربعة أبواب :

---

(١) كان أبوه عبد العزيز بن مروان أميرا على مصر فى عهد أخيه عبد الملك ابن مروان ، وقد نشأ عمر بن عبد العزيز طفولته الأولى فى مصر .

(٢) ١/١٣٥ حسن المحاضره .

الأول : فى نصوص العلماء على أن الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفاية .

والثانى : فى نصوص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وأنه لا يجوز عقلا خلو العصر منه .

والثالث : فى ذكر من حث على الاجتهاد وأمر به ، وذم التقليد ونهى عنه .

والرابع : فى فرائد الاجتهاد .

وهو فى هذا الكتاب يقف مع العصر ، ومع العقل وينأى عن التقليد والمقلدين . .

كملت عند السيوطى أدوات الاجتهاد على ما اشترطه الأصوليون ، فكان عالما بآيات الأحكام وأحاديث الأحكام ، وشروط القياس ، ومعرفة مواقع الإجماع ، غير أنه لم يجتهد بالفعل إلا اجتهاد المذهب ، بالترجيح ، على مذهب الإمام الشافعى(١) . ويقول السيوطى : اجتمع عندى ـ بحمد الله ـ الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية ؛ فأنا أعرف كيف أتكلم ، وكيف استدل ، وكيف أرجح(٢) . ويقول : وقد كملت عندى أدوات الاجتهاد ـ بحمد الله ـ ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والمقارنة

---

(١) مقدمة كتاب تدريب الراوى تحقيق د . عبد الوهاب عبد اللطيف .
(٢) السكاوى فى تاريخ السخاوى .

بين اختلاف المذاهب فيها اقدرت على ذلك(١) .

ويقول : وقد كملت عندى الآن أدوات الاجتهاد بحمد الله تعالى أقول تحدثا ذلك بنعمة الله عز وجل(٢) .

وبعقلية المجتهد أثرى السيوطى العلم ، وأثرى التراث الإسلامى ، وأثرى الثقافة الإسلامية .

— ٦ —

وهكذا نرى شخصية الإمام السيوطى الجليلة — فى كل شىء .. شخصية جعلت منه أعظم رواد الثقافة الإسلامية فى القرن التاسع الهجرى ، وهى شخصية العالم العامل من أجـــل وطنه وعروبته ودينه ، شخصية المعتز بنفسه وكرامته .

شخصية المجتهد ماشاء له الاجتهاد ، المخلص للعلم إخلاصا شديدا ، الصادق كل الصدق ، الكاره للنفاق والزلفى والرياء والملق للحكام ، المتعفف الزاهد فى المال لا يقبل شيئا منه إن أتاه من حاكم أو أمير أو غنى ؛ شخصية العالم المفكر والفقيه الأصيل والأديب البليغ ، صاحب الأسلوب البارع الجميل والمضامين الإنسانية الرفيعة ، مما تجده فى رسائله وشعره وفى مقدمات كتبه ، وفى مقاماته ، وعلى الأخص ومقامته اللازلوية التى ذكر فيها أسباب تركه للتدريس

(١) ٢/٢١٨ الحاوى للسيوطى .
(٢) ١/١٤١ حسن المحاضرة .

وهكذا تصدر السيوطى مراكب العلماء فى عصره ، حتى كان ظاهرة فكرية فريدة فى تاريخنا العلمى والثقافى الطويل .

كتبه المطبوعة والمخطوطة فى كل مكتبات العالم ، وفى مكتبة الأزهر الكثير من مؤلفاته المخطوطة ، وفى مكتبة جامعة الرياض أكثر من سبعين مخطوطة له ، وقد صدر بها فهرست خاص ، والدراسات عنه تنمو على مدى الأيام ، وكتبت عنه رسائل جامعية كثيرة .

فليس بعجيب أن يصبح السيوطى فى عصره وبعد عصره رائدا للثقافة الإسلامية الخالدة ، وأن يكون فى عصره كالجاحظ فى عصره ، كلاهما بعد عن حياة الوظائف والمناصب ، وكلاهما كان ممثلا لشعبه ولعصره ولحياته نفسها ، وكلاهما تصدر زعامة الثقافة الإسلامية العربية فى أيامه .

أضاف السيوطى إلى سجل تراثنا الخالد من الثقافة الإسلامية حتى عصره إضافات كثيرة فى كتبه ، مما جعل العالم الإسلامى كله يتطلع إليه وإلى مصر ومدارسها وجامعتها الكبرى الأزهر الشريف ، وإلى تراث علمائها المحققين ، بكل حب وتقدير وإكبار .

لقد أكسب السيوطى وطنه مصر مجدا كبيرا ، خالدا على مرور الأيام ، رحمه الله وأجزل مثوبته .

مظاهر الأدب فى العصر المملوكى

١ — الكتابة الفنية وأشهر الكتاب

تمهيد :

نقصد بالكتابة هذا النثر البليغ الموشى بحلى البديع والمحسنات ، الذى كان الكتاب ينشئونه فى هذا العصر ، ويضمنونه رسائلهم المختلفة ، ويسمى بالكتابة الفنية أو الإنشائية ، وأهم مايشمله هو :

١ — الرسائل الديوانية التى تصدر عن ديوان الإنشاء باسم سلطان مصر ، وتعبر عن شئون الدولة المختلفة من سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها ، وكان رؤساء ديوان الإنشاء هم الذين يتولونها ، وتتناول كل مايصدر عن الحضرة السلطانية إلى مختلف الجهات من الأوامر والمراسيم ، ومكاتبات السلطان إلى العمال والقواد والملوك والأمراء ، وتقليد الوظائف وتوجيه الجيوش والتهنئة بالنصر ، وسوى ذلك من شتى الأغراض .

٢ — الرسائل الاخوانية ، وتتضمن مايكتبه الأدباء بعضهم إلى بعض من رسائل فى المدح والرثاء والفخر والهجاء والاستعطاف والعتاب ، والمحبة ، والرجاء ، والشفاعة والاستهداء ، وسوى ذلك من شتى الموضوعات والأغراض .

٣ — الرسائل الأدبية ، التى ينشئها الكتاب يصورون فيها عواطفهم ومشاعرهم ، ويضمنونها وصف الطبيعة ، والحروب ، ومشكلات الثقافة والأدب والفن ، وكل مايخطر ببالهم مما يتصل بالنفس والمجتمع والحياة .

٤ — فن المناظرات والمفاخرات ، ومن أمثلته «المفاخرة بين العلوم»(١) للقلقشندى ، والمفاخرة بين السيف والقلم له كذلك(٢) ، وسواهما . والمفاخرة هى المناظرة وتزيد عليها بأنها تكون فى مقام التفاخر والثنا . وهذا الفن هو من ابتكار الأندلسيين ، وقد ذاع فى المشرق ، وبرع فيه الأدباء المصريون براعة فائقة .

٥ — فن المقامات ، ومن كتابة فى هذا العصر جماعات كثيرة ، منهم ابن حبيب الحلبى . والشاب الظريف(٣) وابن نباتة ، والسيوطى ، وسواهم .

تطور الكتابة فى هذا العصر :

١ — لما كان هذا النوع من النثر — من نحو الرسائل والمقامات والمفاخرات والأخبار والقصص والسير والاجازات العلمية — مثارا للخيال ومظهرا لحركات الوجدان والشعور واظهار التفوق فى براعة القول والحذق فى الصناعة اللفظية ، اصطبغ منذ القرن الرابع وما بعده من القرون بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى ، فالتزم فيه السجع القصير الفقرات غالبا ، واستعملت الأساليب الشعرية فى الشرح والاستدلال ، بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة ، وقلة المعانى المخترعة ، فاضطر الكاتب إلى حل كثير من أبيات الشعر ذوات المعانى الجميلة ، وإلى الاقتباس

(١) ١٤ : ٢٠٤ صبح الاعشى .

(٢) ١٤ : ٢٣٢ المرجع نفسه ؛ وتسمى : حلية الفضل وتربية الكرم فى المفاخرة بين السيف والقلم ، ومنها نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية .

(٣) ٢ : ٢١١ فوات الوفيات .

من القرآن والحديث والأمثال لفظا ومعنى ، حتى سمى الأدباء هذا النوع بالشعر المنثور . وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد وزير آل بويه وقلده كثيرون ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، وكان ابن العميد هذا رأس كتاب المشرق ، وفارس حلبتهم ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور لم تنحط كتابته فى البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه فى طريقته من المتأخرين ، وكان يقال فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وجاءت بعده طبقة من تلاميذه من أمثال الصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ هـ وكان يلتزم السجع أكثر من ابن العميد ، وأولع بالجناس ، ومن أشهر كتاب هذه الطريقة بديع الزمان الهمذانى ، والخوارزمى والصابى ، ثم الحريرى صاحب المقامات المشهورة .

٢ — وكانت كتابة الإنشاء والترسل فى مصر فى عهد الفاطميين والأيوبيين على مثل ما كانت عليه فى المشرق من اتباع طريقة ابن العميد ، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع ؛ واشتهر ممن نسج على منوالها العماد الكاتب الاصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . . ولما نبه شأن القاضى الفاضل م ٥٩٦ هـ أراد أن يحاكى كتاب الشرق فى البديع ، فزاد عليهم وأربى واخترع طريقة جديدة تسمى الطريقة الفاضلية وذلك أنه جارى من قبله من كتاب المشرق فى التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد عليهم أن استعمل فى رسائله أكثر أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ فى الشعر ، وأكثر من حل المنظوم واقتباس الآيات ، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال . وأكثر جدا كذلك من استعمال التورية فاستدعى ذلك إطالة السجعات طولا أخرجها عن المألوف ، لأن التورية يحتاج فيها إلى ذكر موشحات وقرائن لمعنييها القريب والبعيد ، وأمعن فى التشبيه والاستعارة مع قلة المبالاة بالمبالغة ، والاغراق

فى ذلك ، حتى جاءت معانى رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر فى رسائله هو بقدر ما ظهر فى رسائل من خلفه فى دواوين الإنشاء بمصر والشام لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته فى اللغة ووفرة محفوظه من الأدب . . ويلقب العماد الكاتب بعمدة المنشئين ، والقاضى الفاضل بشيخ البلاغة .

٣ — وقد سار الكتاب فى العصر المملوكى على طريقة القاضى الفاضل، وجرى فى حلبة الكتابة من ليس له مثل مواهبه وبلاغته ، وحسبوا أن البلاغة تمتلك ناصيتها بحلى البديع وزينته ووشيه ، وبالاسترسال فى تكلفه وتصيده ، وأسرفوا فى ذلك إسرافا أبعد للكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة .

وهكذا أخذت الكتابة الفنية فى الضعف ، لشغف الكتاب بتزين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية ، وانصرافهم عن العناية بالمعانى والأفكار واختيار الأساليب الملائمة لها . . فإذا قرأنا رسالة لكاتب فى هذا العصر رأينا أنها — فى الكثير الغالب — لا تشتمل على معنى رائع ، أو فكر بديع ، لأن صاحبها كان يفكر فى الألفاظ المزخرفة أولا ، ليؤلف منها المعانى ثانيا . وفى هذا مناقضة لأصل الفطرة ، لذلك جاء الكلام متكلفاً ضعيفا ، وهذا الضعف لم يكن جديداً فى هذا العصر ، بل إنه حادث قبل سقوط الدولة العباسية بزمن غير يسير ، غير أن الكتاب هنا نحوا منحى القاضى الفاضل فى طريقته ، وهى التزام السجع والتورية ، وغالوا فى ذلك غلوا يأباه الذوق ، ويفكره الطبع السليم ؛ ولعل من اسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب ، وتحكمها فى نفوسهم ، حتى لكأنهم نسوا بلاغة العباسيين الأولين ، وعجزوا عن الإتيان بنظائرها .

وقد نشأت جماعات من النقاد راعهم ضعف الكتابة وتخاذلها ، وحاولوا إصلاحها وتجديد مناهجها ، فالنويرى فى كتابه « نهاية الأرب » يرجع هذا الضعف الملحوظ إلى دخول المدعين فى وسط المنشئين ، فيقول : « وقد اتسع الخرق فى ذلك ، ودخل فى الكتابة من لا يعرفها البتة ، وزاد على الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء ، وصار الآن حد الكتابة عند هؤلاء الجهال ، أن يكتب أحدهم على المجود مدة ، ويتقن بزعمه أسطراً ، فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزته وركب برذونه أو بغلته . وسعى فى الدخول إلى ديوان الإنشا والانضمام إلى أهله ، ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم » ، وقد در القائل :

تعس الزمان لقد أتى بعجاب ... ومحا صفوف الفضل والآداب

وأتى بكتاب لو انبسطت يدى ... فيهم رددتهمو إلى الكتاب

ويعلل ذلك القلقشندى فى كتاب « صبح الأعشى » بالعجمة السائدة فى نفوس الرؤساء ، وعدم استطاعتهم الفرق بين غبى وبليغ ، وضياع منزلة البلغاء المتمكنين لديهم ، وتقربهم لضعاف الملكات ، وأنصاف المترسلين ، فيقول : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى ، لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والانوك لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم ، ولم يسع الآخذ من الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصـناعتى عربية وكأننى ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول وما أقول وأين لى فأسير ، لا بل أين لى فأقيما ؟

ويقول ابن خلدون فى مقدمته ناقداً أهل عصره فى الـكتابة : « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثيرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الـكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ،وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل خصوصاً أهل المشرق » . . « ثم يقول : وما حمل عليه ــ أى على هذا الأسلوب ــ أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الـكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الـكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع ، يلفقون به مانقصهم من تطبيق الـكلام على المقصود ، ومطابقة الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعة ؛ ويغفلون عما سوى ذلك ، وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه فى سائر أنحاء قولهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الـكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الـكلمة ، عساها تصادف ذلك التجنيس » .

وجملة الأسباب فى ضعف الـكتابة فى هذا العصر مايلى :

١ — ضعف الملكات والمواهب بشيوع العجمة والعى ، وبغلبة الأعاجم على الأمر في البلاد الإسلامية ، وعدم تشجيعهم لذوى الحظ الأوفى في صناعة الأدب والإنشاء .

٢ — ضعف الثقافة الأدبية ، وقلة محصول كثير من الكتاب في العلوم العربية .

٣ — العزلة التي عاش فيها الأدباء في هذا العصر ، فلم يكن لأكثرهم رحلات وسياحات خارج إقليم مصر والشام والحجاز بسبب الحروب والفتن ، مما جعل البلاغة الغربية تفتر قليلا قليلا في نفوس المنشئين والمترسلين .

٤ — عدم وجود مواطن عديدة للأدب في هذا العصر ، تتنافس فيما بينها في تشجيع الأدباء والكتاب كما كان موجودا من قبل في العصر العباسي الثاني ، واقتصرت مواطن الأدب على القاهرة ودمشق والقدس والمدن المنبثة في إقليم مصر والشام ، وكلها تخضع لمؤثرات أدبية واحدة .

٥ — محاربة هذا العصر للثقافات العقلية من فلسفة ومنطق وجدل وسواها . وقد ظهر بغض المجتمع الإسلامي لهذه الثقافات في الأندلس أولا وفي البلاد العربية في عهد الأيوبيين ثانيا ، فقد كان صلاح الدين الأيوبي — كما يقول صاحب النجوم الزاهرة — مبغضا لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ، وقد قتل السهروردى في حلب عام ٥٨٨ هـ في عهده(١) ، وقد أفتى ابن الصلاح الشهرورزى م ٦٤٣ هـ بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق ، وهكذا كانت البيئة

(١) جـ ٦ ص ٩ النجوم الزاهرة .

السنية فى عهد الأيوبيين تحارب العلوم العقلية حربا شديدة ، فى مناطق واسعة من العالم الإسلامى . واستمر هذا الكره للفاسفة والمنطق سائدا فى عصر المماليك ، حتى ليقول الأدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » فى رجل من أقربائه كان يشتغل بالفلسفة : ومرض فلم أصل إليه ، ومات فلم أصل عليه(١) ووصف إقليم قوص ، واختص مدينة « قنا » بذكر محاسنها فقال : ولا يكاد يوجد بها أجذم ولا أبرص ولا مجسم ولا معتزلى ولا فيلسوف ولا مجوسى ولا وثنى(٢) . . ولا شك أن الجهل بالعلوم العقلية أضعف ملكات التفكير والخيال عند الأدباء .

٦ — فساد الذوق وانتشار التقليد ، وعموم الجمود الذى انتاب العامة والخاصة على السواء .

ومن الانصاف فى القول أن نقول إن الكتاب فى هذا العصر انقسموا إلى فريقين :

١ — الفريق الأول المقلدون من أتباع طريقة القاضى الفاضل وهؤلاء هم الأكثرون ، وقد أصبحت الكتابة على أيديهم كليلة ضعيفة - يشوهها الاغراق فى التحسين والتزيين ، وهذا فى مصر والشام واللغة فيها عربية والحكام يتظاهرون بحب اللغة والأدب ، فما بالك بالعراق وفارس وما يحيط بهما واللغة إما مغولية أو فارسية أو تركية . والحكام لا يعرفون من العربية قليلا

---

(١) ص ٧٥ الطالع السعيد
(٢) ص ١٩ المرجع نفسه

ولا كثيرا(١) .

٢ — فريق النقاد الثائرين على التقليد من أمثال ابن خلدون والقلقشندى والنويرى وسواهم ، ومذهبهم فى الكتابة التحرر من قيود الصناعات ، والسير مع الطبع ، والتعبير عن النفس ، ومحاربة التكلف الممقوت فى الأداء . . وهؤلاء هم الذين حفظوا على العربية بعض روائها ، وعلى الكتابة الفنية شيئا من بهجتها وازدهارها فى هذا العصر .

خصائص الكتابة فى العصر المملوكى :

١ — أما من حيث المعانى والأخيلة فقد كان محصولها قليلا ، وكان الجديد منها نادرا ضئيلا . . مذهب العصر أن الألفاظ قبل المعانى ، وأن العناية باللفظ يجب أن تكون عماد الكتابة وسر جمالها ؛ والمعانى تلى الألفاظ فى المنزلة ، فلا يوجه الكاتب إليها عنايته إلا أخيرا ، ومرد ذلك فى الأعم الأغلب إلى ضعف الثقافة ، وقلة استحكام العقل ومراسه ، وضآلة مايتجمع فى عقول الكتاب من أفكار وأخيلة ومعان ، اللهم إلا مايتردد فى أذهانهم حفظا ،

(١) أما الأندلس فقد ازدهرت فيها الكتابة الإنشائية فى عهد ملوك الطوائف ثم تغيرت حالتها بعد ذلك وطرأ عليها فى هـذا العصر ماطرأ على الكتابة الإنشائية فى مصر من المحسنات والزخارف اللفظية ، غير أن الاندلسيين اقتصروا على قليل من المحسنات كالسجع والتورية وغيرهما ، وكان السجع أقصر فقرات وأكثر استعمالا ، حتى فى الكتابة العلمية فقلما تجد كتابا فى التاريخ أو غيره من العلوم إلا وهو مرصوف بالاسجاع التى تقلل من فائدته.. وأما بلاد المغرب فقد كانت الكتابة الفنية فيها ضئيلة الحظ من الرونق والبلاغة ، لا يكاد يبين الكاتب فيما يكتب عن المعنى الذى يريده .

وما يحول منها تقليدا . ومن ثم كان قصد الكاتب متجها إلى الأسلوب والألفاظ والزخرف اللفظى أولا ، ثم إلى ذلك خضوع المعانى لسيطرة اللفظ وهيمنته أخيراً .

٢ — وأما من حيث الأغراض والموضوعات فقد سبق أن قلنا إنها شملت الرسائل الديوانية والاخوانية والأدبية والمقامات والمناظرات كما شملت الأخبار والسير والقصص والاجازات العلمية ، وبذلك تناولت الكتابة أغلب الموضوعات والأغراض التى كانت سائدة من قبل فى العصر العباسى الثانى .

٣ — وأما من حيث الأسلوب والألفاظ فقد شاعت طريقة الفاضل بخصائصها المعروفة من السجع الطويل الكثير الفقرات ، ومن المحسنات كالطباق والجناس ومراعاة النظير والتورية والاستخدام ، وقد بالغ الكتاب فى هذا العصر فى التزام هذه الطريقة فكان الكاتب يتعمد الاتيان بهذه المحسنات مهما كلفه الأمر من شطط ، وكان ذلك يضطره إلى التمهيد لها والاحتيال برصف الألفاظ الزائدة للوصول إليها . وهذا يسلمه إلى التطويل الممل والتجاوز عن المعنى الرائق حرصا على تحصيل مبتغاه وهو الزخرفة اللفظية . وقد اشتد ولع الكتاب بمحاكاة القاضى الفاضل ، ولكنهم عجزوا عن الاجادة كما أجاد ، وتغير حال الكتابة الإنشائية من ناحية أساليبها فأخذت تنزل إلى المستوى النازل التى بلغته فى العصر العثمانى ، وكان أكبر ما بليت به تلك المصطلحات التى كانت من أثر الحياة الفارغة السائدة فى هذا العصر ، تلك المصطلحات التى فرضت فرضا على الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة . فقد بالغ الكتاب فى ألقاب التفخيم ، ونوعوها أنواعا تفوق الحصر ، فجعلوا منها

لكل وال خلاف ماجعلوه لغيره ، ولكل ملك لقبا لا يشاركه فيه ملك ناحية أخرى ، وللعالم غير مايقال للقائد ، ولهذا غير ما للوزير ؛ وجعلوا لأفراد كل طائفة ألقابا مرتبة على حسب درجاتهم ، حتى صارت هذه الألقاب فى تشعبها تحتاج إلى معجم ضخم يرجع إليه كتاب ديوان الإنشاء فيما يوجهونه من خطاب . فإذا وصفوا شخصا بالسامى خاطبوا من فوقه بالعالى ، ومن فوقهما بالكريم ، ومن فوقهم بالشريف ، وألحقوا بألقاب التفخيم ياء النسب مبالغة فى دلالتها ، فقالوا فى القاضى والصدر والرئيس والمفيد والشريف : القاضوى ، والصدرى ، والرئيسى والمفيدى ، والشريفى ، وقيدوا المقر بالشريف والجناب بالكريم والمجلس بالعالى والسامى ، ولا يصفون المجلس بالكريم أو الشريف ، وهكذا أثقلوا الألفاظ وألزموا الناس فيها بما لم يلزمهم فى شرعة الانصاف والأدب الكريم والاعتدال المناسب .. وزاد أسلوب الكتابة تعقيدا وغموضا حرص الكتاب على التورية بمصطلحات العلوم وما يتعلق بها ، كقول محيي الدين بن عبد الظاهر . حرس الله نعمة مولاى ، ولا خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود الخ » .

واشتد حرصهم كذلك على الاقتباس والتضمين كقول الصفدى فى ابن نباتة : « ولو اتصل نبؤه بالمتنبى لاشتغل عن ذكر العذيب وبارقه » ، ويقول فيه ابن حجة الحموى ؛ « ثبت أن الشيخ جمال الدين تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصرا ، وقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحرا ، وتفننه فى الطريقة الفاضلية بمذاهب ماسلكها المتقدمون . وها نحن نستجدى

من خواصها نظما ونثرا ، وكم سأله عالم فى سلوك هذه الطريقة فقال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا(١) » وأهم خصائص هذه الطريقة الحرص على التورية والاقتباس والتضمين .

ديوان الانشاء وأثره :

١ — نشأ ديوان الانشاء فى عهد بنى العباس ، وكان رئيسه يسمى صاحب ديوان الانشاء ، أو صاحب ديوان الرسائل ، وقد تولاه كبار الكتاب فى الدولة العباسية ؛ وقد أنشىء فى مصر ديوان للانشاء فى عصر الدولة الطولونية فى عهد أحمد بن طولون ،وفى ظلال الدولة الفاطمية نما الديوان وازدهر ، واتسعت رسالته ، وزادت مهمته ، وسموا رئيسه كاتب السر الأعظم ، أو كاتب الدست الشريف ، وشرطوا فيمن يتولى رياسته أو العمل فيه شروطا علمية وخلقية وثقافية وأدبية ، فسمت منزلته ، وكان من رؤسائه ابن الصيرفى وابن الخلال أستاذ القاضى الفاضل .. ثم جاء عهد الأيوبيين ، واستمر الديوان يؤدى رسالته ، وازدهر به الأدب واشتهر من رؤسائه القاضى الفاضل الذى أضيفت إليه الوزارة ، كما أضيفت قبلا إلى ابن الزيات وابن العميد والصاحب بن عباد فى عهد الخلافة العباسية ، وكان آخر رؤساء الديوان فى العهد الأيوبى البهاء زهير ، وقد ابتدع البهاء زهير فى الشعر والانشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب ، فهو موجز لا يحب الاطناب ، وهو مقتصر فى زينة الألفاظ . وهو نزاع

(١) ص ٧٩ كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام لابن حجة الحموى .

إلى الوضوح والبساطة ، فلا تشغله كثرة المجاز والكناية عن الايضاح والبيان ، وهو ضد التكلف واللحن والعى والغموض .

٢ — وفى عهد المماليك ازدادت أهمية ديوان الإنشاء وكتابه ، واتسعت آفاقه ، وصار له النفوذ والسلطان فى أكثر فروع الحكومة ، واشتهر من رؤسائه : محيى الدين ابن عبد الظاهر ، وابنه فتح الدين وهو أول من سمى كاتب السر ، وسبب ذلك كما ذكره الصفدى أن الملك الظاهر رفع إليه مرسوم أنكره فطلب محيى الدين بن عبد الظاهر وأنكر عليه ذلك ، فأحال على الأمير سيف الدين وقال له إنه هو الذى أمر بذلك ، فقال الملك إنه ينبغى أن يكون للسلطان كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاها ، وكان الأمير قلاوون حاضرا فى جملة الأمراء ، فوعى هذا ، ولما أصبح سلطانا على مصر اتخذ كاتب سر ، وكان فتح الدين . . ومن رؤساء ديوان الانشاء : محيى الدين بن فضل الله العمرى ، وأخواه : شهاب الدين وشرف الدين ، والشهاب محمود الحلبى ، وسواهم .

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى صفات وأخلاق وآداب وثقافة صاحب الديوان ، وذكر أن من عمله أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه ديوانه من الولايات ، والمنشورات والمكاتبات ، ويضاف إلى ذلك أن يتلقى المكاتبات الواردة ويقرأها على السلطان ويجيب عنها ، وهو الذى ينظر فى البريد ، واختيار من يرسل إلى الخارج فى الشؤون السلطانية ، وهو الذى يختار رجال المخابرات لارسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو ، وتشمل دائرة عمله المناور ، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بلبيس أمكنة عالية يقيم بها مستخدمون من قبل السلطان ، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار

بالقمم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار ، وهكذا حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بقرب بلبيس فى يوم أو بعض يوم ، ومن هناك ترسل رسالة على أجنحة الحمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ فى التأهب » وكذلك من عمل صاحب الديوان فوق هذا أنه ينظر فى الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة ، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته .

ونقل العمرى فى كتابه المسالك عن ابن عبدوس أن « أهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كل عام وخاص ، تحتاج الأمراء إلى مداراتهم ، وتقصر الوزراء عن مباراتهم ، يجتمعون بالسلطان إذا أرادوا ، وهم روح الدولة وعليهم اعتماد كل الناس .

ولما كان عمل هذا الديوان أشرف الأعمال تطلعت إليه النفوس وأصبح غاية كل من يسمى للمجد والعظمة ، يجهد جهده فى التحلى بالخصائص والصفات العالية التى كانت تشترط لهذا المنصب الجليل ، وأهمها أن يكون صاحبه عالما بالشريعة واللغة والأدب بعيد الغاية فى جمال الانشاء وروعة الكتابة ذا دراية تامة بكثير من العلوم العقلية والنقلية .

وكان لديوان الانشاء الأثر الجليل الفذ فى ازدهار الأدب العربى فى الشام ومصر ، وفى إحياء اللغة العربية ونهضتها ، وكان الكتاب والشعراء وخاصة أعلامهم يتسابقون ويتنافسون فى نيل هذا المنصب الجليل ، والوصول إلى تلك الرتبة العالية وخرج الديوان أعلاما من الكتاب والأدباء والشعراء ، واستمر أثره فى النهوض باللغة العربية طيلة عصر المماليك ، فلما انطوت مصر تحت ظلال الحكم العثمانى ، وسادت التركية ، ونال العربية الاهمال وفقدان الرعاية ،

أبطلوا ديوان الانشاء ، فانتهى بذلك عهد ازدهار العربية ونهضتها فى ظلال الحكم المملوكى . .

شواهد من الكتابة فى هذا العصر :

١ — محيى الدين بن عبد الظاهر (٦٢٠ — ٦٩٢ هـ) من أوائل كتاب هذا العصر ، وفى بيان فضله يقول النويرى : « إن كلامه يكاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقته فى البلاغة أسهل طريق ، وفى الفصاحة أوضح محجة ، وهو ممن اتبع طريقة القاضى الفاضل ، وسلك مسلكه ، كتب فى ديوان الإنشاء لبيبرس وقلاوون ، يقول على لسان قلاوون يرد على واليه على اليمن وكان قد عزاه على موت ابنه : « ولنا —والشكر لله— صبر جميل لا نأسف معه على فائت ، ولا نأسى على مفقود ، وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه ، عوض كل يوم مايقول المبشر به هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأغلظ أكبادا ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرت أو جلت ، ولا بالأزمات إن هى توالت أو تولت » .

٢ — شهاب الدين الحلبى (٦٤٤ — ٧١٩ هـ) ، من أعلام الكتاب فى عصره ولى رياسة ديوان الإنشاء للناصر بن قلاوون ، وله كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ومن كتابته فى وصف البلاغة : « تسحر الألباب ، حتى تخيل العرض جوهراً ، وتحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته فى الذوق نهراً .

٣ — ابن فضل الله العمرى (٧٠٠ ـ ٧٤٩) من أنبه أعلام الكتاب ، ولد بدمشق ، وطاف بمصر والحجاز ، وكتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » يشهد بفضله .

ومن نثر ابن فضل الله العمرى ما كتبه فى مقدمة كتابه « المسالك » يقول : « ولم أقل إلا عن الأعيان الثقات ؛ من ذوى التدقيق والنظر والتحقيق فى الرواية » . ويقول فى صدر رسالة ملكية : « صدرت هذه المكاتبة إلى الجانب العالى بسلام جميل الافتتاح وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمة بجناح ؟ » .

وفيه يقول صلاح الدين الصفدى(١) : هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ ؛ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعالى وتوصلا ، وإقداماً على الأسود فى غاباتها ؛ يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظاً ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستمرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ؛ قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهياً ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيد جواهراً يخجل الروض الذى باكره الحيا مزهراً ، صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه

(١) فوات الوفيات ١ : ٩

ورويت توافيعه وهي سجلات لحكه وحكمه(١) .

٤ — السيوطي جلال الدين (٨٤٩ — ٩١١ هـ) يقول من ترجمته لنفسه في كتابه حسن المحاضرة : وشرعت في التصنيف سنة ٨٦٦ هـ ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلثمائة كتاب ، وسافرت بحمد الله إلى بلاد الشام والحجاز ، واليمن ، والهند والمغرب والتكرور ، ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذي أعتقده ، أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي ؛ فضلا عمن دونهم . وأما الفقه فلا أدعي فيه ؛ بل شيخي فيه اوسع نظراً ، وأطول باعا . ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف ، ودونها : الإنشاء ، والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على ، وأبعده من ذهني ، وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به ، فكأنما أحاوله جبلا أحمله(٢) .

٥ — ابن نباتة المصري (٦٨٦ — ٧٦٨ هـ) ، يقول فيه ابن حجة الحموي : مشت ملوك الأدب قاطبة بعد القاضي الفاضل تحت أعلامه ، وكتب إلى الصفدي يرد عليه حين سأله أن يجيزه برواية مصنفاته وآثاره الأدبية ؛

---

(١) راجع أحد فصوله في هذا الكتاب آنفا .

(٢) ١ : ١٤٠ ، ١٤١ حسن المحاضرة ، ومن مؤلفات السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة وبه ٢٣٠٠ ترجمة ؛ المزهر في علوم اللغة وأنواعها وهو جزءان ؛ الأشباه والنظائر ، الاتقان في علوم القرآن ، تاريخ الخلفاء وسواها .

« وأما مصنفاتي التي كالياسمين لا تساوي جمعها ، ولولا الخزائن السلطانية الملكية المؤيدية تجيرها ما استطعت نصبها ورفعها ، فهي : كتاب مجمع الفرائد ، القطر الغباني ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ؛ وأجزت لك أعزك الله روايتها عني ، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك وتممه ، ونسخه وحققه ، وتضمنه سؤالك الذي تصدقت به ، فمنك السؤال ومنك الصدقة ؛ والله تعالى يشكر عهدك الجميل ، وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل ، ويمتع فنون الفضائل الملتجئة إلى ظل قلمك الظليل » .

٦ — القلقشندى (٧٥٦ — ٨٢١ هـ) تولى ديوان الإنشاء لبرقوق ، وهو صاحب صبح الأعشى ، ومن أعلام الكتاب والأدباء في عصره(١) ؛ ومن كتابته : وكانت الديار المصرية ؛ والمملكة اليوسفية ، أعز الله تعالى حماها ؛ وضاعف علاها ؛ قد تعلقت من الثريا بأقراطها ، ورجحت سائر الأقاليم بقيراطها ، بشر بفتحها الصادق الأمين فكانت أعظم بشرى ، وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسباً وصهراً . .

والقلقشندى هو أبو العباس شهاب الدين أحمد ، من سلالة عربية من قيس عيلان من بني فزارة ، ولد عام ٧٥٦ هـ بقلقشندة بالقرب من مدينة قليوب ، تلقى تعليمه بالأسكندرية ، وأجازه عام ٧٧٨ هـ أستاذه سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن المعروف بابن الملقن ، واشتغل بالتدريس ، وكان قوى الحافظة حاد الذكاء ، وعمل عام ٧٩١ هـ في ديوان الإنشاء بمصر ، ومن أشهر تآليفه : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ؛ وله كذلك : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ؛ وضوء الصبح المسفر وهو اختصار لصبح الأعشى ، وسواها .

(١) راجع ماسبق عنه في هذا الكتاب .

الصناعة الفنية فى أسلوب التأليف(١) :

دخل أسلوب الكتابة الفنية ، إلى التآليف الأدبية والعلمية كما فعل ابن عرب شاه فى كتابه « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » ، وكما فعل ابن حجة الحموى فى كتابه « خزانة الأدب » ، والنواجى فى حلبة الكميت ، وسوى ذلك مما تنطق به رسائل الأدباء ، وفتاوى الفقهاء(٢) ، وإجازات العلماء ، وأحكام الفقهاء ؛ فامتلأت كل أولئك بالسجع والجناس وشتى محسنات البديع . ومن أسلوب التأليف ما كتبه المقريزى(٣) من خطبة

(١) تمتاز مؤلفات هذا العصر : بظهور الموسوعات الجامعة ، وبظهور الشروح والحواشى على الكتب العلمية ؛ وبكتابة المؤلفين كتبهم فى عدة صور ، فنسخة مطولة ؛ وأخرى متوسطة ؛ وثالثة صغيرة ، فالقلقشندى يختصر كتابه ، صبح الأعشى ، فى « ضوء الصبح المسفر » ؛ وشمس الدين الذهبى م ٧٤٨ ﻫ اختصر كتابه « تاريخ الإسلام » عدة اختصارات ، ومن مميزات تأليف هذا العصر كذلك : كتابة بعض العلماء ذيلا لكتب غيرهم ، فوفيات الأعيان لابن خلكان به ٤٨٦ ترجمة ؛ وجاء ابن شاكر الكتبى م ٧٦٤ ﻫ فذيله بكتابه « فوات الوفيات » ، وبه ٥٥٠ ترجمة .

(٢) منها كتاب « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » وعددها ألف مسألة فى الحديث والقرآن والفقه واللغة طرحت على السلطان قانصوه الغورى فأجاب عليها كالفتوى ، كل سؤال أمامه جوابه .. وكتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » ألفه بعضهم فى مجالس عقدت فى زمن السلطان قانصوه الغورى ، وللغورى : ديوان شعر ، وكتاب المنقح الظريف .

(٣) هو تقى الدين المقريزى المولود سنة ٧٦٦ ﻫ وكان شاعرا كاتبا مؤرخا وتوفى سنة ٨٤٥ ﻫ .

كتابه : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » : قال : وبعد ، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ؛ لما يحويه من المواعظ والانذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ؛ والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها ، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى . لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة(١) ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة ، وقد صنف الأئمة فيه كثيراً ، وضمن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى(٢) وموطن خاصتى وعامتى ، وجوى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مآربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازالت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ؛ أرغب فى معرفة أخبارها . وأحب الأشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قلما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبة على منوال ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال ، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيرها — أو كاد ـ البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم ، وأذكر ما بمدينة القاهرة من من آثار العصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ؛ وحوته

(١) وامقة : محبة .
(٢) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .

من المبانى البديعة الأوضاع . مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأمائل ، والتنويه بذكرى الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل ، وأنثر خلال ذلك نكتا لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف يخل بالغرض ، ولا اختصار بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين(١) .

(١) راجع الكلام على خصائص التأليف فى هذا العصر فى ص ٥٧ من هذا الكتاب .

٢ — أعلام الشعر فى عصر المماليك

صور من الشعر فى هذا العصر :

١ — من شعراء هذا العصر : سراج الدين الوراق المصرى الكاتب الشاعر (٦١٥ — ٦٩٥) ، وله فى شكر الله :

إلهى لقد جاوزت سبعين حجة … فشكراً لنعماك التى ليس تكفر
وعمرت فى الإسلام فازددت بهجة … ونوراً ، لذا قالوا : السراج المعمر
وعمم نور الشيب رأسى فسرنى … وما ساءنى أن السراج منور

٢ — نصير الدين الحمامى المصرى ، توفى سنة ٧١٤ هـ ، ومن شعره فى داره :

ودار خراب بها قد نزلت … ولكن نزلت إلى السابعة
تساورها هفوات النسيم … فتصغى بلا أذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة … فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت : « إذا زلزلت » … خشيت بأن تقرأ : « الواقعة »

٣ — عمر بن الوردى(١) (٦٨٩ — ٧٤٩ هـ) ، كتب إلى القاضى جمال الدين يوسف معاتبا له على قصد الرحلة :

علام أردت تهجرنى علاما … وتوقظ بالنوى إبلا نياما ؟

---

(١) ٣ : ١٩٥ و ١٩٦ الدرر الكامنة .

فهل لاقيت فى حلب هموماً — فتزمع عن نواحيها اهتماما ؟
وإن تك بالتفرق لا تبالى — فهـذا يمنع العين المناما
وإن ترحل لنيل غنى فسهل — غناك هنا إذا أمسكت عاما
وإن ترحل رجاء لاشتهار — فكم من شهرة توهى العظاما

٤ — ابن نباتة م ٧٦٨ هـ يمدح السلطان الأفضل ويعزيه فى والده المؤيد صاحب حماه :

هناء محا ذاك العزاء المقدما — فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع — شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
سقى الغيث عنا تربة الملك الذى — عهدنا سجاياه أبر وأكرما
ودامت يد النعمى على الملك الذى — تدانت له الدنيا وعز به الحمى
مليكان هذا قد هوى لضريحه — برغمى وهذا للأسرة قد سما

٥ — صفى الدين الحلى م ٧٥٠ هـ يمدح السلطان الناصر بن قلاوون عند قدومه من الحجاز :

ترجى مواهبه ويرهب بطشه — مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سما ملأ القلوب مهابة — وإذا سخا ملأ العيون مواهبا
كالليث يحمى غابه بزئيره — طوراً وينشب فى القنيص مخالبا
كالسيف يبدى للنواظر منظراً — طلقا ويمضى فى الهياج مضاربا
كالبحر يهدى للنفوس نفائسا — منه ويبدى للعيون عجائبا

فإذا نظرت ندى يديه ورأيه   لم تلف إلا صائبا أو صائبا
أبقى قلاوون الفخـــار لولده   إرثا وفازوا بالثناء مكاسبا

٦ — البوصيرى (٦٠٨ — ٦٩٥ هـ) ، من قصيدته الهمزية فى مدح رسول الله ﷺ :

كيف ترقى رقيـك الأنبيـاء   ياسماء ما طاولتهـا سماء
لم يساووك فى علاك وقـــد حا   ل سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا   س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ   ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

٧ — الشاب الظريف :

صدودك هل له أمـــد قريب   ووصلك هل يكون ولا رقيب ؟
قضـاة الحسن ماصنعى بطرف   تمنى مثله الرشأ الربيب ؟
رمى فأصاب قلبى باجتهـاد   صدقتم كل مجتهد مصيب

٨ — صلاح الدين الصفدى من قصيدة له فى مدح النبى ﷺ يعارض بها لامية كعب بن زهير :

سلوا الدموع فإن الصب مشغول   ولا تملوا ففى إملائها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى   هل فى الغرام الذى تبديه تبديل ؟
وهل لمـا ضمت الأحشاء بعـدكم   من الجوى عندما تحويه تحويل
أحبتى لا وعيش مر لى بـكم   وربع لهـوى بالذات مأهول
ما كان لى مذ عرفت الوجد قط ولا   يكون فى غيركم قصد ولا سول

٩ — التلعفرى (٥٩٣ هـ — ٦٧ هـ) :

لو رعيتم للعاشقين ذماما   لبعثتم قبل الخيال المناما
لا وأيام قربكم مانهانى   عنكم عاذل يطيل الملاما
كلما قال دعهم قلت دعنى   لا شفى الله منهم لى سقاما
يانسيم الصبا لعلك تقرا   لى على بانة الكثيب السلاما
حبذا أنت من رسول كريم   لمشوق أبى الهوى أن يناما

١٠ — ابن الوردى :

رب عين تتمنى رؤيتى   وذكى بحياتى يحلف
أنا فى حلق حسودى غصة   وبه منى أذى لا يوصف
أسفى والله من قولى أنا   كلمة ، ذو العقل منها يأنف
لكن الحاسد قد كلفنى   ذكر شىء تركه لى شرف

١١ — سراج الدين الوراق (٦١٥ — ٦٩٥ هـ) :

شمت برقا من ثغرها الوضاح   والدجى سيره مهيض الجناح
فتمارى شكى به ويقينى   هل تجلى الصباح قبل الصباح
فأجابت متى تبسم صبح   عن حباب أو لؤلؤ أو أقاح
سل رحيقى المسكوب تسأل خبيراً   باغتباق من خمرة واصطباح

١٢ — القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى من شعراء القرن الثامن الهجرى :

أمبانى الأهرام كم من واعظ   صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده   أين الذى الهرمان من بنيانه
هل عابد قد خصها بعبادة   فكأنما الأهرام من أوثانه ؟
أو قائل يقضى برجعة نفسه   من بعد فرقتها إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه   قبراً ليأمن من أذى طوفانه ؟
أو أنهم للسائرات مراصد   يختار راصدها أعز مكانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها   علما يحار الفكر فى تبيانه ؟
لو أن كسرى جالس فى صفحها   الأحل مجلسه على إيوانه
بقيت على حر الزمان وبرده   مددا ولم تأسف على حدثانه

١٣ — بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى م ٦٨٠ هـ ، من قصيدة له فى الصبابة والتحزن :

قامت تطارحنى الغرام جهالة   من دون صحبى بالحمى ورفاق
أنى تبارى جوى وصبابة   وكآبة وأسى وفيض مآق
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى   وهى التى تملى من الأوراق
وتتوجت هام الغصون ، وضرجت   خد الرياض شقائق النعمان

١٤ — ابن دقيق العيد م ٧٠٢ هـ من شعره فى الشكوى :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة   وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى   وإن لم أبح بالصبر خفت مماتى
وأعظم به من نازل بملمة   يزيل حيائى أو يزيل حياتى

١٥ — مجير الدين بن تميم م ٦٨٠ هـ يصف روضا :

بعث النسيم رسالة بقدومه للروض فهو بقربه فرحان
ولطيف ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان

صور من سرقات الشعراء :

١ — قال الوداعى (٦٤٠ — ٧١٦) :

عذب مقبله وحلو لحظه أو ماتراه بالنعاس معسلا

أخذه ابن نباتة وقال :

معسل بنعاس من لواحظه أما تراها إلى كل القلوب حلت

٢ — وقال الوداعى :

والنهر كالمبرد يجلى الصدا ببرده عن قلب ظمآنه

أخذه ابن نباتة فقال :

والنهر فيه كمبرد فلأجل ذا يجلو الصدا

٣ — وقال علاء الدين الوداعى :

بخلت على بدر مبسما فغدت مطوقة بما بخلت

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم فغدت مطوقة بما بخلت به

٤ — الصفدى فى سجادة :

ايا حسنها من سجادة سندسية ... يرى للتقى والزهد فيها توسم
إذا مارآها الناسكون ذوو الحجا ... أمامهمو صلو عليها وسلموا

أخذ هذا المعنى الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

إن سجادتى الحقيرة قدرا ... لم يفتها فى بابك التعظيم
شرفت إذ سعت إليك فأمست ... وعليها الصلاة والتسليم

وتبعهما زين الدين بن الوردى فقال :

سجـــــادتى أذكرتـنى ... منك الذى كنت اعلم
أهـــــديتها لمحب ... صـلى عليهـــا وســـلم

٥ — الشاب الظريف :

إنى لا شكو فى الهوى ... مـا راح يفعل خـــــده
ما كان يدرى ما الجفـا ... لـكن تفتح ورده

أخذه صلاح الدين الصفدى فقال ولـكنه زاده نـكتة أخرى :

أقول له ما كان خدك هكذا ... ولاالصدغ حتى زال فى الشفق الدجا
فمن أين هذا الحسن والظرف قال لى ... تفتح وردى والعذار تخرجا ؟

وكان جمال الدين إذا استخرج المعنى الذى لم يسبق إليه وأسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن يأخذه صلاح الدين الصفدى بلفظه فلم يصبر جمال الدين ابن نباتة على ذلك وصنف كتاباً سماه «خبز الشعير» ، فمن ذلك قول جمال الدين بن نباتة :

يامشتكى الهم دعه وانتظار فرجا ودار وقتك من حين إلى حين
فلا تعاند إذا أصبحت فى كدر فإنما أنت من ماء ومن طين

فأخذه صلاح الدين الصفدى وقال :

دع الاخوان إن لم تلق منهم صفاء واستعن واستغن بالله
أليس المرء من ماء وطين وأى صفاء لهاتيك الجبله ؟

وقال جمال الدين :

لك يا أزرق اللواحظ مرأى يأمر الصب بالغرام وينهى
يا لها من سوالف وخدود ليس تحت الزرقاء أحسن منها

وقال جمال الدين :

قد رمانى مهفهف القد رام أسهم اللحظ ما أشد وأرشق
كلما قلت يفتح الله بالوصـ ل رمانى من سحر عينيه يغلق

أخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

سهام طرفك أصمت قلبى ولم تترفق
ما يفتح الجفن إلا وذهن قلبى يغلق

شعراء آخرون:

١ — نبغ فى هذا العصر فى مصر والشام شعراء كثيرون من أشهرهم : علاء الدين الوداعى (٦٤٠ – ٧١٦ هـ) ؛ السراج الوراق(١) (٦١٥ –٦٩٥هـ) ،

(١) قال صاحب « فوات الوفيات » : إن ديوان شعره فى سبعة أجزاء =

أبو الحسين الجزار (٦٠١ — ٦٧٢ هـ) ، نصير الدين الحمامي م ٧١٤ هـ ، ناصر الدين ابن النقيب م ٦٨٧ هـ ، شمس الدين بن دانيال(١) م ٧١٠ هـ ، مجير الدين بن تميم م ٦٨١ هـ ، بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي م ٦٨٠ هـ ؛ شمس الدين بن العفيف (٦٦٢ — ٦٨٧ هـ) ، شهاب الدين بن التلعفرى (٥٩٣ — ٦٧٥ هـ) وتوفى بحماة ؛ الشاب الظريف (٦٦١ — ٦٨٨ هـ) ، وعفيف الدين التلمسانى توفى فى دمشق عام ٦٩٠ ، محمد بن سعيد البوصيرى (٦٠٨ — ٦٩٥ هـ) ، شهاب الدين العزازى م ٧١٠ هـ وقد أجاد فى الموشحات خاصة(٢) ، ابن نباتة المصرى (٦٨٦ — ٧٦٨ هـ)(٣) ، ابن أبى حجلة م ٧٧٦ هـ ، شمس الدين الهوارى الأندلسى الضرير م ٨٧٠ هـ ، برهان الدين القيراطى توفى فى مكة عام ٧٨١ هـ ، الوزير ابن مكانس وتوفى عام ٨٩٤ هـ ، ابن حجة الحموى(٤) (٧٧٦ — ٨٣٧ هـ) شهاب الدين الحجازى توفى عام ٨٧٤ هـ ، ابن سودون (٨١٠ — ٨٣٧ هـ) وتوفى بدمشق ، تاج الدين بن عربشاه توفى عام ٩١٠ هـ — وزعيم هؤلاء الشعراء جميعا هو ابن نباتة .

٢ — وظهر كذلك شعراء كثيرون فى الجزيرة الفراتية وغيرها ،

= كبار ضخمة ، وهذا الذى اختاره لنفسه وأثبته ، وقد اختار مختارات من ديوانه الصلاح الصفدى وسماها « لمع السراج » - ٢ : ٧٠٧ فوات .

(١) راجع ٢ : ١٩٠ فوات ، وله كتاب « خيال الظل » .

(٢) ٢ : ١٨ فوات والجزء الثالث من الدرر الكامنة .

(٣) راجع الجزء الثالث من الدرر الكامنة .

(٤) له كتاب (قهوة الإنشاء) وهو مجموع مكاتبات ورسائل مختارة ، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية .

ومن أشهرهم : صفى الدين الحلى (٦٧٧ — ٧٥٠ هـ) وتوفى فى بغداد ، والأمير خليل الأيوبى م ٨٤٦ هـ ، وعلاء الدين الماردينى م نحو عام ٨٥٠ هـ ، فضل الله بن الحميد الزوزنى الأصل الصينى المولد توفى نحو عام ٧٦٠ هـ ، وسواهم . . وأشهرهم هو صفى الدين الحلى ، وقد ولد فى مدينة الحلة .

٣ — هذا عدا العلماء الذين نظموا القصائد العديدة ، ولم يعدوا من الشعراء المشهورين فى هذا العصر ، من أمثال السيوطى وله فى كتابه « حسن المحاضرة » مرثيتان أحدهما فى شيخه الشمنى م ٨٧٢ هـ(١) ، والثانية فى شيخه شمس الدين الحنفى م ٨٨١ هـ(٢) ، وكابن حجر وله قصيدة طويلة فى مدح المستعين ، الخليفة العباسى(٣) وسواهما .

(١) ١ : ٢٠٢ حسن المحاضرة .
(٢)٨ : ٢٠١ المرجع نفسه .
(٣) ٢ : ٦١ المرجع .

الخمسمائة(١) ، ويقول الداودى(٢) تلميذ السيوطى والمتوفى عام ٩٤٥ هـ ، وهو شافعى مصرى علامة محدث ، يقول فى انبهار بعظمة شيخه : كان السيوطى فى سرعة الكتابة — أى التأليف — آية كبرى من آيات الله(٣) .

كان جلال الدين السيوطى أرفع علماء عصره همة ، وأعظمهم نشاطا وأكثرهم تأليفا ، وأغزرهم مادة .

(١) ٦٠ المؤرخون — د محمد مصطفى زيادة .

(٢) ألف ذيلا على « طبقات الشافعية » للسبكى ، وكتب ترجمة شيخه السيوطى فى مجلد ضخم ، وله ذيل على كتاب شيخه « طبقات المفسرين » وذيل آخر على كتاب أستاذه « لب الألباب فى الأنساب » كذلك .

(٣) تدريب الراوى صفحة (ح) .

صور موجزة لبعض الشعراء

الشاب الظريف :

هو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات سنة ٦٨٨ هـ ، ويشتهر شعره بالرقة وحسن الانسجام كقوله :

بحق هذى الأعين الساحرة ... وحسن هذى الوجنة الزاهرة
خف فى الهوى إثمى يا قاتلى ... فاليوم دنيا وغــــداً آخره
قلبى مصر لك ما باله ... قد ذاب من أخلاقك القاهرة(١)

التلعفرى :

هو شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفرى ، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وتوفى سنة ٦٧٥ ، ومن شعره :

وإذا الثنية أشرقت وسممت من ... أرجائها أرجا كنشر عبير(٢)
سل هضبها المنصوب أين حديثه المر ... فـوع عن ذيل الصبا المجرور

البوصيرى :

محمد بن سعيد الصنهاجى الشهير بالبوصيرى ، توفى سنة ٦٩٥ واشتهر

(١) يعنى أن قلبى مقر لك فلماذا يذوب من أخلاقك الشديدة القاهرة وفى الاتيان بكلمة القاهرة بعد كلمة مصر مافيه من جمال .
(٢) الثنية الجبل ،وأشرقت بمعنى ظهرت . والارجاء جمع رجا وهو الناحية ، والأرج ريح الطيب ، والنشر الرائحة الطيبة ، والعبير الخليط من أنواع الطيب

بمدائحه النبويه ، وهى البردة والهمزية ، وهما من جيد شعره ورصينه ، أما بقية شعره فمتوسط ، وأول الهمزية :

كيف ترقى رقيك الأنبياء　　ياسماء ما طاولتهـا سماء

لم يدانوك فى علاك وقد حا　　ل سنا منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للنا　　س كما مثل النجوم الماء

أنت مصباح كل ضوء فما　　تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

وهو من « بوصير » إحدى بلاد مديرية بنى سويف ـ نشأ بمصر وتقلد عملا حكوميا فكان مباشرا بمديرية الشرقية . وقد تفوق فى المدائح النبوية حيث اتجه بشاعريته نحو مقام الرسول الأسمى يمدحه بوجدان صادق وشعور مرهف فأجاد فى مدحة إلى حد لم يسبق له مثيل . ومطلع البردة :

أمن تذكر جيران بذى سلم　　مزجت دمعا جرى من مقلة بدم .

ابن الوردى :

وهو زين الدين عمر بن الوردى ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ كان شاعرا أديبا ونحويا فقيها مؤرخا ، وكان عفيفا لا يستجدى بشعره وهو من شعراء الشام المجتهدين وأكثر شعره متوسط الجودة . زاخر بالمحسنات البديعية . وله القصيدة اللامية المشهورة فى الحكم أولها :

اعتزل ذكر الأغانى والغزل　　وقل الفصل وجانب من هزل

وله مراسلات مع شعراء مصر أحسن فيها كل الإحسان ، وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ .

صلاح الدين الصفدى :

شارح لامية ابن الوردى ـ كان شاعرا مؤرخا ، تلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر ـ وتولى ديوان الإنشاء بالقاهرة وحلب ، وكان يغير على شعر ابن نباتة ، وقد جمع ابن نباتة ما أخذه الصفدى عن معانيه فى كتاب سماه «خبز الشعير» وللصفدى مراسلات بديعة بشعر رائق مع ابن فضل الله العمرى ، وتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

ابن مكانس :

هو الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن مكانس ناظر الدولة بمصر وهو من فحول الشعراء وله ديوان يجمع أشعاره وجمهرة من كتابته الإنشائية جمعها ابنه مجد الدين ، وتوفى سنة ٧٩٤ هـ .

صفى الدين الحلى :

صفى الدين الحلى وشعره متفاوت فى الجودة ، فهو مرة يسمو إلى ما فوق أفق عصره ، ومرة ينزل ويضعف ، ولد سنة ٦٧٧ وتوفى سنة ٧٥٠ ، وكان شاعر الدولة الارتقية فى « ماردين » ورحل إلى القاهرة زمن السلطان الناصر سنة ٧٢٦ ومدحه بقصيدة تعد من جيد شعره ، منها :

ترجى مواهبه ويرهب بطشه   مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة   وإذا سخا ملأ الزمان مواهبا

كالغيث يبعث من عطاه وابلا   سبطاً ويرسل من سطاه حاصبا(١)

وقد عارض بها بائية المتنبى التى عطلها : بأبى الشموس الجانحات غوارباً

٢ — جمال الدين بن نباتة المصرى .

وهو حامل لواء الشعر فى عصره ، تظهر فى شعره المصرية الصادقة من حيث الرقة والسهولة وحسن إيراد النكتة المستجادة ، ولد بمصر سنة ٦٨٦ وتوفى بها سنة ٧٦٨ هـ .

(١) العطا ويمد : النوال والعطية ، والوابل المطر الكثيف ، ويقال فلان سبط اليدين أى سخى ، والسطا جمع سطوة ، والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصى .

وصف الشعر فى عصر المماليك

بيئة الشعر فى هذا العصر :

١ — بعد سقوط بغداد صار أكثر حكام العالم الإسلامى من الأعاجم ، الذين لا يهتزون للشعر ، ولا يميزون جيده من رديئه ؛ ولا يقدرون الشعراء ، أو يشجعونهم بجزيل العطاء .

لذلك ذهب مجد الشعر ؛ وانقرض أو كاد فى بعض الأقطار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى ؛ وناله الضعف فى بعضها الآخر ؛ وقد بقى الشعر على شىء من الرونق فى الشام ومصر والأندلس والمغرب ، وذلك لأن الطابع العربى سائد فى هذه البلاد ، والصبغة العربية منتشرة ، مع وجود بعض الذين يقدرون الشعر من الأمراء والحكام فى تلك الأقطار ، ومنهم المؤيد صاحب حماة ، الذى اصطفى ابن نباتة وقربه ؛ وكان من الأمراء من يقول الشعر كآل قلاوون ، والسلطان حسن والمؤيد شيخ الذى كان ينظم الشعر ويلحنه ، وللسلطان قانصوه الغورى ديوان(١) . ويضاف إلى ذلك عامل آخر له خطره فى حياة الشعر فى هذه البلاد ، وهو التنافس بين شعراء مصر والشام ، مما أدى إلى انتعاش الشعر ويقظته .

٢ — ومع ذلك فقد تغلبت عوامل الضعف على الشعر فى هذا العصر ،

---

(١) ٢ : ١٢٧ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها ؛ فقدان التشجيع الأدبي والمادى ، الذى كنا نراه ونسمع به من قبل ، وعجمة الحكام ، وعدم اهتزازهم للشعر وأريحيتهم له ، وذيوع التقليد الفنى بين الشعراء ، وكان لضعف الملكة الشعرية والخيال وانعدام الابتكار والتوليد أثر كبير فى ذلك .

وكان لجهل أكثر السلاطين بفنون الأدب وعدم تذوقهم للشعر ؛ وقلة تشجيعهم عليه ، أثر فى انعدام الرغبة فيه ، وقلة الإقبال عليه ، وترك الشعراء الشعر لا يتكسبون به ، واحترفوا حرفا كثيرة ، حتى وجدنا منهم الجزار والوراق وسوى ذلك ، وانقلب كثيرون من الشعراء كتابا فى دواوين الإنشاء ، وأصاب الشعر ما أصابه من الذبول والغوم العميق ، وهكذا كان من أسباب ضعف الشعر :

١ — عدم تشجيع أكثر سلاطين المماليك للشعراء ، لأنهم أتراك لا يتذوقون الشعر ولا يقدرون رجاله .

٢ — انصراف الشعراء عن قول الشعر واشتغالهم بأعمال أخـــرى يرتزقون منها فكان منهم البزار والكحال والدهان والحمامى إلى غير ذلك .

٣ — تقليد الشعراء للكتاب الذين ساروا على طريقة القاضى الفاضل ، وإكثارهم من المحسنات فى شعرهم ، لأنهم وجدوا فيها عونا لهم على أن يداروا ضعفهم .

٤ — كان هذا العصر فى جملته عصر محنة واضطراب ، ولذا قلت أسباب اللهو وفراغ البال التى تدفع أحيانا بلابل الشعر إلى التغريد .

٥ — ظهور الزجل الذى زاحم الشعر الفصيح لقربه إلى أفهام الناس .

ومع ضعف الشعر فى هـــذا العصر فبغ بعض الشعراء ، وأجادوا للأسباب الآتية :

١ — ميلهم الفطرى للشعر ورغبتهم فى نظمه حباً فيه لا طمعاً فى المكافأة عليه .

٢ — توافر ظروف خاصة لهم ، ساعدتهم على الاجادة ، كالبيئة أو الوراثة ، أو الانتقال والارتحال .

٣ — التنافس بين شعراء مصر والشام فى إجادة شعرهم ، فلم يكن شاعر فى أحد القطرين ينظم قصيدة طريفة ، حتى يتناولها شعراء القطر الآخر بالنقد والمعارضة .

هذا وقد كان التنافس بين شعراء مصر وشعراء الشام كبيراً ؛ وكان هذا التنافس من أسباب تجويد الشعر ونهضته ، فلم يكن شاعر كبير فى مصر ينظم قصيدة فى غرض من الأغراض إلا ويبادر شعراء الشام فيتناولونها بالمعارضة أو الاحتذاء أو التهكم ؛ ومثل ذلك كان يفعل شعراء مصر ، حين يسمعون بقصيدة شامية . . ويروى أن ابن نباتة كان إذا ما اخترع معنى أخذه الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل فألف ابن نباتة رسالة جمع فيها ماقاله فأخذه منه الصلاح وسماها « خبز الشعير » .

وكان الشعر فى الشام يغلب عليه شيوع الوصف ، وخاصة أوصاف الطبيعة ، لجمال البيئة واعتدال الجو وحسن مناظر الطبيعة هناك ، وكان الشعر المصرى يغلب عليه الرقة والفكاهة وتناول الأحداث السياسية الكبرى .

حرمان وشكوى :

وقد أصاب الشعراء ما أصابه فى هذا العصر من الحرمان والفقر ، وسوء

الحال ، فكثرت شكواهم ، وصوروا فى شعرهم ما كانوا فيه من آلام ومسغبة ، فهذا شاعر يقول :

زهر الوعود ذوى من طول مطلكمو ... لأنه من نداكم غير ممطـــور

وهذا البوصيرى يقول فى ضعف وابتذال وعامية ، يصف حاله وحال أولاده وقد أقبل العيد :

وأقبل العيد ولا عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهمو إن أبصروا كعكة ... فى يد طفل أو رأوا تمرة
تشخص أبصارهم نحـــوها ... بشهقـــة تتبعها زفرة
فكم أقاسى منهم لوعة ... وكم أقاسى منهم حســـرة

وهذا ابن نباتة يقول :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا ... وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا ... منى لثروة لفظ وافتقار يد

ويقول :

فكفى من وضوح حالى أنى ... فى زمانى هـــذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضلى ... ضيعة السيف فى يد شلاء

ويقول أيضا :

أسفى على الشعراء إنهم على ... حال تثير شماتة الأعـــداء

ولا عجب ، فقد جف النبع ، وكثر المطل ، وعم البخل ؛ وغاض المعين ، وقاسى الشعراء فى هذا العصر المحن والآلام .

الفن والتقليد :

وعندما نقرأ شعر هذا العصر نجد فى الكثير منه ضعفا وابتذالا وسوقية وعامية وركاكة وعيا ، ونجد القليل الأقل منه يسلم من ذلك ، وتسرى فيه روح العربية الأصيلة وموهبتها .

إلا أن الشعراء قد غلب عليهم التقليد ، وصار الشعر لا ينبع من عميق إحساسهم ، ولا من دفين تجاربهم الشعرية ، ولا هو يعبر عن حياتهم وشخصياتهم ، ولا عما تجيش به نفوسهم ، وتمتلىء به قلوبهم ، من ألم وأمل ، وحزن وفرح ، وهموم ومسرات .. إنما هو صور بغيضة لعاطفة سقيمة ، وتجربة عقيمة ، وفكرة جائرة ، ومعنى مبتذل ، والفن عدو التقليد ، بل هو يعد فنا حتى يتحرر من إسار التقليد وقيوده ، ويعبر بنفسه عن نفسه فى طلاقة وحياة وقوة .

وزاد من خطر التقليد على الشعر فى هذا العصر حرصهم على مذهب الوشى والتصنيع والتحسين حرصا شديدا ، حتى أثقلوا الشعر بالحلى ، وقيدوه بالبديع والمحسنات ، وغالوا فى ذلك غلوا شديداً ، انظر إلى شاعر من شعرائهم وهو يقول :

إذا سألونى عن هوى قد كتمته   ظللت أراعى واشيا ورقيبا
وجاوب عنى سائل من مدامعى   فلله دمعى سائلا ومجيبا

فلا تجد فيما يقول روح الشعر وفكرته وشخصيته ، إنما تجد الصناعة وقيودها الثقيلة المرهقة ، فهذا الطباق بين « سألوا » وجاوب ، وبين سائل

وعجيب ، وهذه التورية المتكلفة فى « سائل » إذ تحتمل معنى قريبا متبادرا هو السؤال ومعنى بعيدا مقصودا هو السيولة ، وقدجاءت متكلفة ممقوتة ، لا حياة فيها ولا روح ولا معنى .

خصائص الشعر :

وقد تميز الشعر بميزات كثيرة فى هذا العصر ، فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه وأخيلته وأغراضه .

(ا) فأما من جانب المعنى ، فهى غالبا معان قديمة مطروقة ، فهذا شاعر يقول فى عامية وضعف وتذلل إلى محبوبه :

ياغاية منيتى ويامخلوق من بعدك لم أمل إلى مخلوق

وهذا شاعر يقول فى بلده « حماة » ونهرها « العاصى » :

حماة فى بهجتهـــا جنة وهى من الغم لنا جنـــة
لا تيأســـوا من رحمة الله قد أبصرتم العاصى فى الجنة

والتورية فى « العاصى » ظاهرة ، فهى إما نهر العاصى وإما من العصيان . والتصنيع فى البيتين ظاهر ، والتكلف باد عليهما ، ولا شىء فيهما سوى الوشى والتزيين .

وانظر إلى الوداعى يقول :

من آخـــذ من خده بدم الشهيــد المغرم
فالريح ريح المســك مـ نه ولونه لون الدم

فالمعنى قديم : المحب صار شهيداً ، والمحبوب أصبح قاتلا ، ودم الشهيد المسفوك تجمع فى خد هذا المحبوب المرموق ، فلونه لون الدم ، وإن كان ريحه ريح المسك ، والشاعر يطلب من يتجده فيأخذ له بثأره .. ومع كل هذا التصرف فى المعنى ليصير فى صورة الجديد ، تحس روح التقليد والأخذ والقصور ، أنظر إلى الحصرى م ٤٨٨ هـ وهو يقول :

يا من جحدت عيناه دمى　　وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى　　فعلام جفونك تجحده
إنى لأعيذك من قتلى　　وأظنك لا تتعمده

معنى واحد متصل محكم دقيق عميق ، صوره الحصرى فى أروع صورة ، وأروع خيال فى أبياته الثلاثة ، فأتى به شاعرنا الوداعى فى قصور وتقصير شديدين ، وهذا شوقى يقول متابعاً للحصرى :

جحدت عيناك زكى دمى　　أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى إذ رمتا　　فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه　　فأبى واستكبر أصيده

هذا وتمتاز معانى الشعر فى هذا العصر أيضاً بالوضوح وقلة العمق .

ب — وأما من حيث الخيال فهو خيال ضعيف سقيم ، فهذا شاعر يقول :

سألوا عن عاشق فى قمر باد سناه
أسقمته مقلتاه قلت لا بل شفتاه

عبر بقى عن اللام فى قوله قمر ، والصواب « لقمر » ، وخيال الشاعر لم يستطع أن يربط بين البيتين ، ولا أن يوضح لنا : كيف أسقمته شفتاه ؛ ولا أن يوضح المعنى ويجلوه ، ولا أن يفتن فى التصوير والتخيل .

وهذا شاعر آخر يقول :

كستنى ضنى جسمى سهام جفونه * فبرد سقامى فى هواه مسهم

فتجد خيالا مضطربا أشبه بأخيلة المخبولين ، لا يكسب الشعر رونقا ، ولا يجعل المعنى مونقا ، ولا الأسلوب شيقا .

عبر بقى عن اللام فى قوله قمر ، والصواب « لقمر » ، وخيال الشاعر لم يستطع أن يربط بين البيتين ، ولا أن يوضح لنا : كيف أسقمته شفتاه ، ولا أن يوضح المعنى ويجلوه ، ولا أن يفتن فى التصوير والتخيل .

وهذا شاعر آخر يقول :

كستنى ضنى جسمى سهام جفونه * فبرد سقامى فى هواه مسهم

فتجد خيالا مضطربا أشبه بأخيلة المخبولين ، لا يكسب الشعر رونقا ، ولا يجعل المعنى مونقا ، ولا الأسلوب شيقا .

وانظر إلى الشاعر الأحمق ، وخياله المصنوع المثير للضحك :

أفديه لدن القوام منعطفا يسل من مقلتيه سيفين

أما من حيث ألفاظ الشعر ، فقد غلبت عليها العامية والابتذال والسوقية والركاكة ، فهذا ابن الوردى يقول :

قلت وقد عانقته عندى من الصبح قلق

قال وهل يحسدنا قلت نعم قال انفلق

ولفظ « انفلق » عامى مبتذل ، وهذا البوصيرى يقول :

إليك أشكو حالنا إننا عائلة فى غاية الكثرة

أحدث المولى حديثاً جرى لى معهم بالخيط والإبرة

وهى تعبيرات عامية مرذولة ، ويقول شاعر آخر :

كلى فى الأيام سحر ولكن * أنا والسحر باطل بطال

ولفظة بطال عامية سوقية، وتكثر فى ألفاظ الشعر الألفاظ الاصطلاحية، كقول الشاعر :

نوالهف قلبى على عيش ظفرت به * قطعت مجموعة المختار مختصراً

وقول آخر :

إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً * أتت بالهوى الممدود من كل جانب

د — وأما من حيث أسلوب الشعر ، فنستطيع أن نقول عنه إنه امتاز بميزات ظاهرة عديدة منها :

١ — لأن أسلوب الشعر كان ليناً واضحاً باعداً بين أصالته العربية وجزالته القوية ، وكأنما ضعفت قراءاتهم وقل محفوظهم من جزالة المتنبى وحكمته ، وقوة أبى تمام وعروبته ، انظر إلى ابن الوردى يصف ناعورة فيقول :

ناعـورة مذعـورة ولهانة وحائرة

السماء فوق كتفهـا وهى عليه دائرة

فتجد أسلوباً ليناً ضعيفاً لا قوة فيه ، ولا جزالة تمشى فى نواحيه ..
وانظر إلى قول الشاعر :

يا أهل بيت النبى بعدكم والله ما ذقت لذة الوسن
وكيف يلتذ بالمنـام فتى فارق وجه الحسين والحسن

فتلحظ لين الأسلوب حتى فى مقام المدح الذى يستدعى الجزالة ، وكان للبهاء زهير أثر فى تسهيل الشعر وتطويع أسلوبه للغة المخاطبة . ولكنه لم ينزل إلى هذا المستوى من اللين والضعف ، لقوة ملكته ، وسلامة طبعه وسعة ثقافته ، وأخذ الشعراء بعده يقلدونه جامحين إلى اللين والسهولة حتى وصلوا بأساليبهم إلى مستوى العامية وأساليب الجماهير ، ومن ثم أخذ أسلوب الشعر فيه الأساليب العامية كقول الشاعر :

قلت علام اقتلوا هكذا * قال على عينك ياتاجر

وقول شاعر آخر يخاطب وجلا طلق زوجته دنيا » :

ظلمت دنياك وطلقتها فأصبحت لا دنيـا ولا آخرة

ومع ذلك فقد كان أئمة الشعر فى هذا العصر يقولون الشعر فى بعض الأحايين قويا جزلا رائعاً فى بلاغته ، فهذا ابن حجة الحموى يقول :

يا غائبين تعللنـا لغيتهم بطيب عيش فلا والله لم يطب
ذكرت والكأس فى كفى لياليكم فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

٢ — الإكثار من ألوان البديع ومحسناته من تورية وجناس وطباق ومقابلة وتضمين واقتباس واستخدام ومراعاة نظير وسواها ، فمن مراعاة النظير قول الشاعر :

أذن القمرى فيهـــا عند شهوبم النجوم
فانثنى الغصن يصلى بتحيات النسيم

ومن التورية قول الشاعر :

قالوا فلان قد جفت أفكاره نظم القريض فلا يكاد يجيبه
هيهات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحبيبه

فالوليد والحبيب المعنى القريب الظاهر منهما الابن والمحبوب وهو غير مراد ، والمعنى البعيد البحترى وأبو تمام وهو المراد . وللصلاح الصفدى كتاب (فيض الانجام عن التورية والاستخدام) ، ولابن حجة الحموى كتاب (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) ، ويقول فيه :

وهذا النوع أعنى التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء ، وأعيان الكتاب ولنرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من كل باب ، فإن التورية من أغلى فنون الأدب ، وأعلاها مرتبة ، وسحرها ينفث فى القلوب ، ويفتح بهـا أبواب عطف ومحبة . . . ثم يقول فى مقـام آخر بعد أن يوازن بين أمثلة من التورية وقعت للسابقين وأخرى لأهل زمانه : قلت ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين

سموا إلى أفق التورية ، وأطلعوا شموسها ، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كووسها . وقيل إن القاضى الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه و (نثره) . ويقول صلاح الدين الصفدى فى كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام) ومن البديع ما هو نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون بلوغ غايته عن مرامى المرام .

نوع يشق على الغبى وجوده — من أى باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته قارع ، ولا يقرع بابه إلا من تنحو البلاغة نحوه فى الخطاب ، وتجرى ريحها بأمره رخاء حيث أصاب .

ومن الاقتباس قول ابن عفيف التلمسانى .

يا عاشقين حاذروا مبتسما عن ثغره
فطرفه الساحر مذ شككتم فى أمره
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره

ومن التضمين قول الجزار فى وصف أسماله البالية :

قفا نبك من ذكرى قميص وسروال — ودراعة لى قد عفا رسمها البالى
وما أنا من يبكى لأسماء إن نأت — ولكننى أبكى على فقد أسمالى

ومن الاستخدام قول ابن حجة :

واستخدموا العين منى فهى جارية — وكم سمحت بها أيام هجرهم

٣ — كثرة ميلهم إلى المقطوعات القصيرة فى شعرهم إذ كانوا يرونهما أكثر تصويراً لما فى نفوسهم من إبراز معنى لطيف ، أو نكتة بديعة . أو محسن جميل، أو تورية رائعة ، وكانوا كثيراً ما يتراسلون بالشعر، والمقطوعات الصغيرة فى هذا الباب أسهل وألطف لأنها تعبر عما فى نفوسهم ، وتصف ما فى قلوبهم ، وتتناول شتى أغراضهم ، وكان ابن نباتة ينظم كثيراً من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات . .

٤ — ظهور الفكاهة وشيوعها فى الشعر المصرى ، وقد كان السباق فى ذلك هو البهاء زهير، وانظر إلى قول أبى الحسين الجزار يصف داره المهدمة:

ودار خراب بها قد نزلت ... ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق مابين أنى أكون ... بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم ... فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت ... خشيت بأن تقرأ الواقعة

ويقول ابن نباتة يشكو سوء حاله فى خفة روح وطلاقة تعبير :

لقد أصبحت فى حال ... يرق لمثلها الحجر
مشيب وافتقار يد ... فلا عين ولا أثر

جملة المؤثرات فى الشعر فى هذا العصر :(١)

تأثر الشعر فى عصر المماليك كما أسلفنا بمؤثرات كثيرة ، بعضها يضعفه ، والأخرى تنهض به .

فمن العوامل التى أضعفت الشعر :

١ — عدم تشجيع أكثر الملوك والحكام للشعر والشعراء ، فلم تعد بيوتهم مفتوحة للشعراء ومجالس الشعر ، ولم تعد أيديهم سخية بالعطاء .

٢ — ضعف ملكات الأدب عند الحاكمين ، فلم يهتزوا لسماع الشعر ، ولم يطربوا لإنشاده .

٣ — روح التقليد التى سرت بين الشعراء فأضعفت الشعر ، وأذاعت الصناعة اللفظية فيه ، وجعلته ألفاظاً بلا معنى ، وجسماً لا حياة فيه .

أما المؤثرات التى كانت تعمل على استمرار نهضة الشعر وازدهاره فمنها :

١ — التنافس بين شعراء مصر والشام ، وكثرة معارضة بعضهم لبعض، ولم يكن يظهر لشاعر فى أحد القطرين قصيدة تثير الاهتمام والتقدير إلا عارضها شعراء القطر الآخر ، أو تناولوها بالنقد أو اقتبسوا من معانيها : وكذلك كانت الصلات الأدبية قوية بين شعراء الإقليمين ، وكثيراً ما وجدت مراسلات ومداعبات بينهم .

٢ — جمال الطبيعة فى مصر والشام ، فمن مزروعات ونخيل وحدائق ومنتزهات فى مصر ؛ وجبال شاهقة تكسوها الثلوج البيضاء شتاء فى الشام . إلى الجو المعتدل والنسيم العليل فى الإقليمين .

---

(١) راجع ص ٨٤ : ٨٥ من هذا الكتاب .

٣ — الفقر والحرمان الذى عاش فيه الشعراء ، والحرمان يخلق التنوع والعبقرية ، ويطلق ألسنة الشعراء بروائع القصائد فى الشكوى والألم ، مما نلمسه واضحاً فى شعر ابن نباتة ، ومن قبله الشاب الظريف .

٤ — ميل بعض سلاطين مصر للشعر ، وحبهم لمجالسه ، كما حدث من آل قلاوون ومن المؤيد شيخ وقانصوه الغورى ، إذ كانوا ينظمون الشعر ويحبونه ، ولقانصوه الغورى ديوان رقيق .

٥ — مجالس الشعر : التى كان الشعراء يعقدونها فى بيوتهم ، وفى أنديتهم الخاصة ، حيث كانوا يتقارضون الشعر ، ويتطارحون القريض ، وينقد بعضهم البعض الآخر ، ويسجلون مايدور بينهم فى هذه المجالس من آراء فى النقد ، أو من نظم جيد جادت به قرائحهم .

٦ — روح الدماثة والرقة التى اشتهر بها المصريون ، وما كان فى طبعهم من ميل إلى الدعابة والنادرة ، جعل الشعر المصرى يشتهر بالفكاهة . وجعل أسلوبه رقيقاً رقة النسيم العليل ، صافياً صفاء ماء النيل . . . إلى غير ذلك من العوامل التى عاونت على استمرار الشعر ، وجعلت قرائح الشعراء تجود به ، سواء فى ذلك الشعراء الذى تفرغوا للشعر ، أو الذين جمعوا بينه وبين الكتابة ، أو الذين طارت شهرتهم فى التأليف والشعر ، كابن نباته الشاعر مؤلف « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وكصلاح الدين الصفدى م ٧٦٤ هـ مؤلف

التذكرة الصلاحية ، فى نحو ثلاثين مجلداً ، والوافى فى الوفيات فى خمسين جزءاً ، وكابن حجة الحموى صاحب خزانة الأدب « وثمرات الأوراق » ، وغيرهم ، وقد اشتهر بالكتابة والشعر والتأليف شهاب الدين محمود الحلبى م ٧١٩ هـ وكان كاتب سر الملك الناصر . ومن الشعراء الذين غلبت عليهم الكتابة ابن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمرى .

أغراض الشعر فى هــذا العصر :

نظم الشعراء الشعر فى شتى الأغراض القديمة من غزل ومديح ورثاء وهجاء وشكوى وفخر ووصف ومجون وطرد .

وزادوا على ذلك نظمه فى أغراض جديدة منها :

١ — نظم العلوم ففى النحو مثلا نجد منظومة الفية ابن مالك ، والكافية ، ولامية الأفعال ، له ، وألفية ابن معطى ؛ وفى البلاغة نجد عقود الجمان للسيوطى ، وفى القراءات نجد الشاطبية . . وهكذا .

٢ — النظم فى التاريخ وهو وإن كان قديماً إلا أنه كان فى تاريخ حكم ملك كما فعل ابن المعتز مثلا فى أرجوزته فى المعتضد ، أما فى هذا العصر فقد أرخ الشعراء لعصور بأكملها ، فنظم ابن دانيال أرجوزته فيمن ولى القضاء فى مصر (١) وذيلها السيوطى (٢) . ونظم ابن فضل الله العمرى قصيدة سماها حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء (٣) ، ولجمال الدين الجزار أرجوزة سماها العقود الدرية فى أمراء مصر من عهد عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر (٤) وقد ذيلها السيوطى (٥) .

---

(١) حسن المحاضرة : ٢ : ١٠٤
(٢) المرجع : ٢ : ١٠٨
(٣) المرجع : ٢ : ١٧
(٤) المرجع : ٢ : ٣٦
(٥) المرجع : ٢ : ٨١

٣ — النظم فى الألغاز وقد تابعوا فيه شعراء الدولة العباسية ، فقد نظموا منه فى أواخر خلافة العباسيين وتابعهم فى ذلك الشعراء المصريون وخاصة فى عصر المماليك ، ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة ملغزا فى قلم :

مولاى ما اسم لناحل دقيق وما به علم ولا سقم
لسان قوم فإن حذفت وإن صحفت بعض الحروف فهو فم

(٤) المدائح النبوية ، وهى غرض نظم فيه الشعراء فى عصر المماليك ، ولونوه بلون جديد ، وضمنوه الكثير من الحكم والأمثال التى سارت مسير الشمس ، وجرت (١) على الألسنة وحلقت فى سماء الروحانيات وصورت شعور صاحبه نحو المقام الكريم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك جديد لم يطرقه شاعر قبل البوصيرى المتوفى سنه ٦٩٥ هـ ذلك الشاعر المبدع الذى برع فى هذا الباب حتى استحق أن يسمى مخترع المدائح النبوية . وليس هذا الفن وليد الحوادث الجارية فى هذا العصر كما كان الحال فى الأندلس فإن مدائح الرسول هناك اشتملت على الكثير من الشكوى والاستغاثة والاستنجاد، وهذا مما أحاط بالأندلس من البلايا والكوارث التى صبها المسيحيون على رؤوس المسلمين باستلائهم على بلاد الأندلس الزاهرة ، وفى هذه الحوادث المدلهمة كانت سيوف المسيحيين تعمل فى رقاب المسلمين وترتكب فى حرمات الإسلام أفظع الآثام وطبعى أن ترتفع أصوات الشعراء فى هذه الأحوال بالاستنجاد برسول الله والأولياء الصالحين ، وقد ظهر ذلك فى شعر لسان الدين

---

(١) ص ١٣ دراسات للادب ؟

ابن الخطيب وغيره من شعراء هذا العصر بالأندلس ولم يكن الحال كذلك فى مصر وإن لم تخل من موجبات الأسف والأسى من مظالم الحكام وانتشار الأوبئة والجهالة والفقر المدقع ، غير أن ذلك لم يبلغ مبلغ المآسى الأندلسية .

لقد ابتكر البوصيرى فى مصر هذا اللون من المدح مديح الرسول استجابة لداعى نفسه المتعلقة بالرسول الأمين، وقد أحسن فى شعره كل الإحسان؛ وأصابت الشعراء بعده موجة التقليد ، فأخذوا ينظمون فى مدائح الرسول تقليداً لقصيدة البوصيرى المسماه بالبردة ولكنهم لم يأتوا فيها بدليل على تأثرهم بصفات الرسول وشعورهم نحو مقامه الكريم ، ذلك الشعر الذى لا يدع للشاعر مجالا إلا لحشو شعره بالمحسنات البديعية فجاء صورة مشوهة لقصيدة البوصيرى. وأول من نظم فى ذلك صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ﻫ فأنشأ قصيدته التى مطلعها:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عوب بذى سلم

ثم جاء جمال الدين بن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ ﻫ فنظم بديعيته التى أولها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ... ولمعة برق بالغضا تتسعر

ثم جاء بعده عز الدين الموصلى سنة م ٧٨٩ ﻫ فنظم بديعيته التى أولها :

براعة تستهل الدمع فى العلم ... عبارة عن نداء المفرد العلم

ثم جاء بعده ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ﻫ فنظم بديعيته التى أولها :

لى فى ابتداء مد حكم ياعرب ذى سلم ... براعة تستهل الدمع فى العلم

وقد ضمن بيته شطراً من مطلع عز الدين الموصلى إمعاناً فى التقليد ، ثم جاء

جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ فعارض بديعية الحرى بأخرى مطلعها:

من العقيق ومن تذكار ذى سلم   براعة العين فى استهلالها بدم

ثم جاءت الشيخة الصالحة عائشة الباعونية فكانت لها بديعية أولها :

فى حسن مطلع أقمار بذى سلم   أصبحت فى زمرة العشاق كالعلم

وهكذا نشأت البديعيات فى الشعر العربى هذا العصر ، وهى قصائد من بحر البسيط فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى وقد يشير الشاعر فى البيت إلى اسم النوع .

ومنشأة هذه البديعيات بردة البوصيرى، إذ عمد الشعراء بعده إلى معارضته وفوقه بإظهار قدرتهم فى البديع ولكنهم لم يوفقوا إلى الإجادة فجاءت هذه البديعيات صوراً مشوهة من الكلف الممقوت والنسج السخيف وجرت(١) على الألسنة وحلقت فى سماء الروحانيات وصورت شعور صاحبها نحو المقام الكريم مقام الرسول ﷺ ، وكل ذلك جديد لم يطرقه شاعر قبل البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ذلك الشاعر المبدع الذى برع فى هذا الباب حتى استحق أن يسمى مخترع المدائح النبوية . .

٥ — ومن الأغراض الشائعة فى الشعر المصرى فى هذا العصر شيوع الوصف للأشياء التافهة ، من مثل وصف سبحة أو مروحة أو (سجادة) ، أو دواة ، أو ما شابه ذلك ، ومن أمثلته قول النواجى الشاعر المصرى القاهرى المشهور المتوفى سنة ٧٤٩ أو ٨٥١ هـ يصف مخدة .

---

(١) ص ١٣ دراسات للأدب .

هى نفع ولذة للنفوس وحياة وراحة للجليس
كم قديم أرخته باتكاء وتواضعت عند رفع الرءوس

٦ — التاريخ الشعرى وقد نظم منه الشعراء فى آخر هذا العصر، يؤرخون به حادثة من الحوادث أو خطباً من الخطوب فيأتون فى آخر بيت من القصيدة، بلفظة أو بجملة إذا حسبت بحساب الجمل يكون عددها موافقاً للعام الذى وقعت فيه الحادثة ، ويسبق ذلك ذكر « أرخت » أو « قلت مؤرخاً » أو ما شابه ذلك ، ومن مثل ذلك تأريخهم لفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ بقولهم « بلدة طيبة » ، وقال شاعر يؤرخ وفاة ابن المؤيد عام ٩٢٢ هـ بقوله :

قل للذى يبتغى تأريخ رحلة نجل المؤيد مرحوم ومبروك

أوزان الشعر وقوافيه :

١ — وقد جرى الشعراء على النظم من البحور الستة عشر ، ثم راج الموشح فى هذا العصر فأكثروا من النظم منه ، استطرافا له ، وكذلك نما الأدب العامى وتمثل فى الزجل الذى ذاع وشاع فى هذا العصر ، ومن أشهر الزجالين فى مصر ، خلف الغبارى ، وقد نظم الزجل فى جميع أغراض الشعر ، وبدر الدين القرضى ، وأحمد الدرويشى ، وسواهم ، وكان إمام الزجل فى الشام أحمد الأمشاطى المتوفى عام ٧٢٥ هـ . . وفى المغرب نشأ شعر عامى سموه « الأصمعيات وفى المشرق سموه الشعر البدوى الذى نظموا منه قصص الزير سالم والزناتى خليفة . . وكانوا يسمون الغناء بالشعر البدوى « الحورانى » ، ومنه قول الشريف ابن هاشم يبكى الجازية بنت سرحان فى قصيدة مطلعها :

قال الشريف ابن هاشم على ترى كبدى حرى شكت من زفيرها(١)

وفى مقدمة ابن خلدون أمثلة كثيرة له.

٢ — وقد نظم الشعراء كذلك من الأوزان المستحدثة الأخرى مثل : القوما والدوبيت وكان وكان والمواليا .

٣ — كما أكثروا من التشطير والتخميس ، وتناولوا القصائد المشهورة — كمعلقة امرىء القيس وبانت سعاد لكعب بن زهير — بالتخميس والتشطير .

ومن ذلك قول ابن داود القرشى المصرى المتوفى عام ٨٢٨ ﻫ فى تخميس بانت سعاده :

قلى للعواذل مهما شئتمو قولوا فليس لى بعد من أهواه معقول
ناديت يوم النوى والدمع مسبول بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

(١) ١ : ١١٠٥ ابن خلدون .

شاعر مصر فى عصر المماليك

جمال الدين بن نباتة

٦٨٦ — ٧٦٨

تمهيد :

يعتبر شاعر مصر الكبير ابن نباتة أمير الشعر والشعراء فى عصر دولة المماليك البحرية ، وقد خلف لنا ديوانا ضخما يقع فى نحو ستمائة صفحة ، وقد طبع فى مصر لأول مرة عام ١٩٠٥ مرتبا على حروف الهجاء . . وهو أحق الشعراء المصريين فى العصور الوسطى بالدراسة والنقد . . وهذه الدراسة على إيجازها تحتوى على توضيح خصائص الشاعر وسماته الفنية ؛ ورسم صورة كاملة لشخصيته الاجتماعية والفكرية .

عصر ابن نباتة السياسى :

عاش الشاعر جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة فى عصر المماليك البحرية ، هذا العصر الذى امتد أكثر من قرن أو ربع من الزمان (٦٥٧ — ٧٨٤ هـ) .

والذى مهد لقيام هذه الدولة هو السلطان عز الدين أيبك التركمانى الذى حكم مصر سبع سنوات (٦٤٩ — ٦٥٥ هـ) ، وتزوج شجرة الدر ، ولما مات

خلفه ابنه المنصور ، وكان صبيا فتولى الوصاية عليه القائد سيف الدين قطز . وأعلن هذ القائد عام ٦٥٧ هـ خلع المنصور ؛ وتولى ملك مصر مكانه . وبهذا بدأت دولة المماليك البحرية .

وملوك هذه الدولة هم فى الأصل من مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى . وكان قد أكثر من شرائهم وصعدوا فى جيشه إلى الرتب العسكرية الكبيرة ، واتخذ منهم أمراء لدولته ، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم « البحرية » .

ومن أشهر ملوك هذه الدولة : قطز الذى هزم التتار فى عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨ هـ هزيمة ساحقة وقتل وهو عائد من المعركة . ثم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) وهو أشهر سلاطين المماليك البحرية ، وهو الذى بايع فى مصر أحد أبناء الخلفاء العباسيين بالخلافة ولقبه « المستنصر » واستمد سلطة الملك منه نائبا عنه عام ٦٥٩ — ١٢٦١ م .

ومن ملوك هذه الدولة أيضا : الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (٦٨٧ — ٦٨٩ هـ) وفى أواخر عهده ولد ابن نباتة شاعرنا الكبير عام ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م ، وقد بقى الملك فى بيت المنصور أكثر من مائة سنة وساد فى عهده العمل والسكينة .

وعاصر الشاعر من ملوك مصر : الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ـ٦٩٣هـ ثم الملك الناصر بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ثم السلطان حسن بن الناصر وقد تولى بعد أبيه ، ثم الملك الأشرف شعبان الذى مات الشاعر فى حكمه .

ويمتاز عصر هذه الدولة بأنه من أزهى عصور مصر الإسلامية سياسيا ، فقد أصبحت مصر فيه دولة ضخمة تمتد من برقة غربا إلى الفرات شرقا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى النوبة جنوبا . . وكانت الحجاز واليمن والشام ومصر تكون وحدة عربية كبرى وامتدت سيطرة مصر البحرية بفضل أسطولها وجيشها إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وإلى الخليج العربى والمحيط الهندى ، وسارت تجارتها فى كل طريق ، وقد طردت هذه الدولة الصليبيين نهائياً من الشام(١) وهزمت التتار وردتهم على أعقابهم خاسرين مدحورين . . وتزعمت مصر العالمين العربى والإسلامى،وأخذت تتزعم الأمة العربية التى كان لصلاح الدين الأيوبى الفضل فى النضال عنها ، وفى جمع شمل العرب حولها .

البيئة الثقافية التى عاش فيها ابن نباتة :

ولد ابن نباتة فى القاهرة وعاش أكثر سنى حياته فيها . . وكانت القاهرة عاصمة العالم الإسلامى .

فقد انتقلت إليها الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد ٦٥٦ هفى أيدى التتار، وهاجر إليها العلماء من بغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامى المضطربة التى دمر الكثير منها التتار والصليبيون . . وأصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا . . وكثر فيها المدارس والجامعات ، وازدهرت بسبب

(١) كان ذلك فى عهد الملك الأشرف بن قلاوون عام ٦٩٠ ه وهو العام الذى فتح فيه هذا السلطان عكا مقر الامارة الأخيرة للصليبيين ، ودمرها ، ولم يترك فى بقية الساحل أحداً من الفرنج .

ذلك الحياة الثقافية ، حيث كثر العلماء وتعددت تآليفهم وموسوعاتهم ، ومن بينهم : ابن هشام المصرى (٧٦١ هـ ، وابن عقيل (٧٦٩هـ) ، وابن فضل الله العمرى (٧٤٩هـ) صاحب كتاب مسالك الأبصار ، وابن الوردى (٦٨٩ — ٧٤٩هـ) ؛ وأبو حيان (٦٥١—٧٤٥) ، وتقى الدين السبكى (٧٥٦هـ)، وشهاب الدين النويرى (٧٣٢هـ) صاحب كتاب « نهاية الأرب » .

والتراث العلمى الضخم الذى ينسب لهذا العصر كان الفضل فيه للأزهر الشريف وعلمائه ، وللعلماء الذين وفدوا على مصر من كل مكان فى الأرض ، مهاجرين من غزو التتار للعالم الإسلامى . وهو أضخم تراث فى تاريخ مصر العلمى .

البيئة الأدبية التى عاش الشاعر فى خلالها :

وفى عصر ابن نباتة كثر الأدباء والكتاب والشعراء ؛ فمن الشعراء ابن دانيال الموصلى (٧١٠هـ) ، ونصير الدين الحمامى المتوفى عام ٧١٤هـ وشمس الدين محمد بن العفيف المتوفى عام ٦٨٧ هـ ، وعلاء الدين الوداعى المتوفى عام ٧١٦هـ ، وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى (٧٧٦هـ) وعمر بن الوردى (٧٤٩هـ) ، وصلاح الدين الصفدى (٧٦٤هـ) وابن اللبانة (٧٥٢هـ) ، والقيراطى (٧٨١هـ) وصفى الدين الحلى (٧٥٠هـ) ، والوطواط (٧١٨هـ) .

ومن الكتاب محيى الدين بن فضل الله العمرى (٧٤٩هـ) ، وولده شهاب الدين (٧٤٨هـ) وأخوه علاء الدين ، وشهاب الدين محمود الحلبى (٧١٩هـ) وابن حبيب الحلبى المتوفى ٧٧٩هـ وهو صاحب كتاب « نسيم الصبا » ، وسواهم .

وكانت الكتابة تعتمد على طريقة القاضى الفاضل مع كثير من المبالغة والصنعة البديعية . وكانت الخطابة ضعيفة ، ومن أعلامها ابن جماعة (٧٧٣هـ)، وجماعة آخرون .

أما الشعر فقد كسدت سوقه بضعف الملكات ، وقلة تشجيع الحاكين وولاتهم — وهم كلهم أو جلهم من الأعاجم — للشعراء . ومع ذلك فقد نبغ فيه الكثير من الشعراء ، ومن بينهم ابن نباتة شاعرنا وطائفة أخرى من أعلام الشعراء فى ذلك العهد . وإن غلب على الشعر والشعراء طابع الصناعة اللفظية والوشى البديعى الذى بعد أ كثره عن الطبع والفطرة والموهبة الخالصة الصادقة فى تعبيرها وتصويرها .

وفى هذه البيئة الأدبية العامة عاش ابن نباتة ، ونبغ فى الشعر ، وطارت شهرته فيه .

حياة الشاعر

ميلاده وأسرته :

ولد ابن نباتة ، جمال الدين ، محمد بن محمد بن محمد الشاعر المصرى بمصر فى الفسطاط فى « زقاق القناديل » فى ربيع الأول عام ٦٧٦هـ ١٢٨٧م وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى المتوفى عام ٣٧٤هـ ، وكان والده شمس الدين بن نباتة (٦٦٦—٧٥٠هـ) عالما أديبا شاعراً راوية للحديث ، تولى دار الحديث النورية .

وهكذا ولد الشاعر فى بيئة علمية جليلة ، ونشأ فى بيت معرفة وأدب ، مما افتخر به ابن نباتة فيما بعد فى شعره إذ يقول :

لى حين أنسب أسرة عربية كانت تعد الشهب من أحلافى

ويقول :

ورثت اللفظ عن سلفى وأكرم بآل نباتة الغر السراة
فلا عجب للفظى حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات

نشأة الشاعر وحياته :

نشأ ابن نباتة فى بيت سرى ؛ وبين أسرة ظاهرة الجاه والنفوذ ، وفى ظل أب عطوف حنون ، أب ذاع صيته فى العلم ، والفضل والأدب ، وكثيرا ماردد شاعرنا الفخر بأبيه وآله ، وبمجد بيته .

وكان والده الأستاذ الأول له ، أخذ عنه مبادىء العلوم والادب ، كما أنه درس على كبار العلماء علوم الدين والحديث واللغة والأدب .

وقد شاهد الشاعر الخلاف السياسى حول العرش بين المماليك ، والكثير من مظاهر الانقسام والاضطراب بين الأمراء . وهى هذه الأحداث والتى أثرت فى نفسه وفى خلقه تأثيراً كبيراً .

وهكذا نجد البيئة العلمية التى عاش فى وسطها ابن نباتة قد أثرت فيه تأثيرا واضحا ، وكذلك تأثر بالبيئة الأدبية تأثراً واضحا، تلقى العلم والأدب على كبار

الشيوخ في القاهرة ، وعلى رؤساء الدواوين ، وأكب على قراءة شعر القاضي الفاضل ورسائله ، فرسخت في نفسه طريقته من الولوع بالتورية والطباق والتضمين وعمل على تأييدها والإشادة به وبها ، فكان بعد الفاضل إماما لهذه الطريقة في النثر والنظم على حد سواء .

قال ابن نباتة الشعر وقد اجتاز الثالثة عشرة من عمره وذلك يدل على موهبة صادقة وفطرة خالصة واطلاع كبير . فقد حدث عن نفسه أنه أخذ يقرض الشعر عقب دخوله على ابن دقيق العيد مع والده عام ٧٠٠ هـ . حيث ناوله ابن دقيق كتاب الحماسة وجزءاً من الذخيرة لابن بسام فأقبل عليهما ابن نباتة الشاب الصغير بشغف وشغل به عما حوله ، فتنبأ له الشيخ بمستقبل باهر في الأدب وبشر والده بذلك على مسمع منه ، فكان لهذا أثره في نفسه .

وما لبث ابن نباتة أن علا نجمه في الأدب والكتابة والشعر وظل يترقب عملا رسمياً تظهر فيه مواهبه وخاصة في ديوانه الرسائل فلم يفلح ، فهاجر إلى الشام عام ٧١٦ هـ حيث درس الحديث في بعض مدارس دمشق ، ثم تولى نظارة تلك المدرسة ، واتخذ عاصمة الأمويين دار إقامة ، وأخذ يتردد على مدن الشام يساجل الشعراء ويناظر الأدباء ويمدح الأمراء ، وله قصائده المؤيدات في مدح المؤيد ملك حماة وكان المؤيد يغدق عليه عطفه ، وعين له راتبا سنويا يصرف له .

وعلى يدي شهاب الدين أحمد بن يحيى العمرى تقلد منصبا في ديوان الرسائل بدمشق عام ٧٤٣ هـ ، ثم جعل مشرفا على تحصيل رسوم الحجاج المسيحيين الوافدين لزيارة كنيسة القيامة ببيت لحم . وفي عام ٧٥٧ هـ أو عام ٧٦١هـ عاد

إلى مصر حيث استدعاه الناصر حسن وأسند إليه عملا حكوميا وأعفى من الحضور إلى الديوان لكبر سنه وكانت أهم الأحداث فى حياته هى : فقره وغربته وفقده أولاده صغاراً ، حتى قيل إنه دفن نحو سبعة عشر ولداً كلهم ماتوا أطفالا .

وقد ذاق ابن نباتة فى حياته ألم الفقر وشقاءه وعاش متململا ضجراً ، يندب حظه فى الحياة ، ويلعن نصيبه منها .

وقد كانت منافسة معاصريه الأدبية له ، وحسدهم إياه على تفوقه فى الشاعرية ومساجلاته معهم مما يذكى فى نفسه روح الشعر والصبر معا .

وعاش يكافح فى سبيل الحياة والعيش ، بمدح الملوك والأفراد دون أن ينفعه ذلك بطائل ، وأخيراً اختلط فى أواخر عمره ، ومات بالبيمارستان المنصورى بالنحاسين عام ٧٦٨ هـ — ١٣٦٦ م عن اثنين وثمانين عاما ، ودفن الصوفية (١) .

(١) راجع : الجزء الثالث من الدرر الكامنة ، الجزء السادس من طبقات الشافعية للسبكى ، سرح العيون ، الجزء الثانى من المفصل ، جمال الدين بن نباته للشيخ حامد مصطفى ، تاريخ آداب اللغه العربيه لجورجى زيدان ، جزء ١١ ص ٢٠ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى - خزانة الأدب لابن حجة الحموى ، بدائع الزهور جزء ١ ص ٢٢١ ، شذرات الذهب :

مصادر إلهامه الشعرى

لقد كانت كل الأسباب تتجمع لتخرج من ابن نباتة شاعراً ضخماً يمثل عصره الأدبى ، وعصره السياسى والاجتماعى ، وكانت هذه الأسباب تعمل عملها فى نفس الشاعر وعقله وفنه .

وأولى هذه الأسباب نشأته فى أسرة مشهورة بالعلم والأدب ، فأخذ عن والده حب الأدب وتذوقه ، مما نمى فى نفسه روح الأدب والشعر ، وهو لما يزل صبياً فى المهد ، ولما يفع كان لتوجيه والده له أثر فى نفسه وعقله وأدبه وفى شعره وشاعريته .

وثانى هذه الأسباب البيئة الأدبية التى عاش فيها ابن نباتة ، بيئة القاهرة التى كانت تموج بالأدباء والشعراء مما حببه فى الأدب ، وقرب الشعر من نفسه .

وثالثها : ثقافته الأدبية الواسعة التى تلقاها فى الأزهر وفى مدارس القاهرة .

ورابعها : منافساته ومساجلاته الأدبية ومطارحاته الشعرية مع طبقته من الشعراء ولداته من الأدباء .

وخامسها : شقاؤه وفقره وحزنه النفسى العميق وخاصة لفقد أولاده ، والحزن دائماً مما يثير الشاعرية و يغذيها .

وسادسها : ما تجمع فى نفسه من موهبة أدبية أصيلة وملكة فى الشعر عريقة ، إلى شدة ذكائه ، وقوة صناعته الفنية ، وحبه للشعر وتذوقه له مما ظهر فى شعره ظهوراً واضحا ، وقدحا كافى ذلك شعره أدباء عصره : كصلاح الدين

الصفدى الذى كان كثيراً ما يغير على معانيه وتورياته ، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة واستعمال المعانى البلدية .

ولقد عاش ابن نباتة فى أزهى أيام الأدب فى عهد المماليك، وعاصر كثيراً من رجال اللغة والأدب مثل جمال الدين بن هشام المصرى وابن منظور وابن سيد الناس وغيرهم ، وعاصر من الشعراء كثيراً منهم نصير الدين الحمامى وشمس الدين محمد بن العفيف وعلاء الدين الوداعى وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى وزين الدين بن الوردى وصلاح الدين الصفدى وابن اللبانة والقيراطى وابن دنيال الموصلى ، وصفى الدين الحلى ، وخالط كثيراً من كبار الكتاب مثل : محيى الدين ابن فضل الله العمرى ، وولده شهاب الدين ، وشهاب الدين محمود الحلبى ، فكان لهذه المعاصرة الأدبية أثر فى نفسه وشعره .

شخصيه الشاعر

وشخصية الشاعر تتضح بوضوح وجلاء فى ابن نباتة وتتصل به اتصالا وثيقا .

فهو من جانب يعرف مواهبه القوية فى الشعر ، ويدرك تفوقه الشديد على شعراء عصره ، ويعرف مدى قوته وضعفهم . . ومن ثم كان كثير الزهو بنفسه كثير الإعجاب بشعره وشاعريته ومواهبه فى القريض . . يقول من قصيدة له فى الملك الأفضل :

فما الدر إلا دون نظم أنصه وما القصر إلا دون بيت أشيده

ويقول من مدحة نبوية نظمها فى الرسول الأعظم :

ونظمت شعرى فيك تزهى قصيدة على كل ذى بيت من الشعر يعمر

معظمه للمعنى يكرر لفظها فيحلو نبأنى الـكلام المكرر

دنت من صفات الفضل منك وإنها لتفضل ما قالته طى وبحتر

وهو من جانب آخر ينبو به العيش فى وطنه مصر ، وتضيق به الحياة وأسبابها ، ويتجسم أمامه البؤس والحرمان شبحا رهيبا يطارده فلا يذهب ، ويصاوله فلا يهرب ، فيهاجر إلى الشام عام ٧١٦ هـ ، كثير العيال ، مضطرب الأحوال ، كما يقولون . وفى ذلك أيضا قال الشاعر :

متعللا بيد الأيام مضطربا كأنما استقسمت منى بأزلام

وفى الشام عمل فى ديوان الرسائل للملك المؤيد صاحب حماة : اسماعيل بن على المتوفى عام ٧٣٢ هـ ، وقد أصبح شاعره المقرب عنده، والمقدم لديه، وجعل له راتبا سنويا يصله بدمشق كل عام ، ثم عينه شهاب الدين بن فضل الله بديوان الإنشاء فى دمشق كما يقول ابن نباتة فى قصيدة يمدح بها أخاه علاء الدين بن فضل الله :

بلغتنى يا ابن فضل الله مطلبا لم أرجه من بنى الدنيا ولم أخل

نلت العلا وكبت الحاسدين على يد اعتنائك لا خيلى ولا حيلى

وقد سموت لديوان الرسائل فى على أركانك لا كتبى ولا رسلى

مدى أخوك إلى مرقاه أوصلنى ولو ترق إليه النسر لم يصل

ومن جانب ثالث فقد كان الاستبداد السياسى فى عصره يحول بينه وبين تصوير حياته وحياة المجتمع وآلام الشعب وآماله فى شعره، فشعره لا يمثل الحياة فى عصره، لأن أثر البيئة فى نفسه كان شديداً، ولأن الشاعر لم يتحرر من هذا الأثر فى شعره؛ فغريزة الخوف وحب السلامة جعلته يبتعد عن المخاطر والشجاعة وعن النقد وعن الاعتزاز بنفسه ورأيه، وجعلته يؤثر الأمان ويميل إلى الاستسلام والاستكانة .. بينما كان للصفدى وابن الوردى وبعض الشعراء الآخرين صور شعرية تمثل — وإن قلت — عصرهم، وتصور الحياة فيه تصويراً بيناً بعض الشىء.

فن ابن نباتة الشعرى

يرى النقاد أن ابن نباتة أشعر شعراء عصره وحامل لواء الفن الجديد بمصر والشام. والحق أنه بلغ الغاية فى إجادة الصنعة البديعية وفى التورية حتى أصبح العلم المفرد فيها؛ وساعده على إتقان فنه الشعرى استعداد فطرى سليم وذوق مصرى دقيق، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها وعكوف على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه وتمثله فى معناه ولفظه، وقد عرفنا كيف نشأ فى ظلال الأدب منذ طليعة صباه؛ وكيف أفاد من شعراء عصره، حتى إذا حذق أدبهم ووعاه، بذهم جميعا فيه، وجرى مفبراً إلى الغاية. ثم إنه لم يكتف بالفطرة الشعرية، كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره، من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحمامى وابن دانيال الكحال

وغيرهم؛ بل إن القارئ لشعره ليرى فيه شاعراً مثقفاً اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيراً بكتب الأدب وأخبار العرب، وألم بجملة صالحة من العلوم .

وقد كان لكثرة انتقال ابن نباتة فى بلاد الشام أثر فى اتساع مدى فكره الشعرى، وكان ابن نباتة على تواضعه واستسلامه يدرك جمال شعره، وكان فخوراً به تياها، فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية، والإدلال بها : يقول فى آخر قصيدة له :

من مبلغ العرب عن شعرى ودولته ... أن ابن عباد باق وابن زيدونا
حبرتها فية زهراء للساطف من ... أعلى وأنفس ما يهدى المجيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعتهـــا ... فقد رأت مقلتاك البحر والنونا
كأن ألفاظهـــا فى سمع حسدها ... كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

وفى قوله : « لقد رأت مقلتاك البحر والنون » تورية ظاهرة، مع مراعاة النظير المعروف فى البلاغة بجماله، ويقول فيه معاصره ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ فى خزانة الأدب عند الكلام على التورية : « ابن نباتة » وإن تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصراً فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بياناً وسحراً؛ ونقته فى الطريقة الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدى من خواصها نظماً ونثراً؛ وكم سأله عالم فى سلوك هذه الطريقة فقال : لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب، فمذهبى — وأنا أستغفر الله — أن ابن نباتة وصل فيه إلى درجة الاجتهاد، وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدب، فإن هذه الطريقة

ما أمها ناظم وناثر فى الأيام الأموية ، ولا ابتسمت ثغورها فى الخلافة العباسية ، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة ، وأظهر منها الزيادة المستفادة ، واعتادها بلقاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه ، فأكرم بها عادة وشهادة . ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل عربتها وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها ، وأسكن فى أبياته من بديع النظم كل قرينة صالحة ، وأمسك سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحة » .

ويمثل مذهب ابن نباتة فى الشعر قوله يرثى ولداً له مات صغيراً :

الله جارك إن دمعى جارى ... يا موحش الأوطان والأوطار (١)
لما سكنت من التراب حديقة ... فاضت عليك العين بالأنهار
شتان ما حالى وحالك : أنت فى ... غرف الجنان ، ومهجتى فى النار

كما يمثل فنه الشعرى قصيدته الأخرى التى قالها يمدح بها السلطان الأفضل ويعزيه فى والده المؤيد :

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
تفيض مجارى الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث فى ضحا الشمس قد همى
سقى الغيث عنا تربة الملك الذى ... تدافت له الدنيا وعز به الحمى
مليكان ، هذا قد هوى لضريحه ... برغمى وهذا للأسرة قد سما

---

(١) الأوطار . جمع وطر ، الحاجة تهتم لها وتعنى بها .

ففى القصيدة الأولى نرى من الشاعر حرصاً على الجناس وعلى الطباق ومراعاة النظير والمبالغة والتورية ، وعلى فنون كثيرة من البديع والصنعة الشعرية ، التى يحتفل بها الشاعر احتفالا شديداً ، والتى تغطى على روح الشاعر وموهبته الفطرية وطبعه الشعرى . ونجد خصائص مذهب القاضى الفاضل واضحة كل الوضوح فى القصيدة .

والقصيدة ، مع عذوبة ألفاظها وقوة ما يبدو فيها من حرارة عاطفة ، لا تمثل روح الشاعر ، إنها كالمرأة الجميلة تلبس حليا كثيرة تغطى جمالها ، وتحول دون التملى بحسنها وروعتها .

وفى القصيدة الثانية ما فيها من بلاغة الاستهلال ، وروعة المطلع ، وحسن الدلالة على المقصود ، ولكن سرعان ما تظهر الصنعة . وما يختفى الطبع ، وما تلاشى بهجة الفن وروعته بهذه الحلى الكثيرة التى يثقل بها الشاعر إثقالا . وهكذا تبدو الصناعة اللفظية كأشد ما تكون ثقلا ، وكأقوى ما تكون تأثيراً على فطرة الشاعر وعلى معانيه معاً .

آراء النقاد والأدباء فيه

يقول السبكي فيه : هو حامل لواء الشعر فى زمانه ، وما رأينا أشعر منه .

ويقول فيه ابن حجة الحموى : هو إمام الصناعة فى عصره وحامل لواء الشعر فى مصر ، مع معرفتى بمن عاصره من فحـــول الشعراء ... ويقول فيه كذلك : « مشت ملوك الأدب قاطبة — بعد القاضى — تحت أعلامه » .

ويقول ابن إياس فيه : كان من فحول المولدين وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء .

وقال الصفدي : تفرد بلطف النظم وعذوبة اللفظ وجودة المعنى وغرابة الاختراع وجزالة الكلام وانسجام التركيب .

ويرى حامد مصطفى أنه أشعر شعراء عصره عصر المماليك فى مصر والشام ، فقد كان زعيم الشعر فى هذا العصر ، وحامل لواء الشعر بينهم .

أغراض شعره

— ١ —

نظم ابن نباتة الشعر فى أغراض كثيرة :

١ — نظمه فى المدح، وكان المدح أشهر أغرض الشعر فى عصره، وقد مدح به الملوك والأمراء والعلماء وأصحاب النفوذ فى عصره . وإن كان قد جدد فى المدح فمدح به الرسول صلوات الله عليه ، ومن مدائحه فيه :

كان الورى فى حيرة حتى أتى ... بجلى أخبار وعاها من يعى
من سفح عدنان التى شرفت به ... مع ذلك الشرف القديم المهيع
ما البدر فى صدر السما كسناه فى ... قلب الخميس ولا بصدر المجمع
تفدى البدور بيوم بدر وجهه ... ما بين معشره البدور الطلع
يا سيد الخلق الذى مدحته من ... آى الكتاب فواصل لم تقطع
ما ذا عسى المدح الطهور يدير من ... كأس الثنا بعد الكتاب المترع
بعد الحواميم التى بسنائها ... هبطت إليك من المحل الأرفع
من كل حوف عن سواك بمدحها ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

وهو هنا يضمن شعره بعض أعجاز قصيدة ابن سينا فى النفس ..

ومن مدائحه قوله فى الملك الناصر حسن وقد أمره أن يكتب نسخة من ديوانه ليحتفظ بها فى خزانة كتبه :

أحبابنا داركم والعيش نعمان ... والسفح دمعي ودار القلب حران[1]
أشكو اشتياقا وما بالوصل من قدم ... كأن وصلى لفرط الحب هجران
وربما رمت أن أشكو السهاد إلى ... عدل المنام ، وقلت : النوم سلطان
يأيها الناصر السلطان لا غمضت ... عين لها عن سنى مرآك سلوان[2]

---

(١) العيش : الحياة . « نعمان : واد فى طريق الطائف يخرج إلى عرفات يقال له نعمان الأراك ، ونعمان أيضا ، صفة مشبهة من الفعل نعم ينعم أى صار ناعما لينا . حران : بلد بشمالى الشام .

(٢) السنى : ضوء البرق و « النوم سلطان » فى البيت السابق تعبير عامى مبتذل

كم فى ملوك الورى فضل ومعرفة　　لديك قـــد زانه يمن وإيمان
أمرت شعرى يا خير الملوك على　　أشعار قوم فـــلى أمر وديوان

وأكثر شعر ابن نباتة فى المديح ، لأنه شاعر فقير يعيش من فنه ،وأكثر مدائحه فى النبى ﷺ ثم فى الملك المؤيد صاحب حماة وأبنائه وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء ، ومدح الملك الناصر والسلطان حسينا ، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة المحتسبين : وله شعر فى التهنئة لا يخرج عن المدح كتهاية لبعض الأصدقاء بقدومهم من الحج وغير ذلك

٢ — وابن نباتة كثير الغزل ، وغزله معظمه صنـاعى ، يجعله طليعة لقصائده ويستعمل فى أكثره ضمير المذكر كما هى عادة شعراء عصره ومن قبلهم وأحسن ما قاله فى الغزل قوله من قصيدة فى مدح الرسول ،

صحا القلب لولا نسمة تتخطر　　ولمعة برق بالغضا تتسعر
وذكر جبين البابلية إذ بدا　　هلال الدجى والشىء بالشىء يذكر

سقا الله أكناف الغضا سائل الحيا　　وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر

٣ — وله قصائد فى الخمريات وقد كان فى هذا الباب مقلداً قليل الابتكار، ومما أحسن فيه قوله :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب　　فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشراب أم الدهر إن نسبت　　أخت المسرة واللهو ابنة العنب

غــراء حالية الأعطــاف تخطر فى ثوب من النور أو عقد من الحبب

٤ — وله شعر كثير فى الرثاء ، ومنه مرثيته المشهورة فى ابنه ؛ ومن رثائه قوله يرثى ابنا له :

يا غائباً ذهبت أيدى الحمام به بعداً ليومك ماذا بالحشا فعلا
هلا بغيرك ألقى الموت جانبه لقد تأنق فيك الموت واحتفلا
هلا قضى غصنك الزاهى شبيبته فما ترعرع حتى قيل قد ذبلا

وعاطفته هنا فى الرثاء ضعيفة ، وكان ابن نباتة مرزأ فى أولاده ، قال الصفدى : إنه لم يعش له ولد ، حتى دفن سبعة عشر ولداً .

٥ — وليس له فى الهجاء إلا أبيات قليلة هى إلى الدعابة أقرب منها إلى الهجاء ، ولكن لسانه لم يقف عن هجو الكلام حتى فى القصائد يمدح بها الكبراء ، وهذا يدل على تدهور الآداب العامة فى عصره . ومن شعره فى الهجاء قوله :

أما الرجاء فما راعيتموه فقد غرت بدوركم آمال سارينا
كيف السبيل إلى إنصاف قصتنا إذا خصمنا فى سبيل الحكم قاضينا
كونوا كما شئتمو تائيا ومقتربا إن لم تكونوا من الدنيا كما شينا

٦ — وله شعر فى وصف بؤسه وحرمانه يقول فى هذا الباب معللاً لظهور الشيب فى فوديه بعلة حسنة :

من يحارب حوادث الدهر يخفى لون فوق فى غبار الحروب

من يعم فى بحار همى يظهر   زبد فوق فرعه الغريب
أى فرع جون على عنت الأيام يبقى ؟ أى غصن رطيب .

وهو هنا يمزج الشكوى من الحرمان بالحديث عن الشيب والهرم . .

ويقول من قصيدة طويلة :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا   وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا   منى لثروة لفظ وافتقار يد
أما الهموم فبحر خضت زاخره   ا ترى فوق رأسى فائض الزبد
وعشت بين بنى الأيام منفرداً   ورب منفعة فى عيش منفرد
أصبحت لا أجتوى عيش الخمول ولا   إلى المراتب أرمى طرف مجتهد
جسمى إلى جدثى مهواه من كثب   فكيف يعجبنى مهواى من صعد

ويقول أيضاً فى الحديث عن بؤسه :

منعتنى الدنيا جنى فتزهد   عن لقاء المكروه والمحبوب
ووهت قوتى فأعوضت كرها   عن لقاء المكروه والمحبوب

ويقول أيضاً :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب   أفضى فيه بالأفكار وقتى
من الأولاد خمس حول أم   فوا حربا من خمس وست

ويقول يشكو حظ الشعراء جميعاً :

أسفى على الشعراء إنهم على   حال تثير شماتة الأعداء

خاضوا بحور الشعر إلا أنها مما تريق وجوههم من ماء

٧ — وله شعر كثير فى الحنين إلى وطنه مصر حين فارقها إلى الشام يقول من ذلك :

بأبى الخدود العاريات من البكا اللابسات من الحرير جلاببا
النابتات بأرض مصر أزاهرا والزاهرات بأرض مصر كواكبا
آها لمصر وأرض مصر وكيف لى بديار مصر مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبة والحبيبة والوفا فى الأقربين مشاربا وأصاحبا
والدهر سلم كيفما حاولته لا مثل دهرى فى دمشق محاربا

وهو فى هذه القصيدة مقلد للمتنبى يضمنها شعر المتنبى مع ظهور قصور عنه :

٨ — وله قصيدة طويلة فى مائة وسبعين بيتا وقد نظمها من بحر الرجز ، وقلد فيها الشعراء العباسين الذين أجادوا فى هذا الفن بمثل ابن المعتز وأبى نواس ، ومنها قوله :

حتى نزلنا بمكان مونق إخوان صدق أحدقوا بالمحلق
فياله فى الحسن من محل مراد جسد ومراد هزل
للطير من مياهه مواقع كأنها من فوقه فواقع
حتى طوى الأفق رداء الورس والتقم المغرب قرص الشمس

وله موشحات ومقطوعات كثيرة ؛ منها الثنائيات والثلاثيات والرباعيات والخماسيات .

٩ — ولابن نباتة شعر كثير فى الوصف ولا داعى للإفاضة بذكر نماذجه

الصناعة الشعرية فى شعر ابن نباتة

والصناعة الشعرية فى شعر شاعرنا أهم سمة تميز شعره ، وهى وإن كانت طابع عصره إلا أنها فى شعره تتسم بسمة التعدد والتلوين والكثرة والقوة وحسن السبك .

ويجمع النقاد على تقديم ابن نباتة فى الصناعة الشعرية اللفظية ، ويعدونه إماماً فى الطريقة الفاضلية .

أكثر ابن نباتة فى شعره من ألوان البديع ، وخاصة التورية والاستخدام والتضمين وحسن التعليل ومراعاة النظير وتأكيد المدح بما يشبه الذم وحسن التخلص وبراعة الاستهلال .

وهذه قصيدة تبرز فيها أهم ملامح هذه الصناعة اللفظية التى عرف بها ابن نباتة وعرفت هى به ، قال الشاعر يهنىء القاضى نور الدين بن حجر بقدومه من السفر :

قدم الحبيب من السفر   أرأيت بدرا قد سفر
بدر يقر العين لكن   ما على وجه أثر
كهناء نور الدين ذى   الأفضال والفضل الأغر
فمتم بنى حجر الكرام   لكم فخار معتبر
أهل المعالى والعلوم   لمن وعى ولمن نظر
والنسبة العلياء قد   شهدت بأبناء أخر
شهم زكت من أول   وسعادة لحظت حجر

فنجد هنا جناساً ضعيفاً فى البيت الأول ، وكذلك بين المعالى والعلوم

جناس ناقص ، وبين قوله وعى ونظر مراعاة النظير ، وفى قوله حجر تورية ، والشعر فى جملته ضعيف وألفاظه العامية فيها كثيرة .

ومن شعره قوله :

يا أقرب الناس من مدح ومن كرم   وأبعد الناس من عاب ومن عار
أقسمت لولا أياديك التى اشتهرت   ناوأنى الزمن المودى بأشعارى
دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فانك أنت الجائع العارى

ففى قوله عار وعاب جناس ناقص ، وقوله « دع المكارم » تضمين من شعر الحطيئة . والأبيات من لزوم مالا يلزم .

خصائص شاعرية ابن نباتة

أولا في صناعة الشعر :

أجاد ابن نباتة في شتى ألوان البديع من تورية وطباق ومراعاة النظير وتضمين واستخدام وحسن تعليل وتشبيه واستعارة ومجاز ، وقد بلغ الغاية في التورية حتى أصبح العلم المفرد فيها وكان لا يحفل بالجناس كثيراً وإن وقع في شعره ، وكذلك كان ابن الوردي وابن حجة . . وقد عكف ابن نباتة على أدب القاضي الفاضل وعلى مذهبه الأدبي وطريقته الفاضلية حتى امتزج فنه بنفسه وتمثله في شعره وأدبه ، وأصبح ابن نباتة إمام الشعراء في هذا المضمار وحامل لواء صناعة الشعر في عصره في مصر والشام .

وقد أدى حبه للصناعة اللفظية إلى قلة عنايته بالألفاظ العناية الشديدة التي تبدو في شعر بعض الشعراء ، وكان كثيراً ما يستعمل الألفاظ البلدية ، والأساليب السوقية في شعره كقوله :

ظلمت دنياك وطلقتها فرحت لا دنيا ولا آخرة

ثانياً في المعاني والأخيلة :

ثقافة ابن نباتة وكثرة رحلاته وقوة ذكائه وخصب ملكاته لها أثر في معانيه وأخيلته ، ومع ذلك فقد كان قليل الابتكار للمعاني ، كثير التكرار لها . يكتفي بمعاني السابقين . وانظر إلى معناه السمج في الرثاء حيث يرثي والدة صديق له :

أذات الحجى إن الحساب ليمنع — عن اللفظ حتى في رثائك يسمع

ماذا يقول الشاعر ؟ يقول إن الميت امرأة ، وإن ذلك يمنع من الكلام فيها والحديث عنها حتى في مواقف الرثاء ، وهو معنى ضعيف نحيف ، وقد فاته أن موقف الرثاء يذهب الملام عنه وهو يتحدث عن المرأة ، ويقول :

رأى الغصن أعطاف الغزال القرطق — فقام مقام المجتهدى المتملق

يريد أن يقول : إن هذه الغادة هيفاء القامة ، تستعير من الغصن اعتدال القامة ، أو يستعير الغصن منها طولها الفارع .. وهو معنى عادى عامى وقد هجنه بهذه الصناعة اللفظية الممقوتة .. ومن معانيه الجيدة قوله :

فهمت في الظلام إلى شعاع — كأن شعاعها قبس يلوح
وحيتنا بصافية شمول — كما يترقرق الدمع السفوح
كأنا قد سلبنا الديك عينا — فقام من السكرى فزعا يصيح

وكثيراً ما كان يأتي بمعان عامية مبتذلة تحط من مكانة الشعر والشاعر. وخيال ابن نباتة على أية حال خيال ضعيف عقيم لا يبتدع فيه بل يتبع ويقلد .

ثالثاً من حيث القيمة الفنية :

وفي شعر ابن نباتة كثير من العيوب والأخطاء ، ومن أخطائه ما وقع في شعره من ضرورات شعرية ، ومن حشو ، ومن إسفاف في الصناعة البديعية ، ومن أساليب ومعان عامية مبتذلة ، ومن هنات لغوية ؛ كقوله :

إليك مدير الكأس عنى فإننى رأيت دموع الخوف تنقع للصدى

فقد عدى الفعل تنقع باللام وهو يتعدى بنفسه . . وكقوله :

وما أبالى إذا استكثرت عائلة فقد كفى هم إصباحى وإمسائى

ولفظ عائلة ليس عربيا :

وكان ابن نباتة كذلك كثير الإغارة على شعر علاء الدين الوداعى المتوفى عام ٧١٦ هـ وعلى بدائعه وقد أورد ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب طائفة من ذلك قال الوداعى :

والنهر كالمبرد يجلو الصدى ببرده عن قلب ظمآنه

أخذه ابن نباتة فقال :

والنهر فيه كمبرد فلأجل ذا يجلو الصدى

وقال الوداعى :

ما كنت أول مغرم محروم من باخل بادى النفار كريم

أخذه ابن نباتة فقال :

مبخل يشبه ريم الفلا يا طول شجوى من بخيل كريم

منزلة ابن نباتة الشعرية

يجمع النقاد على أن ابن نبـاتة كان زعيم الشعر والشعراء فى عصره ، وكان مع ما أخذ عليه من أكثر الشعراء تجديداً ، وأبدعهم صنعة وأقلهم خطأ وأحرصهم على سلامة اللغة ، وأكثرهم فنون شعر وطول قصيدة .

وقد كان ابن نباتة رائداً للشعراء فى عصره يتبعونه فى مذهبه وطريقة نظمه ويحتذونه فى أساليبه ومعانيه ، وقد ألح صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ بالشام على معانى ابن نباتة بمصر ، فلم يترك معنى حسنا إلا أغار عليه حتى اضطر ابن نباتة إلى أن يؤلف كتابا يجمع هذه السرقات ، وسماه « خبز الشعير » ، ومما جاء فيه قول ابن نباتة . وقلت أنا :

أسعد بها يا قمرى برزة ... سعيدة الطالع والغارب
صرخت طيرا وسكنت الحشى ... فما تعديت عن الواجب(١)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال من البحر :

قلت له والطير من فوقه ... يصرعه بالبندق الصائب
سكنت فى قلبى فحركته ... فقال : لم أخرج عن الواجب

وأحسن ما وقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :

روحى عاطر الأنفاس ألمى ... ملء الحسن حالى الوجنتين

---

(١) طيور الواجب أربعة عشر طائرا وهى على ضربين : طيور الشتاء وطيور الصيف . . صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٦٢ .

له خالان فى دينار خد   تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الصلاح وقال :

بروحى خده الحمر أضحت   عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما   فنقطه بدينار وحبة

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح سرق ، كما يقال من الحبتين حبة .

وحقا إن ابن نباتة ليعد أمير الشعر والشعراء فى عصره ، وقد اعترف له معاصروه بالإمامة . وشعراء طبقته هم : برهان الدين القيراطى ، وصلاح الدين الصفدى ، وصفى الدين الحلى .

وهؤلاء على تجويدهم لا يبلغون مبلغ ابن نباتة فى روائعه وبدائعه وفنه الشعرى ، ولا يكادون يصلون إلى منزلته الشعرية ، وإن كان صفى الدين الحلى أقل احتفالا من ابن نباتة بالبديع ، وأكثر قربا بديباجته إلى العربية السليمة وأكثر جزالة ، من حيث كان ابن نباتة أكثر رقة وإبداعا .

نثره الفنى

ولابن نباتة نثر فنى بليغ ؛ فقد كان كاتباً كما كان شاعراً ، وكأنه يصف نفسه وهو يخاطب ممدوحه فيقول:

يعظم من كان لكم شاعراً فكيف وهو الشاعر الكاتب

وأسلوبه في الكتابة هو أسلوب عصره ، أسلوب القاضى الفاضل يجرى فيه على طريقته ، مع تخيره للسهولة ، وبعده عن التقعير والتعقيد والغرابة ، يسلك فيه سبيل صناعة البديع في يسر وهوادة ورفق ، مما جعل نثره حسن النسج ، كثير الجمال الفنى.

قال على لسان القلم يرد على السيف ، وذلك من رسالته في المفاخرة بين السيف والقلم :

أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، أعلى مثلى يشق القول، ويرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ فقد تعديت حدك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيهات أنا القائم بمصالح الدول ، وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح ، والساعى في تدبير حال القوم ، والمفنى لنفعهم العمر ، إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم ، فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر أنيابك عن المكاشرة ، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح ، والله يعلم المفسد من المصلح .

مدارس الأدب فى عصره

هذا ويلاحظ أن الأدب المصرى إلى عصر ابن نباتة كان مذاهب أو مدارس .

الأولى : مدرسة البديع وزعيمها القاضى الفاضل ، ومن أعلامها : ابن سناء الملك ، وابن النبيه ، وعمر بن الفارض ، ومحى الدين بن عبد الظاهر ، وابن نباتة ، وغيرهم .

الثانية : مدرسة المعانى ، وزعيمها : البهاء زهير وصديقه جمال الدين بن مطروح ، ومن أعلامها ، ابو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، ونصير الدين الحامى . . وسواهم .

آثار ابن نباتة ومؤلفاته

١ — ديوان شعره وهو مطبوع فى نحو الستمائة صفحة بالقاهرة عام ١٩٠٥ ومرتب على حروف الهجاء .

٢ — سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية .

٣ — مطلع الفوائد ومجمع الفوائد ، وهو كتاب فى الأدب .

٤ — خبز الشعير · وهو فى تعداد سرقات الصفدى من شعره .

٥ — ومن اختياراته : الفاضل من إنشاء القاضى الفاضل ، وهو مجموع رسائل إنشائية اختارها ابن نباتة من رسائله الكثيرة .

٦ — وله كتاب ، سلوك دول الملوك ، ومنه نسخة خطية فى أكاديمية

فيها ... ومن مؤلفاته : القطر النباتى اختار فيه كثيراً من مقطوعاته الشعرية فى الغزل ، ومنتخب الهدية فى المدائح المؤيدية ، وتلطيف المزاج بشعر بن حجاج .. وله اختيارات من شعر الشعراء .. وله مناظرة طويلة من إنشائه بين السيف والقلم أوردها ابن حجة فى خزانته .

الغورى وأثره فى الأدب

— ١ —

كان السلطان أبو النصر قانصوه الغورى من أفذاذ ملوك مصر وحكامها فى عصر المماليك، وقد جلس على العرش ستة عشر عاما (٩٠٦–٩٢٢: ١٥٠١–١٥١٦ م).

بايعه المماليك والعلماء والأعيان وأرباب الدولة . وكان تقيا مخلصا عفيفا، لا يدخل فى خصومة ، ولما بلغه أمر مبايعته صاح قائلا : لا أخالف لكم أمرا إنما أرانى غير لائق بهذا المنصب، لأنى لم أعتد معاناة الأحكام والأمر والنهى، فأجابوه « إن صدق نيته وإخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب » . ولم يريدا من القبول ، لكنه قال لهم : أكون فى غاية السرور إذا جئتمونى يوما تنبؤوننى بالإقالة من هذا المنصب ، فارجع إلى ما اعتدته من معيشة السكينة ، فولوه فى غرة شوال من عام ٩٠٦ هـ ، ولقبوه بالملك الأشرف .

— ٢ —

نشر الغورى الأمن والسلام والطمأنينة داخل مصر ، فاطمأنت البلاد ، وسكنت الفتن ، وأخذ يقوم بسلسلة كبيرة من الإصلاحات الداخلية ، وبنى

مسجد الغورى ومدرسة سميت باسمه أيضا . . ولكن حظه كان سيئا للغاية فقد ورث تركة مثقلة بالديون والتبعات ، فقبل حكمه بثلاث سنوات أو عام ٩٠٣ — ١٤٩٨ كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح . وأخذت التجارة الشرقية تتحول إلى هذا الطريق بدل مرورها على مصر . وخسرت مصر الثروة الطائلة التى كانت تتدفق على خزائنها من رسوم التجارة ، والتى كانت هى المصدر الرئيسى لميزانية مصر وللانفاق على الجيش والأسطول ، وفوجىء الغورى بنمو قوة البرتغاليين فى الهند واستعمارهم لأطراف منها فجهز أسطولا بحريا ضخما ، ولكن أساطيل البرتغاليين بمعاونة بعض السفن الأوربية هزمت الأسطول المصرى وقضت عليه ، وفوجىء الغورى كذلك بنمو قوة العثمانيين على مشارف الشام ، ثم بالتجاء كركود أخى السلطان سليم الأول إلى مصر خوفا على حياته من أخيه ، ورحب به الغورى ترحابا عظيما ، وجهز له عشرين بارجة حربية لفتح القسطنطينية ، إلا أنها هزمت فى البحر وغرقت كلها كذلك .

وبدأ سليم يستعد لفتح مصر ، فغزا حدود الشام ، وتحالف الغورى مع شاه إيران على حرب سليم ولكن القوة المصرية الفارسية هزمت شر هزيمة ، وعندئذ أدرك الغورى المصير الأليم الذى ينتظره فخاطب سليما فى أمر الصلح وبعث إليه بوفد مصرى ، فرد عليهم رداً قاسيا ، وقال ، لقد فات الأوان ، انهضوا وارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له إن الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين ، وها أنا ذاهب إلى القاهرة فليستعد للدفاع عنها إن كان له أهلا ، وهزم الغورى شر هزيمة بفعل خيانة قواده ، وذلك فى مرج دابق قرب حلب ،

وقتل الغورى فى المعركة تحت سنابك الخيل فى ٢٤ رجب ٩٢٢ هـ وذهب مبكيا عليه من جيشه وشعبه ، وأسلم مصير وطنه لأقسى محنة عرفتها مصر الخالدة الحرة ؛ وتابع سليم سيره إلى القاهرة فهزم قوات طومان باى ابن أخى الغورى ودخل القاهرة، وقبض على طومان باى بعد فترة وأعدمه رميا بالرصاص فى ١٩ ربيع الأول ٩٢٣ هـ ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك فى مصر ، وحكمت تركيا أرض الوطن ، واستولت على إمبراطورية مصر العربية الإسلامية وعلى أسطول مصر ، وقضت على الجيش المصرى ، ونهبت بلادنا ، ونقلت الخلافة من القاهرة إلى القسطنطينية ؛ واستولت على متاحف مصر وكنوزها وأموالها ومخطوطات مكتباتها حتى العلماء والمفكرين والصناع الماهرين بعثت بهم إلى القسطنطينية وأسلمت مصر للدمار والخراب ، ومن عجب أن يسمى باسم السفاح الأعظم سليم العثمانى شارع فى مصر ، وهو الذى قضى على حرية بلادنا واستقلالها وكرامتها .

ويقال إن سليما خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ذهبا وفضة عدا ما نهبه من نفائس وتحف وآثار. ونقل سليم الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى الآستانة وعاش فيها أسيرا بعد أن أمضى صك التنازل عن الخلافة لسليم، وبعد فترة قصيرة عاد المتوكل إلى مصر وعاش فيها منفردا حزينا مهموما محجورا عليه فى حريته ، إلى أن توفاه الله عام ٩٤٥ هـ ، وهو آخر خلفاء بنى العباس فى القاهرة ، ومات سليم عام ٩٢٦ هـ ١٥٢٠ م وخلفه على عرش تركيا ابنه سليمان القانونى .

وكان سليم فظا غليظا شديد البطش لا يرحم ، قتل أخوين له ، وقتل

خمسة من أبناء أحدهما ، ولما كان فى مصر دعا إلى حضرته ثلاثة من الشعراء ، فلما وقفوا بين يديه سلموا عليه بكيفية أثارت حفيظته فأمر بضرب أعناقهم(١).

وكان الغورى سيء الحظ كذلك فى نظرة الناس إليه ، وكان الإمام الجليل شمس الدين الديروطى الدمياطى يندد فى مجالسه به لأنه ترك الجهاد فى سبيل الله فاستدعاه السلطان فذهب إليه ، وألقى تحية الإسلام على الغورى ، فلم يرد عليه ، فقال له الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال له الغورى : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال الغورى : علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليست لنا مراكب نجاهد فيها ؟ فرد عليه الشيخ : عندك المال الذى تعمر به ، وطال بينهما الجدل والحوار ، فقال الشيخ للسلطان : « قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ثم صرت سلطانا على الخلق ، وعن قريب تموت ويحفرون لك قبرا مظلما ، ثم يدعون أنفك فى التراب ، ثم تبعث عريان عطشان جوعان ، ثم توقف بين يدى الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى : من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عددها إلا الله ، فتغير وجه الغورى من كلامه ، وخرج الشيخ فلما أفاق السلطان من تأثره دعا الشيخ وعرض عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها فى بناء البرج الذى يبنيه فى دمياط ، فردها الشيخ عليه ، وقال : أنا رجل ذو مال ولا أحتاج الى

(١) ١٩٥ تاريخ الأدب التركى لحسين مجيب المصرى

مساعدة أحد ، ولـكن إن كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك(١)

وهكذا كان الغورى يجد من الشعب من يقول أمامه كلمة الحق لا يخاف فيها لومة لائم . .

وكان الغورى على حظ كبير من الثقافة ، فهو ضليع فى علوم الدين ، من تفسير وفقه وتوحيد وتشريع ، وهو على ثقافة واسعة فى التاريخ ، يعنى بقراءة مصادره ، عنايته بسماع القصص ، إلى ثقافته الأدبية العميقة ، فهو ذو علم بالأدب والشعر ، ينظم القصائد بالعربية والتركية ، وله مشاركة فى الموسيقى والغناء . وله موشحات غنى بها . . وفى تاريخ ابن إياس « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ما يكفى لتأييد كل ذلك .

ويروى للغورى ديوان شعر ، وله كتاب ، المقتح الظريف على الموشح الشريف .

وقد ورد ذكر السلطان الغورى فى التراث الأدبى الذى خلفه عصره ، وهو :

أولا : الـكوكب الدرى فى مسائل الغورى » : فرغ مؤلفه من تأليفه فى مستهل ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ ، ونية نسخة خطية بدار الـكتب المصرية

ويقول فى المقدمة : « وبعد فأنى لما رزقنى الله سعادة الدارين وتشرفت مدة عشر سنين بخدمة سلطان الحرمين الشريفين ، خان الأعظم ، وخاقان

---

(١) ١ : ١٦٤ الطبقات الـكبرى الشعرانى .

المعظم ، مولى ملوك الترك والعرب والعجم حافظ بلاد الله ؛ ناصر عباد الله ، وارث ملك يوسف الصديق ، إمام الأعظم بالحق والتحقيق ، مظهر الآيات الربانية ، مظهر الأسرار الروحانية . أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الملك الأشرف قصدت أن أجمع درر فوايد مجلسه فى سمط العبارة والكتابة ، وأنظم جواهر زواهره فى الاستعارة والكناية . لأنه ورد فى كلام بعض الأنام : كلام الملوك ملوك الكلام سيما إذا كان المبحوث عنه تفسير كلام رب العالمين . ونكات أحاديث سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، ومباحث سلطان الإسلام ألخ ..

إلى أن يقول : » وجمعت شيئاً يسيراً . وفاتنى منه شىء كثير . . فجمعت من بحار فوايده قطرة ، ومن شموس محاسنه درة ، ولم أقدر أن أجمع إلا واحداً من ألف بل من مائة ألف . . فجمعت من المسائل المشكلة ألفى مسألة ، وسميته بالكوكب الدرى فى مسائل الغورى .

والكتاب ليس مقسما على المجالس ؛ بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل ، والمطلع على الكتاب يرى صوراً من أفكار علماء مصر وأمرائها فى ذلك العصر . يرى إلى المسائل الدينية وهى معظم الكتاب، مسائل تاريخية وجغرافية ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عن بنى الأهرام أو عن سبب زرقة السماء ، أو السؤال عن كيومرث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده ، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى ، أو أهل الأرض أفضل أم السماء . ويعرض فى المجالس لذكر الملوك المعاصرين ، والأمراء الذين وفدوا على السلطان كابن السلطان سليم ، وبعض الأسئلة الدينية التى سألها هو لأمير الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه عنها والكتاب

على تفاهة معظم المسائل التى يدور عليها البحث، يصور بعض النواحى الفكرية والاجتماعية فى مصر والعالم الإسلامى فى ذلك العصر ..

ثانياً ترجمة الشاهنامة بالتركية :

كان حسين بن محمود الحسينى الآمدى أحد شعراء العثمانيين فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى فى مصر وشهد عهد السلطان الغورى ولعله فر من الآستانة إذ كان من المقربين إلى الأمير جم بن محمد الفاتح.

وتوفى بمصر سنة ٩٢٠ هـ . وقد أمره السلطان الغورى أن يترجم شاهنامة الفردوسى الى اللغة التركية فترجمها فى عشر سنين آخرها سنة ست عشرة وتسعمائة . وقد نظم الشاعر فى مقدمة الكتاب فصلا يبين فيه سبب نظمه وخلاصته ، ان السلطان كان ولعا بقراءة التاريخ القصصى ، وكان فى خزانته كتاب الشاهنامة . فدعا الشاعر وقال له ، انى أحب هذا الكتاب وأعرف ما تضمنه من المواعظ والأخبار ، وأريد أن يترجم الى اللغة التركية ، ليسهل علينا ادراك معانيه ، وأعرف أن لك مقدرة على نظمه . فترجمه الى التركية . فقال الشاعر ، أيها السلطان المعظم؟ كيف تريد أن تسهل عليك معانيه بالترجمة وأنت تعرف لسان العجم ؟ بل هو أسهل عليك من اللغة التركية وليس بك حاجة الى ترجمته؟ قال السلطان، أريد أن يبقى ذكراً بعدى يخلد الإنسان بالذكر الحسن. قال الشاعر : ولكن نظمى ليس بالبلاغة والسلاسة بحيث يعجب السلطان. وليس يسيراً أن يبلغ الكلام الدرجة التى ترضيك . والشاهنامة كتاب عسير الترجمة . قال : دع هذا وشر للأمر، وان لم يكن كلامك مزخرفا مصنعا فلست أبالى ،

لست أكلفك كلاما ملوكيا ، ولكن أريد أن تقول باللسان التركى قولا درويشيا ، يقول الشاعر فلم أجد بداً من امتثال الأمر على ثقل العبء وعلى بعد ما بينى وبين الفردوسى . وشرعت فى نظم الكتاب فى وزن واحد آخر غير وزنه الفارسى ألخ . »

وفى مقدمة الكتاب وخاتمته نحو ألف بيت ، يبدأ الكتاب بالتحميد ، ومدح الرسول والخلفاء ، على سنة شعراء الفرس والترك، ثم يذكر سيرة مماليك مصر منذ سنة ٩٠٠ هـ ، يذكر قايتباى والملوك الذى خلفوه فى فترة الاضطراب التى بينه وبين الغورى. ثم يفيض فى مدح السلطان ثم يبين سبب نظم الكتاب ويشرع فى ترجمة الشاهنامة . وفى الخاتمة يمدح السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب ومعرفته لغات كثيرة ومشاركته فى الإنشاد والشعر ونظمه فى توحيد الله ومدح الرسول وإلمامه بالموسيقى ونظمه موشحا للغناء ، وولعه بقراءة التواريخ ألخ .

ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم ، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان فى مجالسه . ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفا مفصلا فيعدد تسعا منها . وهكذا نجد آن فى مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف بعض تاريخ الغورى ولا سيما الجانب الأدبى والفنى منه ، ويبين طرفا من تاريخ مصر لا نجده فى أى مرجع آخر ، ولهذا الكتاب قيمة عظيمة فى تاريخ اللغة التركية وأدبها ، فهو سجل هائل لألفاظ اللغة التى كانت مستعملة فى القرن العاشر الهجرى. ولا سيما شرقى الأناضول. والقواعد النحوية والصرفية التى كانت متبعة إذ ذاك . وفيه كذلك صورة مفصلة للضرورات

الشعرية التي كانت تعانيها اللغة من بعض الشعراء في ذلك العصر ؛ والتي ذكرها ضياء باشا في مقدمة « الخرابات » .

وفي مصر النسخة الأصلية من هذا الكتاب ؛ وهي النسخة التي كتبها المترجم بخطه وقدمها إلى السلطان ، وكتب على صفحة العنوان فيها : برسم خزانة مولانا المقام الشريف السلطان ، مالك رقاب الأمم ، السلطان المالك، الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري ، عز نصره وخلد ملكه » . . . وفي آخر الجزء الأول ما نصه :

« وقع الفراغ من تحرير المجلد الأول في أول ليلة من شعبان المبارك في محروسة مصر ، صانها الله عن الآفات ، في قبة الحسينية لأمير يشبك ، تغمده الله بالرحمة والغفران . وكاتبه وناظمه أضعف عباد الله حسين بن حسن بن محمد الحسنى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة والحمد لله إلخ . . » . وفي آخره الجزء الثاني ، تم الكتاب بعون الملك الوهاب ضحوة النهار يوم الأحد ثاني شهر ذي الحجة الحرام عام ست عشر وتسعمائة من هجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات ، وكاتبه وناظمه وهو أضعف العباد حسين بن حسن بن محمد الحسيني الحنفي . في مدينة مصر حرسها الله من الافات والبليات في جامع المرحوم المغفور السعيد الشهيد المالك المؤيد شيخ سقى الله عهده بالرحمة والمغفرة .

وهذه النسخة في ١١٧٥ ورقة كبيرة أي ٢٣٥٠ صفحة في كل صفحة ٢٥ سطراً وهي مذهبة ، وبها اثنتان وستون صورة ملونة ، وإزاء كل صورة

فى الحاشية عنوانها بخط مذهب . ولهذه الصور قيمتها فى الدلالة على التصوير المصرى فى ذلك العصر . وفى آخرها بالتركية أن الشاعر بدأ نظم الكتاب فى أول سلطنة الغورى وأتمه فى عشر سنوات . . وفى الكتاب زهاء ستة وخمسين ألف بيتا من الشعر التركى .

ثالثا : كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية :

ألفه حسين بن محمود الحسينى التركى الرحالة ، وقد وفد على مصر ، وأقام بها عشرة أشهر شهد فيها مجالس الغورى ، وجمع فى كتابه هذا بعض البحوث التى كان السلطان والعلماء يخوضون فيها ، وقد كتب من هذا الكتاب نسخة رفعها إلى السلطان ، وكتب عليها ، « برسم خزانة المقام الشريف ملك البرين والبحرين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف قينصوه الغورى خلد الله ملكه » ، وهى مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية .

ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب : « أما بعد فإنى لما تشرفت فى خدمة أشرف الملوك وأعظم السلاطين ، ظل الله فى الأرضين ، ناظر أربع حرم رب العالمين ، سلطان العرب والعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر الله ، أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين . ملك الأشرف ، عزيز مصر ، أبو النصر الغورى . أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره — ولازمت بابه الشريف عشرة أشهر ، وجمعت درر فوائده فى سمط العبارة ؛ ونظمت جواهر زواهره فى خيط الكتابة ، فإن بابه الكريم مجمع الأفاضل وجنابه العظيم بحر الفضائل . والفواضل هذا ما خصه به الله تعالى من الفضائل النفيسة والمناقب الشريفة

اللطيفة ، أعطاه من الفهم أوفره ومن الذهن أغزره ؛ ومن الحلم أشرفه ؛ ومن العلم ألطفه ، ومن الرتب أقواه . ومن الملك أعلاه . ومن الشجاعة أجلها ، ومن السخاوة أعظمها ؛ كل هذه الصفات خصه الله تعالى بمجموعها . ولهذا ارتقى إلى الذروة العالى التى كانت نهاية درجات الأفاضل الأعالى ، وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا .

وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به على محبة العلم والعلماء، والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هـــذا المظهر إنه هو سلطان العلماء المحققين ما هو كذب فى حقه أو يقول فى مدحه إنه سلطان العارفين وهو عيب فى وصفه» .

وجعل كتابه فى مقدمة وعشر روضات . والمقدمة قصيرة تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى ، والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثاً وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائة وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر وآخرها مجالس رجب فهى عشر روضات فى أحد عشر شهراً لأن السلطان لم يجلس فى شهر ذى القعدة لوفاة ولده محمد . والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخـــه ومدته ويذكر الإمام الذى يحضر المجلس ، وكبار الحاضرين ثم يذكر المسائل التى طرحت للبحث فى المجلس . يقول فى المجلس الأول ، « طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان المبارك فى تاريخ سنة عشر وتسعمائة : وكان فى خدمته ناصح الملوك والسلاطين شيخ حسين جلبى .

وكان الإمام فى تلك الليلة شيخ شمس الدين السمديسى ، وقعدوا فى الأشرفية ستين درجة ، ووقع فى تلك الليلة أسئلة — السؤال الأول ألخ ٠٠ » ويقول فى المجلس الثانى من شوال : طلعت يوم الأحد تاسع شهر شوال . وقعدوا خمسين دقيقة فى البيسرية الأشرفية . والإمام كان شيخ محب الدين المكى ، وشيخ الإسلام كان حاضراً وخواجه غياث الدين ده دار ، وقاضى جمال الدين الخشاب ، وكثير من الناس كانوا فى الخدمة الشريفة والعتبة العلية ٠٠٠ » يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرفض السلطان جوابه أو يناقشه ، وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ، ومنها ألغاز فى موضوعات شى وقصص عن الملوك وغيرهم . وأحياناً يصف المؤلف مشاهد ، ويروى أحاديث لها فى التاريخ خطر كبير . فيصف إحياء السلطان المولد النبوى . ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا ، وما فعلوا فى الحفل ، ويبين عدا هذا كيف جلس السلطان ليلا وكيف يتقدم إليه كبار الدولة ينشد كل منهم شعراً فى مدحه ، وكيف يقابلهم السلطان ، وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم « وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض » وأنشد :

إن الخلافة ثوب قد خصصت به ... إذا لبست فلم يفضل ولم يعز

ما أودع الله فى أحداقنا بصراً ... إلا لنفرق بين الدر والخرز

وكذلك يمر القارىء بمسائل ذات خطـــر فى التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان : الجركس من الفساسفة فهم عرب . وكالبحث فى شروط الإمامة فى مجلس السلطان ، وقول مؤلف الكتاب ، فإن لم يوجد من يستغرق

الشروط من ولد اسماعيل جاز أن يولى واحد من العجم أو من ولد إسحاق وجميع هذه الشرائط موجودة فى السلطان الأعظم . ونجد فى الكتاب بحثاً صريحاً فى نيابة الغورى عن الخليفة العباسى وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه فى الأمور الشرعية . ويشتد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء فى هذه المسألة فيمدح المؤلف الخليفة ومعظم السلطان ويستفتى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة . ويرى القارىء أحياناً اهتمام السلطان بتعليم المماليك واحضارهم من حين إلى آخر إلى مجلسه ليقرؤا أمامه ويمتحنهم وهكذا يجد القارىء فى الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها فى كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره ، ويتبين مقدار اضطلاعهم ودرجة تفكيرهم .

وفى الكتاب إشارات إلى أن للسلطان نظما بالعربية والتركية ، وفيه نماذج من نظم السلطان فى موشح ، وفيه له قصيدتان وموشحتان بالعربية وموشح بالتركية .

القسم الثانى

الحياة الأدبية فى مصر فى ظلال العثمانيين

الأدب العربي في ظلال العثمانيين

٩٢٣ — ١٢١٣ هـ : ١٥١٧ — ١٧٩٨ م

تمهيـــد :

دب الهرم في جسم دولة المماليك ، وأصابها الضعف الذى يتقدم فناء الدول ، فزالت هيبة الدولة واستهان الجنود بالملوك وتفرقوا بينهم شيعا وأحزابا ، وكثرت الغارات على حدود الشام ، وزادت ثورات العرب على الحكام والأهلين ، وخلت خزائن الدولة من المال ، لكثرة ما كان ينفق على غارات الفاتحين ، وقمع صولة الثائرين ، حتى قيل إن ما أنفقه الأشرف قايتباى على الغزوات بلغ سبعة ملايين وخمسة وستين ألف دينار .

وكان من أسباب ضعف دولة المماليك كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٢ هـ في أيام الناصر محمد الثاني ، لأن التجارة الهندية الذاهبة إلى أوربا سلكت هذا الطريق ، بعد أن كانت تضطر إلى اجتياز البحر الأحمر وتنقل من السويس إلى الإسكندرية ، وكان المماليك يفرضون على هذه المتاجر ضرائب عظيمة ينفقونها في غزواتهم ومظاهر عظمتهم ، فلما انقطع عنهم هذا المدد انصرفوا إلى الأمة المسكينة يرهقونها بألوان المظالم ، وضروب شتى من الضرائب .

الفتح العثماني لمصر :

١ — نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى عام ٧٠٠ هـ — ١٣٠٠ م

من عدة قبائل تركية ، ورث عثمان بن أرطغول قيادتها عن أبيه ، واستقل بحكمها عن علاء الدين سلطان السلجوقيين فى آسيا الصغرى ، وكان عثمان أول ملوكها فنسبت الدولة إليه، وتوسع خلفاء عثمان فى آسيا الصغرى ، فوسعوا رقعة دولتهم فيها ؛ ثم عبروا البحر إلى أوربا ، وفتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ م ، وأقاموا دولتهم فى الأناضول والبلقان على أنقاض الإمارات التركية وأملاك الدولة البزنطية . وقد ظل الأتراك العثمانيون حتى أوائل القرن العاشر الهجرى — السادس عشر الميلادى يتجهون فى فتوحاتهم فى البلقان إلى وسط أوربا ، أما فى الشرق ، فلم يظهر لهم مطمح إلا فى تأمين حدودهم على مشارف إيران والعراق والشام ، ولما تولى الشاه إسماعيل الصفوى حكم إيران (٩٠٥ — ٩٣٠ هـ) وحاول نشر المذهب الشيعى فى العالم الإسلامى ، وبدأ فتح بغداد عام ٩١٣ هـ ، وألزم أهلها باتباع المذهب الشيعى ، استصرخوا القوى الإسلامية الأخرى لإنقاذهم من زحف الصفويين ، وكانت السلطة العثمانية أكثر هذه القوى استعداداً للتدخل ، ولا سيما أنها تغالى فى التمسك بالسنة ، وتحتفل بالدفاع عنها ؛ وأمام سعى الشاه الصفوى لنشر المذهب الشيعى فى الأناضول ، بدأ الأتراك يوجهون اهتمامهم إلى حدودهم الشرقية ، وبدأوا يستمعون إلى صرخات جيرانهم العرب أهل السنة فى العراق ، وقد انتهى هذا كله باصطدامهم بالدولة الإيرانية الصفوية ، وبالتوسع العثمانى الكبير ، على حساب العرب ، فهزم السلطان سليم الأول الإيرانيين عام ٩١٩ هـ ودخل عاصمتهم تبريز ، ثم ارتدعنها ، وبدأ من جديد يفكر فى مصر

وأملاكها فى الشام والحجاز وسواها ، وضمها إلى مملكته ، لتصبح الدولة العثمانية دولة إسلامية كبرى :

وأمام الخطر الإيرانى والخطر البرتغالى تجدد خطر آخر يهدد مصر وسلامتها تهديداً شديداً وهو خطر الغزو العثمانى . . وزاد من خطر الغزو حماية مصر لأخى سليم الأول حين لجأ إلى سلطانها .

٢ — ساءت العلاقات السياسية بين السلطان قانصوه الغورى المملوكى وسليم الأول العثمانى ، وبدأت جيوش سليم فى غزو الشام وهى جزء من الأمبراطورية العربية التى أسسها المماليك ، وقد أخذ سليم من مفتيه جمال الدين افتوى بجواز إعلان الحرب على مصر ، لأنها تحالفت مع الإيرانيين الشيعيين أو كما تقول الفتوى : الملحدين ، ولأنها تؤثر تزويج أبنائها من الشراكسة — أو الكفار كما تقول الفتوى — ولأنها تنقش الآيات القرآنية على الدراهم والدنانير مع أن النصارى واليهود يتداولونها . . ودارت الحرب حول مرج دابق شمالى حلب عام ٩٢٢ هـ ، حيث هزم الجيش المصرى بسبب خيانة بعض القواد المماليك وقتل الغورى ، ودخلت بلاد الشام كلها فى حكم الأتراك العثمانيين ، وتولى طومان باى حكم مصر ، واستعد لرد الغزو العثمانى ، إلا أنه لم يستطع المقاومة ، ودخل جيش سليم الأول القاهرة وقبض على طومان باى ، وقتله فى ١٩ ربيع الأول ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ ، وبذلك أصبحت كل من مصر والشام ولاية عثمانية ، وتحت تأثير الإرهاب تنازل الخليفة العباسى فى مصر الثامن عشر ، وهو محمد المتوكل على الله عن الخلافة

إلى سليم ، وبذلك انتقلت خلافة المسلمين إلى تركيا ، ونقل الخليفة العباسى إلى الآستانة ، ثم أذن له بعد حين بالعودة إلى مصر ، ومات بها عام ٩٤٥ هـ .

٣ — ورث العثمانيون ملك مصر فى الشرق العربى ، وأخذوا الحجاز واليمن وسواكن ومصوع وهرر ، ووضعوا أيديهم على عدن ، ثم فتحوا المغرب العربى ، وبذلك ضموا إليهم العالم العربى كله ، وخضع العرب لسلطانهم ، وانتزعوا منهم لواء الزعامة فى العالم الإسلامى .

آثار الفتح :

١ — الآثار السياسية : خضع الشرق العربى وقلبه النابض مصر لحكم العثمانيين ، وانتقلت الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى استامبول ، وانتقلت زعامة العالم الإسلامى إلى العثمانيين أيضاً .

٢ — الآثار الثقافية : إنهار صرح الثقافة الإسلامية ، باستيلاء الأتراك على مصر ، أثراً لاضطراب أحوال المجتمع وتفكك عراه من جانب ، وللارهاب التركى فى البلاد العربيـة من جانب آخر ، ولأن الفتح العثمانى قد قضى على شتى مظاهر النشاط العسكرى والثقافى فى مصر من جانب ثالث ، وفى الحق أن النهضة الثقافية قد أصابها الجمود والشلل والاعياء ، فأصاب المدارس ، والمعاهد وجامعة الأزهر الركود ، وتقلص ظل الازدهار العلمى ، وحرمت دراسة علوم الفلسفة والرياضة ، وجردت مصر الاسلامية من كنوز الثقافة وذخائرها النفسية من الاثار والكتب ، وحمل كل ذلك إلى

القسطنطينية ، وألزم الفاتحون العلماء ، والمفكرين ورجال الفنون ، والصناع المهرة بالحياة في تركيا ، فجمعوهم جميعاً ، وبعثوا بهم إلى تركيا ، وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية في مصر الاسلامية ، وتضاءل شأن العلوم والفنون ، وفترت الهمم عن البحث العلمى والتأليف ، وانصرف العلماء إلى الراحة ورضوا بالتقليد ، وآثروا العزلة ، فجعلوا الحياة ، وطرائق التفكير والبحث تسير إلى الانهيار .

الحياة السياسية في مصر في العصر العثماني :

خضعت مصر للحكم العثماني نحو ثلاثة قرون ٩٢٣ ــ ١٢١٣ هـ (١٥١٧ ــ ١٧٩٨ م) ، كان يحكمها فيها وال تركي ترسله الأستانة ، وله الكلمة العليا ، وبجانبه قائد تركي ، وجيش احتلال ضخم العدد ، وكانت البلاد مقسمة إلى أربعة وعشرين إقليما ، يحكم كل إقليم منها سنجق من البكوات المماليك .

ونشأ عن تضارب الوالي والقائد والجيش ازدياد نفوذ المماليك في مصر ، فعاد السلطان الفعلي إليهم ، ولكنهم كما يقول المؤرخون كانوا قد اعتادوا حياة الجرائم والعدو والمؤامرات والدسائس ؛ وانغمسوا في حياة الترف واللهو ، ونأوا عن الشعب ونأى الشعب عنهم وذهبت عنهم الروح الحربية التي كانت أغلب الخصال عليهم .

وكان من نتائج كثرة التغيير والتبديل في الولاة ، أن أخذ جيش الاحتلال كذلك يعبث بالنظام ، ويقتل الولاة ، ففي سنة ١٠١٣ هـ قتل الجيش إبراهيم باشا الوالي وعلقوا رأسه على باب زويلة وأخذوا ينهبون أموال الناس .

وازداد نفوذ البكوات من المماليك ، وخصوصاً زعيمهم شيخ البلد ؛ فصاروا أصحاب السلطان الفعلي ، وضعف نفوذ الولاة بجانب نفوذهم ، وأخذ شيخ البلد علي بك الكبير يعمل على فصل مصر من الدولة ، وأعلن استقلاله عن تركيا عام ١١٨٤ هـ : ١٧٧١ م) وطرد الوالي العثماني ؛ ثم حكم مصر بعده محمد بك أبو الذهب ، ولما جاءت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م كان يحكمها إبراهيم بك ومراد بك ، وبدخول جيش فرنسا مصر انتهى العصر العثماني ، الذي يعد أسوأ عصر شهدته مصر في تاريخها الطويل .

الحياة الاجتماعية :

١ — عاشت مصر فى ظلام دامس ، وظلم فادح ، ومحن قاسية خلال حكم العثمانيين ، وانقسم الشعب إلى فلاحين فى كل قرية يزرعون ويحصدون ثم يحل بهم الملتزم آخر العام فيأخذ ما زرعوا وما حصدوا ، وتجار وصناع فى المدن تنتظمهم طوائف الحرف ، لكل حرفة طائفتها ، ولكل طائفة نظامها وتقاليدها ، ويتولى رؤساء الطائفة تنظيم العلاقة بين أفراد الحرفة ، ويقومون على رعاية تقاليدها ، ويمثلون أتباعهم فى دوائر الحكومة ، ثم تجىء طائفة العلماء والمجاورين ولهم نفوذهم وأوقافهم ، ويتولى رئيسهم « شيخ الجامع الأزهر » الإشراف على نظام الدراسة ، وهو الرئيس الروحى الأكبر للمسلمين فى مصر ، ومن وراء هؤلاء طائفة الأجناد ، الذين يتكون منهم الجيش .

وفى ظل الحكم العثمانى نجد أن سكان مصر جميعاً كانوا يعدون رعية لتركيا مغلوبة على أمرها،أما السادة فهم طبقة الحكام من الأتراك والمماليك الذين لا هم لهم إلا الثراء من أية سبيل .

٢ — وقد حرصت الدولة العثمانية على أن تعزل مصر عن شتى التيارات الفكرية والعلمية التى كانت تزخر بها الحياة فى ذلك الوقت .وفى ظل الحكم العثمانى أهملت وسائل الرى ، فضعفت الزراعة ، وأجدبت الأرض ، وأهمل الحكام كذلك شئون الأمن ، وتدهورت الصناعة، وانتشر الجهل ،وأغلقت المدارس، وانتشرت الخرافات ، ولم يبق مشعل من نور يضىء للناس إلا الأزهر الشريف .

٣ — وقد ساءت الحياة الاقتصادية فى مصر فى ظلال الحكم العثمانى ، وفرضت الضرائب الباهظة على السكان فأرهقتهم إرهاقا شديداً ، وحل الجدب بالبلاد ، فصارت أخصب البقاع فلوات جرداء ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة ولم يكن لأحد فى مصر ملك أو حق فى الوراثة ، والحكومة هى المالكة لكل شىء ، وكانوا لا يسمحون للفلاح إلا بما يمسك به رمقه .

وضاعت الحريات الشخصية والحرمات ، وكان أفراد الشعب يطرحون أرضاً فيجلدون أو يقتلون دون أية محاكمة .

الحياة الثقافية :

نفى العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية (١) وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية .

وما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة فى مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثرة من أعلام القرن التاسع الهجرى المصريين مثل : المقريزى ، والسيوطى ، والسخاوى وابن إياس ، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمى .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر عقب الفتح التركى ، كما

---

(١) فى كتاب ابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى فصل خاص يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصرى ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور واختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت مزدهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية لم تكن تدرس به فى أواخر القرن الثانى عشر وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) فى نقاشه للشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر يومئذ وأنكره فى حديث أورده الجبرتى (١) مما يدل على ما آلت إليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركى من الركود .

وكان من بين الأساتذة الذين كانت لهم حلقات فى الجامع الأزهر فى أوائل العصر العثمانى : نور الدين على البحيرى الشافعى المتوفى عام ٩٤٤هـ ، والعلامة شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠هـ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى سنة ٩٥٠هـ ؛ والإمام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة (٢) .

---

(١) عجائب الآثار .

(٢) راجع : الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ، وهو محفوظ بدار الكتب

وكان منهم فى أواسط العصر العثمانى: عبد الباقى الزرقانى المالكى المتوفى عام ١٠٩٩ هـ؛ وابراهيم البرماوى المتوفى عام ١١٠٦ هـ، والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى جد المورخ وقد توفى عام ١١١ ، والعلامة عبد الحى الشرنبلالى المتوفى عام ١١١٧ هـ ، ومن شيوخ الأزهر فى هذا العصر : الإمام الخرشى ١١٠١ هـ والنشرتى م ١١٢٠ هـ ، والشيخ الشبراوى م ١١٧١ هـ، والشيخ الحفنى م ١٨١١ هـ، والشيخ عبد الله الشرقاوى .

أشهر العلماء والأدباء :

١ — البديعى ، (١٠٧٣ هـ) هو يوسف البديعى الدمشقى . خرج من دمشق فى صباه ، وحل فى حلب وذاعت شهرته . ومن مؤلفاته ، هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام — والصبح المنبى (١) .

(٢) البغدادى (١٠٩٣ هـ) هو عبد القادر بن عمر البغدادى نزيل القاهرة وكان فاضلا بارعاً واسع الإطلاع على كلام العرب نظماً ونثرا ، وكان يحفظ مقامات الحريرى وكثيراً من دواوين العرب ، وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار والطرائف البديعة . خرج من بغــــداد إلى دمشق وتردد على القاهرة . وأخذ العلوم الشرعية والعقلية عن الشهاب الخفاجى وغيره . ومن أشهر كتبه : خزانة الأدب ولب لباب العرب ، وهو شرح لشواهد شرح الكافية يتضمن تراجم كثير من الشعراء والأدباء ، وهو من المراجـــع

---

(١) خلاصة الأثر ٤ : ١٠ .

النافعة(١) وكان البغدادى غزير المادة ؛ محباً لاقتناء الكتب ، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب النادرة .

٣ — ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر : الزبيدى وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضى الحسينى الزبيدى ، ولد سنة ١١٤٥ هـ ، ونشأ باليمن ، ورحل فى طلب العلم فنزل مصر عام ١١٦٧ هـ . واشتهر أمره وذكره بين العلماء والأمراء وألف رحلات لأسفاره ، ثم تجرد لشرح المحيط فأتمه فى سنين عديدة ، وسماه « تاج العروس » ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته فى جامعه ، أوعز إليه أن يقتنى تاج العروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم ؛ وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكردية ، وقد عول فى شرح القاموس على لسان العرب ، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفل عن ذكره من المفردات اللغوية . ومن مؤلفاته ، « إتحاف السادة المتقين » وهو شرح لإحياء العلوم للغزالى وتوفى سنة ١٢٠٥هـ .

٤ — المحبى (١٠٦١ — ١١١١هـ) هو محمد أمين المحبى ابن فضل الله ابن محب الله بن محمد محب الدين . ولد فى دمشق ونشأ بها ثم سافر إلى الآستانة وأدرنة وانتقل إلى القضاء بها . ومن مؤلفاته: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

٥ — المقرى المتوفى عام ١٠٤١ هـ ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، تعلم بفاس ومراكش ، ثم نزل القاهرة ، وتزوج بها ، وحج

(١) خلاصة الأثر ١٠١:٤٥ .

خمس مرات وأشهر مؤلفاته : نفح الطيب ، فى غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وهو فى أربعة مجلدات : ففى الأول والثانى : وصف الأندلس ، وبين محاسنها ، وما امتاز به أهلها من توقد الذهن وحرص على العلوم ، ثم تناول فتح المسلمين لها ، وما تعاقب عليها من الدول ، وذكر من رحل منها إلى المشرق ، ومن نزح إليها منه . وفى الجزأين الثالث والرابع ، ترجم للسان الدين بن الخطيب ، وتوسع فى ذلك ما شاء ، فذكر آباءه وشيوخه ، وروى شعره ونثره وفصل تصرفه وما ختمت به حياته . وهى ترجمة مطولة لم يعهد فى العربية ترجمة مثلها فى الطول ، اللهم إلا ما كان من سيرة رسول الله ﷺ ، وهذا إسراف من المقرى ؛ لأن الإعجاب بنبوغ ابن الخطيب لا يصل إلى هذا الحد من الإفراط والإسهاب .

٦ — ومن أعلام هذا العصر الجبرتى ١١٦٧–١٢٣٧ هـ ١٧٥٣–١٨٢٤م، وهو مؤرخ مصر فى العصر التركى وأوائل حكم محمد على ، شهر بكتابه المشهور الذى يقع فى أربعة مجلدات كبار .. وفكرة كتابة التاريخ أو عزبهـا إلى الجبرتى أستاذه الشيخ مرتضى الزبيدى صاحب قاموس « تاج العروس » ولكن الشيخ مرتضى مات بالطاعون سنة ١٠٠٥ ولم يستفد من فكرته . وازدحمت الأحداث بعد ذلك فجاءت الحملة الفرنسية وأعقبها الإنجليز والأتراك وعمت الفوضى من جديد إلى أن تولى محمد على مصر عام ١٢٢٠ ، وكان الجبرتى قد تجاوز الخمسين من عمره فراح حينئذ يفكر فى كتابة تاريخه الذى راودته فكرته منذ خمس عشر سنة فجمع ما كان تناثر عنده من أشتات المثات

الأوراق والكراريس وشرع يدون أحداث المائة التي سبقته على ما هو معروف حتى وصلها بالأحداث التي عاش في مدتها ، ثم بقي يتتبع الأمور عشرين سنة لا يني تحريراً وتحبيراً . وتنقيباً وتنقيراً . وقد وصف هو نفسه طريقة كتابته حيث قال ، « إني لم أعثر على شيء من تراجم المتقدمين من أهل هذا القرن ولم أجد شيئاً مدونا في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط ، وما وعيته في ذهني ، واستنبطته به بعض أسانيدهم ، وإجازات شيوخهم . على حسب الطاقة » ، وقال في مكان آخر : « ولم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، وإنه مطلع على أمري وحدسي » . وهو يؤكد دائماً أن روايته : « بحسب التيسير ، إذ التفصيل متعذر ، وجمع الشوارد في الظلام متعسر ، وذلك بحسب الإمكان ، وما وعاه الفكر والذهن خوان » .

وتاريخ الجبرتي هو تاريخ عربي مصري شرقي ، فهو يأتي مباشرة في الترتيب بعد المقريزي وابن إياس ، ولو لم يقيض الله الجبرتي لهذه الفترة من الزمن لما علمنا اليوم أنباءها إلا من مراسلات قناصل الدول وتجار الإفرنج وهم إنما يكتبون حسب أهوائهم وينهجون الخطط التي رسمتها لهم دولهم في تقصي الحوادث والنظر إليها والحكم عليها . وحسب الجبرتي فخراً أنه أطلعنا على حقائق راهنة من وجهه نظرنا نحن ، أما عن غير الحوادث فقد ساير الحركة الإقتصادية والحياة الخاصة وصور العادات والرجال أحسن تصوير ، وأرخ للقاهرة وشوارعها ومتنزهاتها وقصورها وجال جولة واسعة واسعة في كل مرافق البلاد ، فهو إذن صورة صحيحة لعصره .

إن لكتاب الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » أثراً كبيراً فى تاريخ مصر ، وقد أرخ فيه الجبرتى لمصر فى القرن الثانى عشر ولست وثلاثين سنة من سنى القرن الثالث عشر ، مؤرخاً للأحداث يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى . ويختم الكلام على كل سنة بذكر من مات فيها من العلماء والأدباء والأمراء ، وله كتاب آخر هو : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » .

بعض مجالس الأدب فى العصر العثمانى :

كانت أمور مصر فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى قد خلصت إلى اثنين من الزعماء : أحدهم الأمير إبراهيم ، والآخر الأمير رضوان . وقد أصبحا صاحبى الأمر فى البلاد لا ينازعهما إلا المنافسون فى دخائل صدورهم ، وأما ظاهر الأمر فلم يكن لهما فيه شريك . حتى إن الباشا العثمانى الذى كان يمثل السلطان لم يكن له إلى جانبهما أمر ولا نهى . وكان لكل من هذين الأميرين اتجاه يتجه إليه فى رياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان ، وقائد الجيوش ؛ ومدبر السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب ، وقبلة القصاد ؛ وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين ، نقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفاً . وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة ، ويخلع عليه الفن المصرى رواءه ، وتجتمع فى أبهائه هامات العصر من الأدباء والعلماء ، وقد كان بمصر حينئذ أدباء وعلماء كثيرون على الرغم مما كان من يتهم به هذا العصر بالظلمة والانحطاط .

وهناك على ضفة الخليج المصرى كما يقول بعض المؤرخين اشترى رضوان داراً من أحد أكابر التجار ، كانت واقعة على الأزبكية ، وموضعها اليوم ما يلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا ، وكانت تلك البركة إذ ذاك متنزهاً من متنزها القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . وكان للأمير رضوان فوق ذلك فى الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة ، منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال

على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج القاهرى مما يلى قنطرة الدكة . وقد نسق الأمير قصريه أبدع تنسيق ، وجعل لهما حدائق فسيحة نقل إليها بديع الزهر والشجر ، وأقام فى أركانهـا الجواسق الجميلة . وجعل فى جوانب الحدائق مما يلى البركة قناطر تجرى المياه من تحتهـا ، واتخذ فوق تلك القناطر مجالس للنزهة والاسترواح ، أما داخل القصور فكانت القباب العالية المحلاة بذوب العسجد ، واللازورد ، والزجاج الملون ؛ وقد نقشت أعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها وكانت الأنوار تسطع فى هذه القباب فى أثناء الليل ، فتكاد تخطف الأبصار من بهائها وروائها .

وفى هذه الأبهاء التى تأخذ بمجامع القلوب كان يجتمع أدباء العصر وأعيان العلماء يتسامرون فى حضرة الأمير ، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر فى حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد . وكان من هؤلاء أديب العصر الأعظم : قاسم بن عطاء الله المصبى ، وصديقه مصطفى أسعد الدمياطى ، وإلى جانبيهما مجمع باهر من شيوخ وشبان ، بعضهم للجد والوقار كالشيخين : النبراوى والحفنى ، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الأنبوطى المشهور فى الهجاء .

اجتمع مجلس الأدباء يوماً فى القصر ، وإذا الأمير يسأل عن أحدهم فلا يجده قال : « أين ابن الصلاحى ، » ولم يكد ينتهى من سؤاله حتى رد فى جانب البهو صوت جهورى ينشد :

شاق طرف السرور طرف الربيع ◦ فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـ ◦ طل من در قطره بالدموع

فالتفت الجلوس كلهم نحو القادم فإذا هو الذى كان يسأل الأمير عنه وصاح الشيخ عامر قائلا : « لقد ذكرنا القط . . . » فضحك الجمع ولم يمتنع عن الضحك الأمير ، وجلس الأدباء بعضهم إلى بعض فى أنحاء البهو الأعظم من قصر رضوان،وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصرى جوانبه من الخشب المخروط تكتنفه وتتخلله رسوم من العاج والأبنوس والصدف ، وقد كسيت جوانب السرير بالحرير الملون البديع ، تتغير ألوانه فى ضوء المصابيح المتألقة كما تتغير الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام القرمزى الداكن .

واتجه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عطاء ، وأقبل عليه باسماً ، وقال له: « ماذا جئت به اليوم ياابن عطاء ؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار البستان ، فقلت فى نفسى لا بد أنك ستتحفنا اليوم بشىء جديد » .

فابتسم الأديب وقال : « الحق ما تقول أيها الأمير ، دامت نعمتك ، وأقر الله بك ، ومنينا ببقائك ، وعلو دولتك » .

فقال له الأمير : » إذن فهات ، فأنشد يقول :

بكت بدمع الحال عين النرجس   فأضحكت ثغر الأقاح الألعس

واستمر فى مزدوجته يصف البستان حينا والماء حينا . ثم تخلص إلى ذكر الحب على سنة الأقدمين من الشعراء ، ثم إلى مدح رضوان فقال :

دع علة التعليل بالأمانى   واقصد حمى الموصوف بالأمان

وأنف لباس البؤس والأحزان   واسأل عن النعيم من رضوان

سل ما تريد ، لا تخف من ود

إلى أن أكمل مدحته بين اهتزاز الأمير وإعجاب السامعين .

الحياة الأدبية فى العصر العثمانى

كانت الحياة الأدبية فى عصر المماليك ـ على الرغم من العوامل التى تعوق أطراد سيرها ـ أقوى منها فى العصر العثمانى ، وكانت الاداب العربية فى ظل سلاطين المماليك أرسخ قدما ، ذلك لأسباب كثيرة :

١ — كانت القاهرة فى العصر المملوكى هى عاصمة مصر وقلب العالم الاسلامى ، والصبغة العربية للقاهرة واضحة ظاهرة . أما العصر العثمانى فقد كانت عاصمة العالمين العربى والاسلامى هى استامبول التى لايلمس أحد لها صبغة عربية .

٢ — كانت اللغة العربية فى عصر المماليك هى اللغة الرسمية للدولة بها يتكاتبون ويتخاطبون ، وبها تكتب الأوامر والمنشورات السلطانية . . أما فى العصر العثمانى فقد كانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية .

٣ — كان المماليك يشجعون الأدب والثقافة ، تشجيعا ظاهرا ، إن قليلا أو كثيرا ، فكانوا يأخذون بناصر العلماء والأدباء ، أما الأتراك فكان اهتمامهم بكل ذلك أقل ، وعنايتهم أضعف .

٤ — ظهرت آثار العصر المغولى فى الأدب فى العصر العثمانى ، وهى آثار ونتائج ليست فى صالح الأدب ، أما فى عصر المماليك فقد كانت آثار العصور السابقة تظهر بوضوح فى الاداب ، وهى عصور قوة للادب ، وازدهار لفنونه .

٥ — كانت بيئة الأدب العربى فى عصر المماليك هى مصر ، والشام ، ومايليها من مواطن للادب فى العالم العربى ، وقد ظهر بعض الشعراء والأدباء

فى بلاد فارس وماوراءها ، ومع استمرار الحركة الأدبية فى الأندلس . .
أما فى العصر العثمانى فقد تمكن الضعف من النفوس وفسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح ، فلم ينبغ شاعر مشهور خارج البلاد العربية : لأن بيئة الأدب قد انكمشت انكماشا ملموسا . فانحصرت فى مصر والشام وحدها .

وبتأثير ذلك كله فترت الحركة الأدبية فى العصر العثمانى ، ووهت قوتها فكان هذا العصر أضعف العصور الأدبية فى العالم العربى . . الحركة الثقافية هرمت والنثر الفنى تخاذل حتى أوشك أن يكون أسلوبه علميا ، والشعر كذلك أصابه ما أصاب النثر من وهن وانهيار ، وأصبح الأدب لايجد رعاية ولا عناية ، والأدباء لايلقون تشجيعاً أو تكريما ، وهكذا كسدت بضاعة الأدب ؛ وامتحن الأدباء امتحانا شديداً ، وقد وصف ذلك صاحب « العقد المنظوم فى أفاضل الروم » المتوفى عام ٩٢٢ هـ فقال : « قد انتهيت إلى زمان يرون ـ أى يرى أهله الأدب عيباً ، ويعدون التضلع من الفنون ذنباً ، وإلى الله الشكوى من هذا الزمان » .

وقد اضطرت الظروف كثيرا من الأدباء إلى الاقامة فى المملكة العثمانية أو الرحلة إليها ، وبقى جيد مصر والشام عاطلا من الأدباء الأعلام ، والشعراء الموهوبين ، والكتاب المشهورين ، على أن حال المملكة العثمانية لم يكن أحسن من حالها فى مصر والشام فى الثقافة والأدب فى هذه الفترة ، فقد كان الجهل فيها فاشياً ، حتى إن القاضى المصرى الشهاب الخفاجى يقول : « ولما عدت إلى القسطنطينية رأيت تفاقم الأمر ، وغلبة الجهل ، فذكرت ذلك للوزير ، فكان ذلك سبب عزلى وأمرى بالخروج من تلك المدينة (١) .

(١) ١٧٣ الريحانة للشهاب الخفاجى .

وكان الأدب التركي في هذا العصر يمر بفترة امتدت قرنا من الزمان ، نفق فيها سوق الأدب الفارسي ، وانصرف الأدباء الترك عن التركيات إلى الفارسيات فأفعموا لغتهم التركية بكثير من الألفاظ الفارسية ، وأصبحت التركية لايفهمها الا الخواص من الناس يكتبون وينظمون لأنفسهم دون سواهم ، وهكذا طغى ركود نسبي على الأدب التركي ، فكان صدق العاطفة يعوز الشعراء (١) .

---

(١) راجع ١٧٠ ومابعدها تاريخ الأدب التركي تأليف حسين مجيب المصري ١٩٥١ .

شأن اللغة العربية فى العصر العثمانى

تدهور اللغة وضعفها فى هـذا العصر :

كان الفتح العثمانى للعالم العربى نـكبة قاسية منى بها العرب ، وتأثرت بها أى تأثر لغة العرب . فلقد بادر الأتراك فأقصوا اللغة العربية عن مكانها ، وأخروها عن منزلتها ، وجعلوا اللغة التركية هى اللغة الرسمية لدولتهم فى كل أنحاء البلاد العربية بعد أن كانت اللغة الرسمية فى عصر المماليك هى اللغة العربية ، التى كانت تـكتب بها مراسلاتهم ، وتسجل بها عهودهم ، ويدون بها كل ما يتطلبه فى العمل دواوينهم .

وقد كان لإقصاء اللغة العربية عن أعمال الحـكومة أثر فى فتور العزائم ، وضعف الهمم ، وقلة الرغبة عند المتأدبين فى تحصيل علومها ، والاطلاع على كنوزها ، وفى انعدام الحرص على تحصيل ملـكتها ؛ ولم يقبل العثمانيون على على تعلم اللغة العربية اكتفاء منهم بلغتهم ، فأصاب العربية فى هذا العصر ما أصابها من شيوع اللحن واللـكنة والفهاهة ، ومن غزو العامية لها غزوا مؤثراً . . بل إن اللهجة التركية أثرت فى ألسنة أهل مصر تأثيراً كبيراً ، وكذا فى ألسنة الشعوب العربية ، وذاع كثير من الألفاظ التركية على الأفواه ، وتدوولت فى الـكلام وظهرت فى الأساليب ، وخاصة ما كان من هذه الألفاظ يمثل مناصب أو رتبا أو ألقاباً حكومية ، مثل : سعاد تلو ، وفخا متلوا ، وفضيلتلو . ومثل : جاويش ، وصول ، ويوزباشى ، وكذلك ما كان من

هذه الألفاظ يعبر عن أمكنة مثل : أجزاخانة وسلخانة ، وكتبخانة ، أو عن حرف وصناعات ، مثل قهوجى وجزمجى ومطبعجى ومسكوجى ، وغير ذلك ، مما منيت منه اللغة العربيـة بالعى الأكبر ، ولا زلنا نحاول التخلص منه حتى اليوم .

وقد تقبع انتشار العى واللكنة على الألسنة أن حرف الناس فى هذا العصر بعض الألفاظ العربية تحريفاً ظاهراً ، فنطقوا كلمة « جوش » فقالوا فيها « جوشن » وكلمة « خوسن » حرفوها إلى « هويس » .

وهكذا عزلت اللغة العربية عن الحياة ، وإن بقيت لغة الدين والعلم والأدب .

اللغة العربية والتعليم :

فى العصر العثمانى أغلقت المدارس والمعاهد ، وأصابت الحياة العلمية فى مصر والشام نكسة خطيرة ، فقد انهارت الحياة الاقتصادية واضطرب الأمن واستشرى الفساد ، فى ظل الحكم العثمانى ، ونهب بعض الولاة الأوقاف المحبوسة على العلم والعلماء ، فعجز الطلاب عن الانقطاع للتعلم ، ولم يجد المدرسون من التشجيع ما يحملهم على التفرغ والإفادة ، ومن ثم تفرق الطلاب ، وانصرفوا عن أبواب التعليم وخمدت جذوة الحركة الثقافية ، ولم يبق فى مصر الا منارة واحدة ، تضىء عقول الناس وقلوبهم ، وهى الأزهر الشريف ، ومع ذلك فقد تناقص عدد طلابه وضعفت حلقاته العلمية ، ولكنه بقى مع ذلك منارة هادية يحمل رسالته الروحية والثقافية . ويؤديها فى قوة وعزم وتصميم .

وقد كان الاتجاه منصرفا إلى العلوم الدينية والعربية فحسب ، وكانت لغة التعليم هي العربية التي خالطها الدخيل ، وأفسدها العي ، ولكنها العامية ، ومع ذلك فقد كانت الأساليب العربية تجرى على الشفاه ، وتنطق بها الألسنة ، وكانت لغة الكتب المؤلفة ضعيفة سقيمة ، يكثر فيها الخطأ ، ولا تستبين منها قصد المؤلف أو معناه ، وكثيراً ما تكون لغة التأليف هى العامية .

لذلك كله نجد أن اللغة لم تزدهر فى حلقات التعليم ، كما أنها لم تزدهر فى الحياة العامة كما عرفنا من قبل .

اللغة العربية والتأليف :

ضعفت فى هذا العصر المواهب ، ووهت الملكات العلمية ، ووهنت قوة العلماء ومثابرتهم ، ولم يجدوا نصيراً أو مشجعاً ، وأثر ذلك على حركة التأليف والتدوين تأثيراً بيناً :

فأصبحت لا تكاد نجد أحداً يسد الفراغ ، الذى أوجده الفتح العثمانى ، من العلماء المشهورين ، أو المؤلفين الممتازين ، وقل نتاج العلماء ، وأصبح عملهم تافها ضئيلا ، قاصراً فى أغلب الأمر على اختصار المطولات ، أو شرح المختصرات .

وقد ذاع فى هذا العصر التقليد ، وأقفل باب الاجتهاد ، وكثرت الأساطير والخرافات والشعوذات ، والطلاسم والسحر ، والنوادر ، ومنها نوادر الحشاشين . وكثر التأليف فى هذه الموضوعات ، كما كثرت كتب التمائم « والأحجبة » ، والكتب الماجنة الخليعة .

ومع ذلك فقد ظل العلماء ، وخاصة علماء الأزهر الشريف ، يتابعون السير في ميدان التأليف ، والنشاط العلمي ، ولكن على وهن وضعف ، وكانت تآليفهم على الأكثر تدور حول العلوم الإسلامية والعربية أو الكتابة في التاريخ .

وقد غلب على مؤلفات هذا العصر ما يلي :

أولا : قلة الابتكار والتجديد ، والاكتفاء بالشرح أو التلخيص للكتب المشهورة ، والمتون والشروح المعروفة .

ثانيا : قلة التحري ، وانعدام الدقة ، وكثرة المبالغات ، وكثرة المبالغات ، وتحريف الروايات ، والخطأ العروضي في رواية الشعر والجهل في أكثر الأمر بقائليه .

ثالثا : مخالفة أساليب التربية السليمة في التأليف للطلاب والمتأدبين والناشئين .

رابعا : ضعف أسلوب التأليف ، وهبوطه إلى مستوى العامية ، وأكثر ما يكون في المؤلفات في التاريخ ، من مثل تاريخ ابن إياس ، وتاريخ الجبرتي .

خامسا : مؤلفات هذا العصر أكثرها مختارات مختلفة من كل فن وموضوع وترى ذلك ماثلا في كتابي الكشكول والمخلاة للعاملي م ١٠٠٣ هـ

سادسا : أكثر مؤلفات هذا العصر ، إما متون أو شروح أو حواش أو أو تقارير على الحواشي وقد سمى بعض الباحثين هذا العصر « عصر الشروح والحواشي » كما سمى عصر المماليك « عصر المجاميع والموسوعات » .

أشهر العلماء والمؤلفين :

نبغ فى هذا العصر علماء ومؤلفون ، كانت لهم شهرة علمية وأدبية فى عصرهم ، وسوف نذكر طائفة من هؤلاء العلماء على سبيل المثال والإيجاز .

١ — نبغ فى علوم اللغة : الشهاب الخفاجى م ١٠٦٩ هـ صاحب شفاء العليل بما فى كلام العرب من الدخيل » ، وشرح درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ، و «طراز المجالس » وسواهما .. وكذلك نبغ فى هذا العصر عبد القادر البغدادى م ١٠٩٣ هـ صاحب كتاب .« خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .والسيدمرتضى الزبيدى(١١٤٥—١٢٠٥هـ)مؤلف تاج العروس ، ومحمد الصبان صاحب الحاشية على شرح الأشمونى على الألفية ، وسواهم .

٢ — وألف فى الأدب كثير من العلماء والأدباء ، منهم: الشهاب الخفاجى مؤلف « ريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا » « وخبايا الزوايا بما فى الرجال من البقايا » .. ويوسف البديعى الدمشقى م ١٠٧٣ مؤلف كتابى « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » ، و « الصبح المنبى عن حيثية المتنبى .. ودرويش الطالوى الدمشقى م ١٠١٤ هـ مؤلف كتاب « سانحات دمى القصر فى مطارحات بنى العصر .. والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر م ١١٧٢ هـ صاحب كتاب « عروس الآداب » ، وعنوان البيان » ،وحسين الأنطاكى م ١١٣٠هـ مؤلف كتاب « روض الأدب » ، وعمر الحلبى الشماع م نحو ٩٤٠ هـ مؤلف كتاب « سفينة نوح ، وابن معصوم م ١١٠٤ هـ مؤلف « سلافة العصر فى

محاسن أعيان العصر » والمقرى م ١٠٤١ هـ مؤلف « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .

٣ — وفى التاريخ ظهر : المحبى الشامى م ١١١١ هـ مؤلف كتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، والمرادى الدمشقى م ١٢٠٦ هـ مؤلف كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، والديار بكرى م ٩٨٥ هـ مؤلف كتاب « الخميس فى أحوال أنفس نفيس » وطاش كبرى زاده م ٩٦٨ هـ مؤلف كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » ، وحاجى خليفة م ١٠٠٨ هـ مؤلف كتاب « كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون » ، وعبد الغنى النابلسى م ١١٤٣ هـ وله ذيل نفحة الريحانة ، والحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز ، والتحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية .

٤ — ومن المؤلفين فى فن الموسوعات والمجاميع ، بهاء الدين العاملى م ١٠٠٣ هـ مؤلف ، الكشكول والمخلاة .

٥ — ومن المؤلفين فى علوم الدين : عبد الرؤوف المناوى م ١٠٣١ هـ ، ونور الدين الأجهورى م ١٠٦٦ هـ من شيوخ الأزهر المالكية ، وعبد الوهاب الشعرانى م ٩٧٣ هـ وله كتب كثيرة فى التصوف منها : اليواقيت ، والجواهر ، والطبقات الكبرى ؛ وسواها ، وشمس الدين الشربينى الخطيب م ٩٧٧ هـ وله تفسير كبير وكتب فى الفقه الشافعى .

٦ — ومن المؤلفين فى العلوم العقلية والطب وغيرها : داود الأنطاكى م ١٠٠٨ هـ صاحب كتابى (التذكرة فى الطب ، و تزين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) ، والهروى وله كتب فى الغناء ، والأخضرى وله كتاب السلم فى المنطق .

الكتابة الفنية في العصر العثماني

كانت الكتابة الفنية فى عصر المماليك موشاة بحلى اللفظ ومحسنات البديع، مثقلة بقيود الأداء اللفظى ، مع ازدهار اللغة ، وتشجيع المماليك ، وقيام ديوان الإنشاء .

فلما جاء العصر العثمانى ، لم يكن للأدب من يشجعه ، ولا للغة العربية من يعطف عليها ، وأغلق ديوان الإنشاء ، وسادت التركية والعامية ، وذهب مجد العربية وعظمتها ، وأثر كل ذلك فى الكتابة الفنية فأورثها ضعفا ووهنا ، وزادت قيودها الفنية التى أكسبتها سقما وتخاذلا ، وأصبحت مجرد ألفاظ لا تكاد تفهم منها معنى ، ولا تستقبين منها فكرة ، ولا تهتدى بها إلى غاية ، وجنى إهمال الملكات والجهل بأصول الكتابة على أسلوبها الذى صار مزيجاً من العامية والعربية ، واستعمل الكتاب الألفاظ التركية تظرفا وتأثراً بلغة الحاكمين ، وأصبح التقليد هو البلاغة وعجز الكتاب عن أن ينشئوا أدبا نابعا من أعماق النفس ، مصورا لمشاعر الكاتب ووجدانه وعواطفه وأخذ بعض الكتاب ينشئون نماذج قيمة مختلفة من الرسائل ، ليكتبها من يريد هذا الموضوع أو ذاك ، ومن أمثلة ذلك كان بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات للشيخ مرعى ١٠٣٠ هـ ، ثم كتاب إنشاء العطار لشيخ الإسلام الشيخ حسن العطار م ١٢٥٠ هـ ، وهما يجمعان ألوانا من الرسائل فى الشوق والشكوى والتهنئة والتعزية والعتاب والوصف والمدح وسواها من الموضوعات وقد ذاعت هذه الكتب وتداولها الناس ، وصارت كذلك مصدر خطر على الكتابة الفنية البليغة .

وقد تميز أسلوب الكتابة فى الركاكة ، والحرص على المبالغة وعلى البديع والحلى اللفظية المتكلفة من تورية واستخدام وجناس واقتباس . وأقفرت الكتابة من المعانى اللطيفة ، والفكرة السرية ، والخيال البدع .

وقد أصبحت موضوعات الكتابة محدودة ، فكتابة الرسائل الديوانية أصبحت بالتركية .

واقتصرت الكتابة على الرسائل الإخوانية، وعلى الرسائل الأدبية، وعلى التأليف فى الموضوعات التاريخية والعلمية وما إليهما ؛ وقد ظل الكتاب يكتبون المقامات ، ومن بينهم الشهاب الخفاجى ، ويوسف الحفنى المصرى م ١١٧٨ ﻫ ، وله مقامة المحاكمة بين المدام والزهور ، وابن سلامة المصرى م ١١٨٤ ﻫ وله مقامة اسمها المقامة الإسكندرية ، ولأحمد بن إبراهيم الرسمى م ١١٩٧ ﻫ المقامة الرلالية ، ولحمد بن قانصره خمس مقامات فى الأدب والشعر والحديث . ولكن أسلوب المقامات فى هذا العصر هو أسلوب الكتابة الذى قدمنا إليك وصفه ، وعرفناك بما أثر فيه وما جد عليه من خصائص ومميزات .

* * *

ويمكننا أن نلخص أسباب ضعف الكتابة فيما يلى :

١ — عدم تشجيع الولاة من الأتراك للكتاب والأدباء لجهلهم بالأدب وبالعربية .

٢ — انصراف الكتاب عن الكتابة .

٣ — ضعف الثقافة وركود القرائح والأذهان .

٤ — اهتمام الكتاب بالمحسنات البديعية اللفظية اهتماما فاق كل اهتمام .

٥ — جعل التركية لغة رسمية .

٦ — إغلاق ديوان الإنشاء

وأشهر الكتاب في هذا العصر هم : الشهاب الخفاجي ، وأبو العباس المقرى ، وعبد الوهاب الحلبي ، وسواهم .

* * *

وهذه صور للكتابة الفنية في هذا العصر :

١ — قال الشهاب الخفاجي في ترجمة الرئيس داود الحكيم(١) :

ضرير بالفضل بصير ، كأنما ينظر ما خلف ستارة الغيب بعين فكر خبير ، لم تر العين بل لم تسمع الآذان ولم تحدث العقول بأعجب من مسائله الركبان ، إذا جس نبضاً لتشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر كل غرض ، فيفتن الأسماع والأبصار ، ويطرب بجس النبض ما لا يطربه حسن الأوتار .

---

(١) هو داود بن عمر الحكيم صاحب كتاب تذكرة أولي الألباب في الطب وتوفى عام ١٠٠٨ هـ .

يكاد من رقة أفكاره يحول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم

فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وله فى كل علم سهم مصيب على تهذيب التهذيب ، وكنت قرأت عليه الطب وغيره فى سن الصغر ، فسمعت منه ما يغار له نسيم السحر ، ويطرب من لطفه نغمات الوتر ، ينثر فيه نثار العلوم ، على عرائس المنثور والمنظوم (١) .

٢ — ومما كتبه عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى :

« لقد طفحت أفئدة العلماء بشراً ، وارتاحت أسرار الكاتبين سراً وجهراً ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيمن قدوم من أخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » .

وهذا كلام لا يحتاج إلى تعليق ، ففيه أن البحار تغرق ، وفيه أن الفضائل تطير ، وفيه أن للتحقيق رياضا ، إلى غير ذلك من اللغو والسخف والمبالغة وكد الذهن وتكلف البلاغة .

---

(١) ريحانة الألبا ص ٢٧١ .

صور من الشعر فى هذا العصر :

١ — للشهاب الخفاجى : يتغزل ويتطرق إلى مدح محمد بن القاسم الحلبى:

حتام يغزونى صدوده   والصبر قد كثرت جنوده(١)
لم أدر فاتر جفنه   والخصر أسقم أم عهوده ؟(٢)
نشوان يعبث بى كما   عبثت بآمالى وعوده(٣)
لولا مياه الحسن جا   لت فيه لاحترقت خدوده
كالصب لولا دمعه   يهمى لأحرقه وقوده(٤)
يخفى الهوى وعيونه   بغرامه المضنى شهوده
فسقى رياض الحسن من   دمعى حيا يهمى مديده(٥)
زمن بجيد اللهو قد   نظمت على نسق عقوده(٦)
إذ دوح أنسى يانع   بكئوسها انفتحت وروده(٧)

---

(١) حتام أصلها (حتى ما) فحذفت ألف ما الاستفهامية لجرها بحتى يغزونى: يسير إلى قتالى وانتهابى . والصدود : الإعراض .

(٢) جفن فاتر : غير حاد النظر ، والخصر : وسط الانسان.والعهود :المواعيد

(٣) النشوان ، السكران   (٤) الصب ، المشتاق الذى يكابد حرارة الشوق ، يهمى ، يسيل . وقوده : اتقاده واشتعاله .

(٥) الحيا ، المطر . المديد : الممدود المتصل .   (٦) نسق : نظام واحد.

(٧) الدوح : الأشجار العظيمة . والورود : جمع ورد .

والكأس نجم لاح في   فلك المسرة لي سعوده
يصغو فيحلى ذكر من   قد زين الدنيا وجوده
ذاك ابن قاسم الذى   ما زال في تعب حسوده

٢ — وقال محمد بن القاسم الحلبى يجيب الشهاب الخفاجى على قصيدته الدالية السابقة:

لاظبى لفتته وجيده   وللورد ما بدأت خدوده
والدر يزهو بالذى   - في ثغره منه نضيده(١)
وبوجهه شرك العقو   ل فأى عقل لايصيده؟(٢)
في كل يوم للهوى   من حسنه معنى يزيده
يستوقف الأبصار حتى   لا يسوغ لها وروده
ملك تحكم في الجما   ل فنال منه ما يريده
ما زال يسطو في الورى   من ذبل مقلته جنوده
حتى ظننا أنه   بالأجر آثره شهيده
يبدى الصدود وكلما   صانعته عنه يعيده (٣)
أتراه يجحد ما لقيت به   وهل يغنى جحوده
وهو النهار إذا بدا   من نفسه قامت شهوده

---

(١) النضيد: المتسق المرصع   (٢) الشرك: المصيدة.
(٣) صانعته عنه، أى حاولت أن أرده عليه، وأغريه بالوصل.

كضياء مولانا شهـا ب الفضل إذ طلعت سعوده
ما زال يسمو في سمـا ء المجد زينهـا وجوده ؟
حتى تقطعت المطـا مع عنه واستعفى حسوده
وقاد فـكر ، أى خطـاب ليس بفئة وقوده(١)
كرمت له همم إلى غير العلا ليست تقوده
ينثو على جيد الزما ن بمـا ينمقه فريده (٢)
من كل سجع من مزا يا الحسن قد نظمت عقوده
وإذا ذكرت الشعر فهمو كما سمعت به لبيده(٣)
قد كنت أجهد في ابتغـا ء لقـاء أيام تفيده
حتى وفت لى بالذى قد كان فى أملى وعوده
فلقيته البحر الخضـم يفيض للعـافين جوده
متدفقـاً الفضل تخشى أن يفرقهـا وفوده
مولاى ، عذراً إنهـا من خاطر قد جف عوده
بعدت بقول الشعر فى عهد الصبـا حينـا عهوده
ما ضره عبد فأى ما دام من لقيـاك عيده

٣ — وقال أحمد بن على العلقمى فى المدح :

---

(١) وقوده اتقاده (٢) الفريد ، صغار اللؤلؤ تفصل بين العقد المنظوم من اللؤلؤ والذهب ؛ ويريد الشاعر أن ما يكتبه الممدوح من نثر وشعر يكون كالعقد المفصل فى جيد الزمن (٣) لبيد : شاعر جاهلى وأحد أصحاب المعلقات .

بأبصارنا وجهك المذهب يكاد سنى برقه يذهب
وأشواقنا فيك لا تنقضى وشمس جمالك لا تغرب
وحبك فى الماء مستودع وأشربه كل من يشرب
وفى كل عين وقلب به مشير لك المنزل الأرحب
فذاتك جنة أهل النهى ونفسك عنصرنا أطيب
فمن غير نطقك لا نشتفى ومن غير ذاتك لا نطرب
وكم لك من رتب فى العلا تعالى العلا إذ لها ينسب(١)

٤ — ولابن النحاس الحلبى م ١٠٥٢ هـ:

طمئن فؤادك أى حر لم يرع لخطب إقلبه
ودع الملام فداء من عالجت فى التسليم طبه
لا تكثرن هلا فعلت عليه فالفعال ربه
المرء يصعب جهده ويلين بالمقدور صعبه
لا تتهمنى فالمؤا خذ فى الزمان التذلل أندبه
وأبيك من زمن الـــترغ رع لم يزل دأبى ، وأدأبه
ومن العجيب لدى اللئا م عطاؤه ولدى سلبه
أنا لا أبالى إن رميت وسب عرضى من أسبه
السيف يرمى بالفلو ل إذا قسا فى الحد ضربه

(١) أى العلا يشرف ويسمو إذا حصلت على رتبة عالية .

والعين يدمعها الذبا ب ويعجز الآساد دبه
والتبر يعلوه الترا ب ولا يضر التبر تربة
وأبيك ما نكب اللبيب وفكره باق ولبه

٥ — لعبد الله بن شرف الدين الشبراوى — وكان من شيوخ الأزهر وله ديوان شعر أغلبه فى مدح النبى وآله ؛ وشعره سهل ، وله غزل رقيق يتغنى به يدل على ذوق سليم وخفة روح ، وتوفى عام ١١٧٢ ﻫ ؛ يقـــول من مدائحه فى أهل البيت:

قال لى قائل رأيتك تهوى آل طه . ودائما ترتجيهم
كان حقا عليك تستغرق العمر مديحا فيهم وفيمن يليهم؟
قلت ماذا أقول والكون طرا يستمد الكمال من أيديهم ؟
أى معنى للمدح منى وقد جا ء الكتاب العزيز بالمدح فيهم؟
أنا لا أستطيع أمدح قوماً كان جبريل خادماً لأبيهم

ويقول فيهم أيضا :

آل طه ومن يقل آل طه مستجيراً بجاهكم لا يرد
حبكم مذهبى وعقد يقينى ليس لى مذهب سواه وعقد

---

(١) راجع ترجمة الشبراوى فى « الأزهر فى ألف عام» الجزء الأول للمؤلف، ص ٢٤١ الريحانة للشهاب الخفاجى ٧٣ ، ٨٧ و ٢٠٩ : ١ ، تاريخ الجبرتى ط ١٢٩٥ :

مدك أستمد بل كل من في الـ ... كون من فيض فضلكم يستمد
بيتكم مهبط الرسالة والوحـ ... ى ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم في العلا مقام رفيع ... ما لكم فيه آل ياسين ند
يا بن الرسول من ذا يضاهيـ ... ـك افتخاراً وأنت للفخر عقد
يا حسينا هل مثل أمك أم ... لشريف أومثل كد لك جد(١)

وله أيضاً :

بحقك أنك المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوة ... تحير في وصفها كل صب
أبيت أسامر نجـــم السما ... إذ لاح لى في الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلى في هوا ... ك إذا تم يا منيتى أو عتب
مولاى الله رفقاً بمن ... إليك بذل الغرام انتسب
فإنى حسيبك من ذى الجفا ... ويا سيدى أنت أهل الحسب
ويا هاجرى بعد ذاك الرضا ... بحقك قل لى : لهذا سبب؟
فإنى محب كما قد عهدت ... ولكن حبك شىء عجب
متى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب هذا الغضب
أشاع العذول بأنى سلوت ... وحقك يا سيدى قد كذب
ومثلك ما ينبغى أن يصد ... ويهجر صبا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذنى عند ذاك الطرب
ويعجبنى منك حسن القوام ... ولين الكلام وفرط الأدب

وحسبك أنك أنت المليح الكريم الجدود العريق النسب
أما والذى زان منك الجبين وأودع فى اللحظ بنت العنب
لئن جدت أو جرت أنت المر اد ومالى سواك مليح يحب

٦ — ولابن منجك — وفيه يقول الشهاب الخفاجى فى ريحانة الألباء : « الأمير محمد بن منجك الجركسى أصلا ومحتدا ، الشامى منشأ ومولداً ، أديب أريب ، ونجيب وابن نجيب ، أورق عوده بالشام وأثمر ، فإذا عدت السجايا عرضا فسجاياه جوهر ، نشأ بها والدهر أبيض أقر ، ونادم العيش ، والعيش أخضر ، لبس طبعه برد نسيمها الفضفاض ، كما لبس النهر الجارى ، درع النسيم السارى :

وقد نسجت كف النسيم مفاضة عليه وما غير الحباب لها حلق

وقد صحبنى بجلق ونسيمه سجسج ، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنسج ، ولازمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشبه الشىء منجذب إليه » .

وقد اختار له الخفاجى طائفة كبيرة من الشعر ، منها :

قصر الأمير بوادى النيربن سقى رباك عنى من الوسمى مدرار
كم مر لى فيك ، أيام هواجرها أصائل ولياليهن أسحار
حيث الشبيبة بكر فى غضارتها وللصبابة أحلاف وأنصار
حيث الرياض تغنينى حمائمها بالدف والجنك والمنثور لى جار

وقد توفى الشاعر عام ١٠٨٠ هـ

أشهر شعراء هذا العصر :

نبغ فى هذا العصر شعراء ، من أشهرهم :

١ — من شعراء مصر والشام : الشهاب الخفاجى م ١٠٦٩هـ ، الشيخ عبد الله الشبراوى م ١١٧٢هـ ، محمد بن أحمد الانكشارى م ١١٧٧هـ وقد نظم الأحداث التاريخية فى عصره ، على نمط ما كان يفعل الفرس والترك إبان ذلك العهد ، شمس الدين محمد الصالحى الهلالى م ١٠١٢ هـ وهو من شعراء الشام ، شهاب الدين النابلسى م ١٠١٤ هـ وهو من شعراء الشام أيضا ، ابن عبد الجواد الشربينى م ١٠٩٨ هـ وهو مؤلف كتاب « هز القحوف فى الشكوى والمحون » ، شرح فيه قصيدة أبو شادوف الجونية ، والشيخ عبد الله الشبراوى م ١١٧٢ هـ ، وأبو المواهب البكرى ، ومحمد القارضى وله مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد .

٢ — ومن شعراء العراق : ابن معتوق م ١٠٨٧هـ وعثمان العمرى م ١١٨٤هـ

٣ — ومن شعراء الحجاز ونجد : فتح الله النحاس الحلبى ، ومن شعراء اليمن : العدوى م ١١١٠ هـ :

وصف الشعر فى هذا العصر

١ — لم يكن حظ الشعر فى هذا العصر بأكثر من حظ النثر ، فقد ضعفت العناية به ، وقلت الرغبة فيه ولم يجد الشعراء راعياً لهم ، يصلهم بعطائه ، ويصلونه بمدائحهم ، لذلك انتهى التكسب بالشعر ، وعاش الشعراء فى فقر وشقاء ومحنة واشتغل أكثرهم بالتأليف .

٢ — وفى هذا العصر ظهر لشعراء الشام فضل على شعراء مصر ، بينما كان السبق فى ميادين الشعر فى العصور السابقة لشعراء مصر إذ كانوا أكثر تفوقاً وأعظم تجويداً وإجادة ، بل كانوا قادتهم فى المعانى وسادتهم فى سلامة الذوق وحسن السبك وجمال السجع ، وفى استواء الملكة الشعرية وانسجام الكلام .

وكان للشعر فى هذا العصر مميزات ظاهرة فى معانيه وأخيلته وألفاظه وأسلوبه وفى أغراضه .

فأما من حيث الأخيلة فقد كانت محدودة بسيطة قريبة ، لا تعتمد إلا على التشبيه والمجاز المتكلفين .

ومن حيث المعانى ، فقد كان أكثرها معانى تقليدية ليس لشعراء هذا العصر فضل فى تركيبها ولا فى ابتكارها ، وكثرت سرقات الشعراء بعضهم من بعض ، ولم يصحب هذه السرقات تصرف فى الأسلوب ولا فى الفكرة ، ولا فى الخيال ، أو المعنى . . ونجد عند قليل من شعراء هذا العصر بعض المعانى الجديدة ، التى كانت أثراً من آثار الامتزاج بين الثقافات .

وأما من حيث الأساليب والألفاظ : فقد كثرت فى هذا العصر الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية المقوتة المتكلفة المتخاذلة ، وعجز الشعراء عن النظم السمح وعن الأسلوب السهل وعن شعر الطبع والوهبة عجزاً بيناً .

وقد ابتدعوا فى المحسنات اللفظية نوعاً جديداً سمى التاريخ الشعرى وقد أثبته عبد الغنى النابلسى المتوفى عام ١١٤٣ هـ صاحب البديعية المسماة نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ، وقال : « وهذا نوع اخترعه المتأخرون ، ولهم فيه العجب العجاب ، وقد أدرجته فى سلك البديع لعلو مرتبته ، وسمو مناقبه ، ولطف مسلكه ، وطلوع شمس البلاغة فى أوج فلكه ، وهو أن يأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة ، أو كلمات إذا حسبت حروفها حساب الجمل (بتشديد الميم) بلغت عدد السنة التى يريدها المتكلم من التاريخ الهجرى ، ومن أمثلته قصيدة نظمها محمد شاكر التحلاوى من شعراء هذا العصر يمدح بها الشيخ عبد الغنى النابلسى المتقدم ذكره وقد ضمن كل بيت منها تاريخين لسنة ١١٣٦ هـ وافتتح أبياتها بحروف إذا جمعت على ترتيبها بألف منها بيتان فى كل منهما أربعة تواريخ لهذه السنة أما هذان البيتان فهما :

أهديك مدحاً بليغاً : يا من غدا   بحر الفتوحات ، يا هى الفضل والمنن
ألفاظه كنجوم ، فهى تشرق ما   بدا سنا بدرها أرخه ، عبد غنى »

وهذا النوع الذى اعتبره بعض شعراء هذا العصر من المحسنات لا نراه إلا ضرباً من ضروب العبث الذى يذهب بقيمة الشعر ؛ والنابلسى مؤرخاً لعام ٢٠٧٢ هـ الذى ترقى فيه العلامة محمد الأسطوانى :

نصر كل الأنام أرخ (ممات علامة الوجود)

٤٨١ ٥٤١ ١٥٠

٤ — وأما أغراض الشعر فى هذا العصر : فقد وقف الشعر عند أغراض المتقدمين ، واقتصر الشعراء على تقليد السابقين .

وقد أسرف الشعراء فى المجون والعبث . . ونظم بعض الشعراء فى الموشحات ، ومنهم ابن شمعة م ١١٥٠ هـ وسواه .

وهكذا ضعف الشعر فى هذا العصر ، وأصبح ركيك الأسلوب ، سخيف المعانى ، كثير الأغلاط ضعيف الأغراض ؛ إذ كان أغلبه فى الغزل الصناعى والإخوانيات .

وكان من أسباب ضعفه ما يأتى :

١ — كان الحكام تركا متعصبين لنشر لغتهم .

٢ — كانوا يجهلون اللغة العربية ، فأبعدوا الشعراء عن مجالسهم .

٣ — انتشر الجهل فى عهدهم لإغلاق معاهد العلم وعدم العناية بالثقافة .

٤ — كثر الظلم والاستبداد ، فشغل الناس بأنفسهم عن الأدب والشعر .

٥ — ضعفت المواهب والملكات بتأثير النكبات التى أحاطت بالثقافة العربية وبالعالم العربى ، ولمحاربة العثمانيين للبلاد العربية حرباً خفية من شأنها أن تعوق نهضة هذه البلاد وتقدمها وازدهار العلم والأدب والثقافة فيها .

٦ — فقدان روح التشجيع للشعراء والأدباء ، والأدب لا يزدهر إلا إذا وجد من يعمل لإنعاشه ، ويشجع على خدمته .

أشهر شعراء هذا العصر

الشهاب الخفاجي المصري

٩٧٥ — ١٠٦٩ هـ

نسبه وأسرته :

والد الشهاب هو محمد بن عمر الخفاجي المصري الشافعي المتوفى في عام ١٠٦٩ هـ أحد علماء عصره ؛ وأعلام دهره . وكان من الفضلاء ، والأدباء البارعين ؛ المتعمقين المتفننين ، أخذ عن كبار الشيوخ ، وتصدر للافادة ، فانتفع به جماعة من كبار العلماء ؛ من جملتهم ابنه الشاعر العلامة الشهاب الخفاجي صاحب طراز المجالس وسواه من المؤلفات القيمة . ؛ وتوفى والده بعد حياة حافلة ، وخدمات جليلة أسداها للعلم والدين والأدب واللغة(١) .

أما ابنه الشهاب الخفاجي(٢) : فمجال الحديث عنه واسع ، والمراجع

---

(١) ٤١٩ جـ ٧ دائرة المعارف للبستاني ، وورد في هذا المرجع أن وفاته عام ١٠١١ هـ وهو غير صحيح إذ قد ذكر الشهاب في الريحانة في ترجمته لخاله أبي بكر الشنواني أنه توفى هو ووالده في وقت واحد (١١٦ الريحانة) . وقد توفى خاله عام ١٠١٩ هـ .

(٢) ترجم لنفسه في الريحانة (٢٧٢ — ٣١٩) . وترجم له المحبي في الجزء الأول من تاريخ خلاصة الأثر (٣٣١ — ٣٤٣) كما ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر (٤٢٠ — ٤٢٧) وأشار إلى كتابه الريحانة في ص ٨ وأثنى عليه . وله ترجمة في مصباح العصر في تواريخ شعراء مصر طبع بيروت ١٢٨٨ هـ ، =

التاريخية والأدبية عنه وعن حياته وشعره كثيرة ، وسأتناول جوانب هذه الشخصية الكبيرة فى إيجاز .

يقول ابن معصوم فى « السلافة » عنه : أحد الشهب السيارة ، والمقتحم من بحر الفضل لجه وتياره ، فرع تهدل من خفاجة(١) ، وفرد سلك سبيل البيان ومهد فجاجه(٢) ، إلى آخر ما يقول ، ويقول فنديك فى كتابه « اكتفاء القنوع » : الخفاجى يرجع نسبه إلى قبيلة « خفاجة » ، وسكن أبوه فى قطعة أرض بقرب سرياقوس شمالى القاهرة(٣) .

= وترجم له جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٨٧ ج ٣ . وترجم له الأستاذ محمود مصطفى فى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربى ، وفى الجزء الثانى من المفصل ترجمة له (٣٠٨ — ٣١١) وترجم له فنديك فى اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٣٥١ . وترجم له البستانى فى دائرة المعارف ٥٨٧ و ٥٨٨ ج ١٠ — كما ترجم له كثير من علماء الأدب فى شتى المؤلفات ، وله ترجمة فى عقد الجواهر والدرر فى أخبار القرن الحادى عشر (ص ١٧٧ من التراجم المتقطعة منه الملحقة بآخر طبقات الشافعية للأسدى رقم ٢٤٠ تاريخ — تيمورية) وله ترجمة فى كتابى بنو خفاجة الجزء الثانى ص ٥٩ — ٧٣ .

(١) هى قبيلته العربية التى ينتمى الشهاب إليها .

(٢) ٤٣٠ السلافة .

(٣) ٣٥١ اكتفاء القنوع وراجع خلاصة الأثر ٢٤٣ ج ١ ؛ ومقدمة الجزء الأول من حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ص ٧ حيث صدر بذكر ترجمة المحبى للشهاب فى كتابه خلاصة الأثر .

حياة الشهاب :

هو محمود بن محمد بن عمر الخفاجي ترجم لنفسه فى الريحانة فقال ما ننقله عنها فى إيجاز : « كنت بمدسن التمييز ، فى مغرس طيب النبت عزيز ، فى حجر الذى غنى عن المدح ، فلما درجت من عشى قرأت على خالى سيبويه زمانه علوم العربية(١) ونافست إخوانى فى الجد والطلب ثم قرأت المعانى والمنطق وبقية علوم الأدب الإثنى عشر ونظرت فى كتب المذهبين : أبى حنيفة والشافعى ، ومن أجل من أخذت عنهم : شيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام الشمس الرملى وأجازنى بجميع مؤلفاته ومروياته بروايته عن شيخ الإسلام

(١) خاله هذا هو أبو بكر إسماعيل بن شهاب الدين . والده شهاب الدين الشنوانى القطب الربانى ، وجده الاعلى ابن عم سيدى وفا الشريف الوفائى التونسى . وكان أبو بكر علامة عصره فى جميع الفنون وكان فى عصره إمام النحاة ، ولد بشنوان ؛ ودرس فى القاهرة على ابن قاسم العبادى وعلى محمد الخفاجى والد الشهاب وأخذ عن كثير سواهما ، وتخرج عليه كثير من العلماء وانتهت إليه الرياسة العلمية ، ولازمه وتخرج عليه ابن أخته الشهاب الخفاجى وسواه من أكابر العلماء ، ثم ابتلى بالفالج فمكث فيه سنين لا يقوم من مجلسه إلا بمساعد وله عدة مؤلفات ، وله شعر رواه الشهاب فى الريحانة (١٥٥ الريحانة) وتوفى سنة ١٠١٩ عقب طلوع الشمس من يوم الأحد ثالث ذى الحجة وبلغ من العمر نحو الستين ودفن بمقبرة المجاورين [راجع ترجمته فى الريحانة] [١١٤ — ١١٧] وفى الجزء الأول من خلاصة الأثر [٧٩ — ٨١] ، وفى الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا فى الكلام على شنوان [١٣٨ — ١٤٣ ج ١٢] .

زكريا الأنصاری (المتوفی عام ٩٢٦ ﻫ) وعن والده ، ومنهم أحمد العلقمی(١) أخذت عنه الأدب والشعر ، والعلامة الصالحی الشامی(٢) والشیخ داود البصیر أخذت عنه الطب(٣) ، ثم ارتحلت مع والدی للحرمین وقرأت هناك علی ابن جاد الله وعلی حفید العصام وغیره ثم ارتحلت إلی القسطنطینیة فتشربت بمن فیها من الفضلاء والمصنفین واستفدت وتخرجت علیهم ، وممن أخذت عنه الریاضیات وقرأت علیه اقلیدس وغیره أستاذی ابن حسن ، ثم انقرض هؤلاء العلماء فی مدة یسیرة فلم یبق بها عین ولا أثر ، وآل الأمر إلی اجتراء السلاطین والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم ، ولما عدت إلیها — أی القسطنطینیة — ثانیاً بعدما رأیت قضاء العساکر بمصر رأیت تفاقم الأمر وغلبة الجهل فذکرت ذلك للوزیر ، فکان ذلك سبب عزلی وأحری بالخروج من تلك المدینة(٤) » .

« فإن أردت مالی من المآثر فمن تآلیفی : الرسائل الأربعون ، وحاشیة تفسیر القاضی فی مجلدات ، وحاشیة شرح الفرائض ، وشرح الدرة ، وطراز المجلس ،

---

(١) ترجم له فی الریحانة ص ١٩٥ :

(٢) هو محمد بن نجم الدین الصالحی الهلالی م ١٠١٢ ﻫ — ١٦٠٣ م وله دیوان شعر اسمه « سجع الحمام فی مدح خیر الأنام » طبع فی القسطنطینیة عام ١٨٩٨ [١٩٣ من اکتفاء القنوع] .

(٣) راجع ٢٧٢ الریحانة وترجم له فی الریحانة ص ٢٠٥ .

(٤) راجع ٢٧٢ الریحانة .

وحديقة السحر ، وكتاب السوانح ، والرحلة(١) ، وحواشي الرضي ، والجامي ، وشرح الشفاء وغير ذلك ، ولى من النظم ما هو مسطور فى ديوانى ، ومن المنثور رسائل منها : الفصول القصار(٢) والمقامة الرومية(٣) التى ذكرت فيها أحوال الروم وعلمائها(٤) » .

وللشهاب عدة مقامات نسج فيها على منوال مقامات الحريرى منها : مقامة الغربة(٥) ، والمقامة الساسانية(٦) ، ومقامة عارض بها مقامة الوطواط(٧) والمقامة المغربية(٨) . وله رسائل كثيرة . وكتاب آخر عنوانه « ديوان الأدب فى ذكر شعراء العرب » .

(١) قرأه عليه تلميذ للشهاب عبد القادر البغدادى وأجاز الشهاب بما له من التآليف والآثار وما رواه عن مشايخه الأخيار [راجع ٢٨٦ الريحانة] . وعبد القادر هذا هو عبد القادر البغدادى نزيل القاهرة وتلميذ الشهاب وصاحب خزانة الأدب وتوفى سنة ١٠٩٣ [١٠٦ فنديك] .

(٢) نسج فيها على منوال ابن المعتز وذكر منها جزءاً فى الريحانة ٢٨١ — ٢٨٥

[٣] راجعها فى الريحانة ١٧٦ — ١٨١

[٤] ص ١٧٦ الريحانة .

[٥] راجعها فى الريحانة [١٨٦ — ١٩٠] وذكر شرحاً موجزاً لبعض ما فيها من معان غريبة [رجع ١٩٠ — ١٩١] .

[٦] راجعها فى الريحانة [١٩١ — ١٩٥]

[٧] راجعها فى الريحانة [١٩٥ — ١٩١ .

[٨] راجعها فى الريحانة [١٩٨ — ١٠٠] وشرحها فى الريحانة [١٠٠ — ١٠٩]

« وكان لما وصل إلى الروم فى رحلته الأولى القضاء ببلاد « الروم التى » حتى وصل إلى أعلى مناصبها فى زمن السلطان مراد ، حتى اشتهر بالفضل فولاه السلطان قضاء سلانيك فاستفاد مالا كثيراً ، ثم أعطى بعدها قضاء مصر وبعدما عزل عنها رجع إلى الروم فمر على دمشق وأقام أياما ومدحه فضلاؤها بالقصائد واحتفى به أهلها وعلماؤها ، ودخل مدينة حلب إثر ذلك ثم رحل إلى الروم وكان إذ ذاك مفتيها يحيى بن زكريا فأعرض عنه فصنع مقامته التى ذكرها فى الريحانة وتعرض فيها للمولى المذكور ، فكان سبب نفيه إلى مصر وأعطى قضاء فيها ، فاستقر بمصر يؤلف ويصنف وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر منهم : عبد القادر البغدادى والحموى وأخذ عنه والد المحبى وكتب عنه أصل الريحانة الذى سماه « خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا(١) » ، « وأصل والده من قرى الخانقاه(٢) » .

« ومنى الشهاب بعداوة بعض شعراء عصره(٣) » « وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ١٦٥٨ » (٤) فى رمضان وعمره فوق التسعين(٥) » وإذا يكون ميلادها نحو عام ٩٧٥ هـ .

[١] ١١١ و ١١٤ ج ١ خلاصة الأثر
[٢] ١٤١ ج ١ خلاصة الأثر
[٣] ٤٧ السلافة لابن معصوم
[٤] ١١٥ فنديك
[٥] ٥٨٨ ج ١٠ البستاني

مكانته العلمية :

والشهاب الخفاجى الحنفى قاضى القضاة المصرى وصاحب التصانيف الكثيرة وأحد الأفراد المجمع على إمامته وتفوقه وبراعته فى عصره (١) » وأجرى من ينبوع الفضل ما أخجل بمصر نيلها وبالشام سيحانه ، وأهدى لأرباب الأدب من رياض أدبه أطيب ريحانه(٢) . وكان أحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وكان فى عصره بدر سماء العلم ونير أفق النثر والنظم رأس المؤلفين ورئيس المصنفين ، سار ذكره مسير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب فى الفلك ، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد فى التقرير والتحرير وحسن الإنشاء ، وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعى ذلك . وتآليفه كثيرة مقبولة وانتشرت فى البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها ، وأشعاره ومنشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها ، والحاصل أنه فاق كل من تقدمه فى كل فضيلة وأتعب من يجىء بعده ، ما خوله الله من السعة وكثرة الكتب ولطف الطبع والنكتة والنادرة(٣) .

وهذا يغنينا عن كل كلام فى بيان منزلة الشهاب الخفاجى فى عصره وبعد عصره .

---

[١] ٥٨٧ ح ١٠ البستانى

[٢] ٤٠ السلافة لابن معصوم

[٣] ١ ٣٣١ — ٣٣٢ ح ١ خلاصة الإثر للمحبى ١١١١هـ ، وص ٧ ح ١ حاشية الشهاب .

ولا يفوتنا أن نقول إن الشهاب كان من شبوان — وهى إحدى قرى المنوفية ثم أقام بأرض له بجوار سرياقوس ، كان له ذرية كبيرة بقيت إلى العصر الحديث فى شنوان(١) وأخيراً فإن التراث العلمى والأدبى للشهاب الخفاجى كبير جليل .

ثقافة الشهاب :

أما ثقافة الخفاجى الأدبية فواسعة جداً ينبئنا عنها كتاباه الريحانة وطراز المجالس ؛ ويدلنا عليها أيضاً شعره ومقاماته ، ولقد كان الخفاجى متضلعا فى علوم اللغة والأدب والبلاغة إلى حد بعيد .

واما ثقافته الدينية فقد أهلته لتولى عدة مناصب قضائية عظيمة : منها منصب قاضى القضاء المصرى . وأما ثقافته العامة الأخرى فواسعة جداً كما تنبئنا عنها آثار الخفاجى وكما ذكر فى ترجمته لنفسه وكانت له مكتبة مشهورة وذكر بعضهم أنه وجد فى مخلفاته عشرة آلاف مجلد .

[١] لشنوان حديث فى المجد والتاريخ، طويل وقد ذكر الجبرتى عنها فى حوادث عام ١١١١ هـ أن منها الفقيه العلامة محمد الشنوانى الشافعى

صور من شعر الشهاب

١ — أرح طرف عين جفاها الهجوع   فإن عناء الجفون الدموع
حسيت كؤوس الهوى سحرة   وساقى المنى لمرادى مطيع
إلى حين غابت نجوم الهدى   فكان لها فى عذارى طلوع
تقنعت بالوصل من طيفه   وكل محب لعمرى قنوع
ولى عنده حاجة للهوى   وليس لها غير ذلى شفيع
رهنت فؤادى على حبه   فما باله لفؤادى يضيع
تقيل المحاسن فى ظله   وماء الجمال عليه يشيع

٢ — قلت للندمان لما   مزقوا برد الدياجى
قتلتنا الراح صرفا   فاقتلوها بالمزاج(١)

٣ — ومن شعره(٢) :

لا وغصن راق الطرف ورق   وعليه من حلل الظرف ورق

= الازهرى شيخ الإسلام بعد موت الشرقاوى ، وقد تولى المشيخة عام ١١٧٧ وتوفى فى ٢٤ من المحرم عام ١٢٣٣ هـ [١٣٥ — ١٣٧ كنز الجوهر فى تاريخ الازهر] وقد يكون هذا الإمام العالم العظيم من أحفاد الشهاب ومن سلالة المقاجيين فى شنوان. ومن شنوان خرج أيضاً كثير من العلماء والأدباء والشعراء

[١] ٢٣٩ : ١
[٢] ٢٥٤ السلافة لابن معصوم .

وشموس لم تغب عن ناظرى والشمور الليل والخد الشفق

وعيون حرمت نومى وما حللت لى غير دمعى والأرق

ما احمرار الراح إلا خجل من رضاب سكرت منه الحدق

٤ — وله أيضاً(١) .

قل للأحبة أنتم مذ غبتم لم ألق وجها للسلو جميلا

[١] د ٤١ السلافة لابن معصوم :

صورة من نثر الشهاب

١ — للشهاب مقامة تدعى « المقامة الساسانية » ، جاء منها :

حدثنا مالك بن دينار ، عن مسافر بن يسار ، قال : كنت والشهاب غرابة لا يطار ، وثمراته الجنية تجنى من رياض الأخبار ، أهوى السياحة والناس ناس والديار ديار ، والدهر غر لم يفطن لتلون الليل والنهار :

ولم أر يوماً فى ظلام مفارق   شهاب مشيب لاح فى الإثر منقضا

فسرت فى الأرض لأنظر آثار رحمته ، وأرى مآثر الطراز الأول فى أعلام حلته ، إن من جد وجد ، ومن توانى فقد فقد ، رافعا عصا التسيار . على كاهل الاعتبار ، رافضا الاستراحة فى مهد الدعة ، مشيما قلبا فارق حبيبا ودعه ، قاطعا أملا عن در أنس ارتضعه . أضرب كرة الأرض بصولجان الهمة ، لا أعبأ بقامة غير قائمة وهمة(١) همة أتدرع برد الليل ، لأنه أخفى للويل ، وأشق أديم النهار للسير ، ولم أقل ليس للعصاسير ، كهشيم ترفعه أعاصير تدور ، وورق جف فألوت(٢) به الصبا والدبور على غصن يانة خضل(٣) ، بثنه ريح هنا وهنا ، إوقذى فى عيون البلاد ، أو غير شرود ترميه الروابى للوهاد(٤) .

كأنى من الوجناء(٥) فى متن موجة   رمتنى بحار مالهن سواحل

---

(١) الهم والهمة بالكسر : الشيخ الفانى ، أى همة ضعيفة

(٢) ألوت به : أى طارت به : والصبا والدبور : ريحان .

[٣] الخضل : الندى المبتل .

[٤] العير والحمار : والروابى الأمكنة العالية ، والوهاد : الأمكنة المنخفضة .

[٥] الوجناء : الناقة الشديدة .

أدب الشهاب

نثره :

عاش الخفاجي في عصر العثمانيين حيث للملكات الأدبية في اضمحلال وفناء والإنتاج الأدبي في الشعر والنثر سقيم مرذول ، ولكن الخفاجي مع هذا كله سليم العبارة قوى الملكة حسن الأسلوب بليغ الأداء يسير كلامه مع الطبع والذوق ولا تنبو عنه الأسماع ولا الأذواق فهو في نثره ورسائله ومقاماته وكتبه الأدبية التي ألفها زعيم عصره في هذا المذهب الأدبي المطبوع المقبول البعيد عن أثر الصنعة والتكلف أو الحوشية والأغراب أو السوقية والابتذال .

شعره :

للخفاجي ديوان شعره مفقود ذكره في الريحانة وقد عثرت بعد ذلك على نسخة خطية منه بمكتبة الأزهر (بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب) وله عدا ذلك شعر كثير جدا ذكره في كتابه الريحانية وفي كتابه طراز المجالس ، وله مقصورة في مدح النبي صلوات الله عليه عارض بها مقصورة ابن دريد وقصائد أخرى في هذا المعنى ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب (٧٦ مجاميع (١)

---

(١) راجع الجزء الثالث من فهرس دار الكتب حيث قال : « قصائد الخفاجي م ١٠٦٩ » وذكر فيها ميميته التي عارض بها معلقة زهير، ومقصورته التي عارض بها ابن دريد وخمس قصائد أخرى في مدح الرسول.

ومقصورته فى مدح النبى عارض بها مقصورة زهير بن أبى سلمى ضمن ترجمة له ، وعدة أشياء أخرى من آثاره ألحقت بكتاب خبايا الزوايا المخطوط(١) ، وروى المحبى فى خلاصة الأثر بعض شعره ، قال (٢) : ومن اجود شعره قصيدة دالية مشهورة :

قدحت رعود البرق زندا ... أضرمن أشجانا ووجدا
حتى تثاءب نوره ... وتمطت الأغصان قدا
وعلى الغدير مفاضة ... سردت له النسمات سردا
وحبابة من فوقه ... قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى ... قد أنبتت حبا ووردا
لذر الليالى فى ثرى ... من عنبر للمسك أهدى
عجبا لدر ناصع ... أودعن فى مسك معدى
فى ظل عيش ناعم ... بنسيم أسحار تردى
والدهر عبد طائع ... أهدى لنا شرفا وسعدا
ما زال أصدق ناصح ... كم قال لى هزلا وجدا
سلم امرؤ عن طوره ... فى كل حال ما تعدى
فالخطب بحر زاخر ... فاصبر له جزرا ومدا

---

(١) بالدار (٨٤و١٣١٢ و ٤٦٩٧) أدب .
(٢) ٣٣٦ وما بعدها جـ١ خلاصة الأثر .

في ذمة الأيام للأحـــــرار دين قد يؤدى
إن ما طلت فلربما أنجزن بعد المطل وعدا
فإذا رمى طأطىء له رأسا ، تراه عنك عدى
أفبعد إخواني الألى درجوا ، أخاف اليوم نقدا
عيني إذا استسقت بهم نظمت في الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا من شاسع الأقطار وفدا

www.dar-alkotob.com دار الكتب

مؤلفات الخفاجي

١ — الريحانة واسمها « ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، ويقول فيها الشهاب:هذه ذخائر من « خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا » وقد سار عليها هذا الإسم أيضاً ، وهي تراجم أدبية واسعة لشعراء القرن الحادى عشر وأدبائه وعلمائه في مصر والشام واليمن والحجاز والمغرب . قسمها عدة أقسام : فالقسم الأول في تراجم أهل الشام ونواحيها،والقسم الثاني في تراجم المصريين من أهل المغرب وما والاها ، والقسم الثالث في تراجم مكة ومن بحماها ، ذكر فيه الدولة الحسينية ومن بها من بقية العلماء والشعراء والأعيان ، والقسم الرابع في ترجمة أهل اليمن ممن بلغنى خبره في هذا الزمان وممن بقي بها من الفضلاء والشعراء وكان قريب العهد والقسم الخامس في الترجمة لأدباء وعلماء مصر ، والقسم السادس في الترجمة لنفسه..وقد أثنى عليها كل العلماء ورجال الأدب ، ويقول فيها ابن معصوم : « أهدى إلى مكة المشرفة كتاب ريحانة الألبا تأليف العلامة التحرير شهاب الدين الخفاجي ، وهو الشهاب الذى أضاء نور فضله في هذا الزمن الداجي ، فرأيته قد أجاد فيما أفاد وتكفل بالمقصود ما تكلف ، فلله كتابه من ريحانة تنفست في ليلها البارد ، وعطرت معاطس الأسماع بطيب نشرها الوارد ، حتى خاطبها كل كلف بالأدب راح لعرفها منتشقا الخ » (١) « وقد بنى الخفاجي الريحانة على التراجم ، ولكنه توسع في تراجم الشعراء فشرح أقوالهم ونقد ما يستحق النقد منها وهو كتاب

---

(١) ص ٨ من السلافة .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أدب وتاريخ جليل الفائدة (١) وقد ذيلها المحبى صاحب خلاصة الأثر م ١١١١هـ بكتاب سماه « نفحة الريحانة » وطبعت الريحانة فى مصر عام ١٢٩٤هـ فى ٣١٨ صفحة . وهذه الطبعة المذكورة هى التى نقلنا منها عن الشهاب ثم طبعت مرة أخرى سنة ١٣٠٦ هـ فى ٤٣٣ صفحة .

٢ — حديقة السحر ، أشار إليه الشهاب فى الريحانة (٢) .

(٣) الفصول القصار ، أشار إليه الشهاب فى الريحانه(٣) .

٤ — الشهب السيارة (٤) .

(٥) طراز المجالس كتاب أدب ولغة بناه على خمسين مجلسا (أى درسا) . فيه كثير من موضوعات البلاغة والنقد واللغة والتفسير والحديث والتاريخ وسواها ، وقد طبع فى القاهرة عام ١٢٨٤ وطبع بطنطا طبعة أخرى وقد أشار إليه الخفاجى فى الريحانة (٥) .

٦ — خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا ، وهو من كتب الأدب ولكنه متضمن تراجم من أهل عصره فيهم شيوخه وشيوخ ابنه ، وعددهم يزيد على سبعين ، ومنه عدة نسخ خطية بدار الكتب (٦) ، وهو خمسة أقسام خاتمة : الأول فى رجال الشام ، والثانى فى رجال الحجاز ؛ والثالث فى رجال

---

(١) ٢١٠ جـ ٣ الأدب العربى لمحمود مصطفى
(٢) راجع ص ٢٠ و٣٨ و ٢٦٧ (٣) راجع ٢٧٦ و ٢٨١ .
(٤) راجع ١١٩ الريحانية . (٥) راجع ص ٢٨٦ .
(٦) ٢١٠ : ٣ الأدب العربى لمحمود مصطفى ، ٩٢ : ٣ فهرس الدار (وهى بنمرة ٨٤ ، ١٣١٢ ، ٤٦٩٧ أدب بدار الكتب) .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

مصر والرابع فى رجال المغرب ، والخامس فى رجال الروم (١) .

٧ — شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل ، صدره بمقدمة فى التعريب وشروطه ثم أورد الكلمات المعربة مرتبة على حروف المعجم وعين أصلها فى لغاتها الأولى ، وكان يأتى بين هذه الألفاظ بكثير من المحرف والمولد مع الإشارة إلى أصلهما ، والكتاب نافع عظيم الفائدة فى بابه (٢) وقد طبع الشفاء فى مصر عام ١٢٨٣ .

٨ — شرح درة الغواص » ورد عليه بحجج وشواهد قوية . وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية من مدة كبيرة (٣)

٩ — حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى سماها « عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ، طبعت فى ثمانية أجزاء ببولاق عام ١٢٧٣ ﻫ فالجزء الأول والثانى فى تفسير البقرة ، والثالث والرابع إلى آخر التوبة . والخامس والسادس إلى آخر الفرقان ، والسابع إلى آخر الزخرف . والثامن هو نهاية هذا الكتاب وقد طبع بتصحيح الشيخ محمد الصباغ فى عهد الخديوى إسماعيل عام ١٢٨٣ ﻫ وفى آخر الجزء الثامن قصيدة للسيدعبدالهادى نجا تقريظا للكتاب وفى مقدمة الجزء الأول منه تقريظ للشيخ محمد الدمنهورى.

---

(١) والخاتمة فى نظم المؤلف وشعره ، وقد فرغ من تأليفه فى ٢٥ ربيع الثانى عام ١٠٤٢ ﻫ ويليها ترجمة المؤلف وقصيدة نبوية عارض بها معلقة زهير .

(٢) راجع ٣٠٨ : ٣ ، الأدب العربى لمحمود مصطفى .

(٣) للألوسى م ١٢٧٠ ﻫ مفتى بغداد كتاب على الدرة سماه كشف الطرة عن الغرة أخذ فيه كثيراً من شرح الخفاجى ووافقه فى كثير من نقده للحريرى.

www.dar-alkotob.com دار الكتب

١٠ — وللخفاجى شرح للشفاء سماه « نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض » وقد طبع فى أربعة أجزاء فى القسطنطينية سنة ١٢٦٧ هـ

١١ — ومن مؤلفاته : كتاب الرحلة ، وكتاب السوانح (١) وكتاب حديقة السحر ، وكتاب الرسائل الأربعون . وكتاب حاشية شرح الفرائض ؛ وكتاب حواشى الرضى والجامى مما ذكرناه سابقاً .

١٢ — وللخفاجى ديوان شعر ، وله عدة مقامات ورسائل أوردها فى الريحانة وذكر جورجى زيدان أن فى الخزانة التيمورية نسخة من ديوان الشهاب بخط المؤلف على الأرجح . وله قصائد مختلفة فى برلين .

---

(١) ومنه نسخة خطية بمكتبة الأزهر (نمـــرة ٦٥٣ خصوصية أدب) ، وفى المكتبة أيضاً نسخة خطية من ديوانه (بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب) .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فهرس الكتاب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

﴿ انتهى الـكتاب بحمد الله وعونه ﴾

طبع بمطبعة زهـــــــران
٤ شارع حمام المصبغة بالـكحكيين